جورج فريحه

مع بشير

ذكريات ومذكّرات



دار سائر المشرق

جورج فريحه



ذكريات ومذكّرات





الطبعة الأولى
٢٠١٧

للنشـر والتـوزيـع

جديدة المتن – سنتر بايلايان – الطابق السابع
رقم الهاتف والفاكس 01-900624
info@entire-east.com
www.entire-east.com

ISBN: 978-614-451-078-0

تنفيذ الكتاب: **creative couple**
www.creativecoupleart.com

إلى فيفيان موريس الجميّل،

شريكة عمري ورفيقة دربي،
مثال الحبّ والحنان، التي رافقت بشير معي، بكلّ إخلاص ومحبّة،
حتى استشهاده.

كلمة شكر

إلى أنطـوان سـعد، ذوّاقـة كلمـة، ذوّاقـة أسـلوب، يـأبى أن تُنفـض يـداه عـن كلمـة أو كلـمات، إلا ويلاحقهـا، ليوقـظ حسـنها ويبـيِّن نزوعهـا إلى الأحسـن، إلى الأجمـل، ولربمّـا إلى الكـمال.

وكلمـة شـكر أيضًـا إلى زوجتـي فيفيـان، وأولادي الثـلاث، هـلا وفـادي وجـوزف، وإلى فاديـا صليبـي وكريسـتين سانوسـيان، الذيـن أسـهموا في جعـل الكتـاب متوازنًـا في مضمونـه وأسـلوبه.

وشكر خاص إلى السيدة حنان صادق ومؤسسة بيار صادق.

المقدمة

ورث جاهًا كبيرًا عن عائلة عريقة في السياسة فكانت إطلالته سريعة كالسهم. تضافرت عنده مجموعة مزايا قلّما وجدتُها عند شاب حديث العهد في دنيا السياسة. يتكلّم من مركز قوة من دون تعقيدات وببساطة فائقة. ينقل رسالته بأمانة وصدق ويبسّطها مهما كانت صعبة. قال كلمته قبل خمسة وثلاثين سنة، ولا يزال صداها يتردّد كأنها قيلت اليوم.

أحببته كثيرًا كثيرًا. علاقتي به بدأت في مستشفى الجامعة الأميركية حيث كان خاله الشيخ موريس الجميّل يعاني من ذبحة قلبية أصابته في البرلمان وطالت لبضعة أيام قبل أن تودي بحياته. وكان يحبّ خاله الشيخ موريس ويقول عنه: «هذا العظيم لم يفهمه أحد، فعمل وحده مع فريق لم يتعاطَ السياسة وصمّم وحده وخطّط وحده وكاد أن يصل إلى القمة، لولا الأغبياء من حزب الكتائب وخاصة المقربين منه».

تكرّرت بعدئذٍ لقاءاتي ببشير على مدى سنة، فكان أوّلها في دعوة إلى دار والده في كانون الثاني ١٩٧١، جمعت عددًا من أساتذة الجامعة الأميركية، جاءوا يشكون سيطرة طلاب الأحزاب اليسارية على الجامعة. وقد اكتشفت في ذلك الظرف شخصيته القيادية المقدامة القادرة على تحدّي الظروف الصعبة بشجاعة ورباطة جأش، والمستعدّة لخوض مواجهات يخشى الناس العاديون غمارها.

تعدّت لقاءاتي به الصعيد التربوي إلى الاجتماعي والسياسي، فتكاثرت الاجتماعات وخاصة في منزلي الذي أصبح منزلًا له. وكانت مضيفته الأولى زوجتي فيفيان وهي صغرى البنات السبع لخاله موريس الجميّل، وكان يناديها «أختي الصغيرة». قدّرها كثيرًا خاصة لنصائحها الصريحة والبريئة والمخلصة ولاشتراكها الأساسي في جمع التبرّعات لمساندة العمل العسكري لقوّاته، مما جعله يتردد

إلى منزلنا وكأنه منزله، لا يتوانى في جعله مركزاً للاجتماعات وموئلًا للشخصيات والندوات.

كانت فيفيان تأمل أن يتابع بشير مسيرة أبيها في الإخلاص والتفاني للبنان، ويتبوّأ ما أبعده عنه أقرب الناس إليه، وهو الرئاسة. ولما انتُخب بشير، وفَتْ فيفيان نذرَها، وصلّت من أجل نجاحه، وخاصة عندما قال لها قبل يومين من استشهاده وهو يشاهد أطفالنا الثلاثة نائمين كالملائكة: «أعدكِ بأنه لن يتيتّم طفل في لبنان بعد اليوم».

يا بشير، لقد تيتّم طفلاك وجميع أطفال لبنان بعد استشهادك. وهيهات أن يأتينا بشير آخر ليخلّصنا. كنت حلمنا الجميلَ وإننا نعيش كلّ لحظة هذا الحلم.

هذا الكتاب هو ذكرياتي ومذكّراتي معه عسى أن أوفيه بسردها بعضًا من حقّه.

الفصل الأول:

آل الجميّل والرئاسة

تعاقبت من آل الجميّل شخصيات مرموقة لمدة ثلاثة قرون على مقدمة الأحداث السياسية، وبرز منها أربعة رُشِّحوا لرئاسة الجمهورية اللبنانية. فمن أرشيف أنطوان شعبان والشيخ سامي ميشال الجميّل وصهره لويس إنجا، سجّلنا المعلومات التالية:

الشيخ يوسف الجميّل:

هو ابن بشير الجميّل (أبو علي) وشقيق الدكتور أمين الجميّل، والد الشيخ بيار الجميّل. له ستة إخوة وأختان، واحدة تدعى عفيفة وهي والدة الشيخ موريس الجميّل. ولد سنة ١٨٧٤ وتخرّج من كلية الصيدلة في الجامعة اليسوعية سنة ١٨٩٤، وانتظر حتى عام ١٩٣٥ كي ينشئ «صيدلية الجميّل». قبل ذلك، عمل الشيخ يوسف مع أخيه الدكتور أمين وأبناء عمّه كنج والياس الجميّل في زراعة التبغ وصناعة السجائر العصرية، فأنشأوا في جنوب لبنان وشماله حقولًا خاصة لزراعة التبغ.

أثناء الحرب العالمية الأولى، وهربًا من ظلم الأتراك، ويقال إنه كان مطلوبًا لينضمّ إلى شهداء لبنان، انتقل الشيخ يوسف إلى الإسكندرية في مصر وعاد منها إلى بيروت بناءً على استدعاء من جورج بيكو. ومن بيروت، سافر إلى باريس في سنتين متتاليتين ١٩١٩ و١٩٢٠، مع الوفد البناني للمطالبة باستقلال لبنان. وقد ضمّ الوفد آنذاك إميل إده وتوفيق أرسلان ويوسف الجميّل برئاسة المطران عبد الله الخوري. على أثر ذلك، اجتمعت الهيئة الإدارية في جبل لبنان برئاسة حاكمه القومندان لابرو، وأعلنت استقلال لبنان ورفعت العلم اللبناني، وهو نفس العلم الفرنسي بزيادة أرزة خضراء في وسطه.

رفض الشيخ يوسف تولّي مسؤوليات سياسية، إذ عُرضت عليه بإلحاح من قبل جورج بيكو والجنرال غورو والجنرال فيغان ودي جوفنيل مراكز حكومية عالية، ومنها رئاسة الجمهورية مرتين، فرفضها قائلًا: «لا أريد أن أكون موظفًا في دولة غير مستقلّة». غير أن ذلك لم يثنه عن الجهاد خلال النصف الأول من القرن العشرين وبكل قواه، في سبيل المحافظة على حقوق لبنان واستقلاله.

الشيخ موريس الجميّل:

ولد الشيخ موريس الجميّل سنة ١٩١٠.

في خريف العام ١٩٧٠ ما كدت أعود من رحلة شهر العسل، حتى صعقني نبأ سقوط فارس من ألمع فرسان هذا العصر علمًا، وطهارة كف، وكرم خلق ونصاعة وجدان، وحدّة ذكاء، هو الشيخ موريس الجميّل. سقط وهو يتلو قانون إيمانه بلبنان أمام ممثلي الأمة تحت قبة البرلمان. إنهار قلبه الكبير تحت عبء المتاعب والهموم. وفي مستشفى الجامعة الأميركية الذي استقبل موريس الجميّل في ساعاته الأخيرة تعرّفت على بشير الذي أمضى لياليه في ردهة الانتظار، ليتسقّط عن كثب تطور صحة خاله المتدهورة من سيئ إلى أسوأ. فالمريض غالٍ على قلبه وقلب أمه وقلوب الأنسباء جميعًا، وشفاؤه، وفي ذلك الظرف، مرتجى بقوة، كي تعود العائلة ملتفة ومتضامنة، بعد خلافٍ طارئٍ بين الشيخين بيار وموريس. فالشفاء كان ضرورة ملحّة لا بد منها، لئلا تتحرك ألسنة السوء، وتربط المرض بالجفاء الحاصل، وما أدّى إليه هذا الجفاء من ضغط على «الخال» الرهيف الحسّ، السريع التأثّر بما يأتيه من أقرب الأقرباء إليه.

لا أدري ما هي التفاصيل والأسباب التي نجم عنها ذلك الخلاف، وما انتهى إليه من نفور لا يخفى على المراقب البعيد، لكنني عرفت فيما بعد من أحاديث عائلة موريس، ومن بعض مصادر حزب الكتائب، ومن بشير بالذات، ثم من مذكرات رئيس استخبارات الجيش اللبناني العقيد أنطون سعد، التي نشرت في مجلة «الصيّاد» بأن الخلاف القائم بين الشيخ بيار والشيخ موريس في صيف ١٩٧٠ كان سببه رئاسة الجمهورية.

كانت ولاية الرئيس شارل حلو على وشك الانتهاء والتحضير لانتخاب بديل على قدم وساق قبل أيلول ١٩٧٠، والمجلس النيابي مقسومًا بين نواب «النهج» المؤيّدين للرئيس فؤاد شهاب ونواب الحلف الثلاثي بزعامة الرئيس كميل شمعون والشيخ بيار الجميّل والعميد ريمون إده. وبما أن عدد النواب في التكتلين كان متقاربًا جدًا والفوز غير مضمون لأي منهما، وبعدما قرّر الرئيس فؤاد شهاب العزوف عن الترشّح، أوفد الرئيس شارل حلو تباعًا من قبله بعض أركان «النهج» مثل رئيس مجلس النواب آنذاك صبري حماده ورئيس مجلس الوزراء رشيد كرامي والسفير جوزيف أبو خاطر، ليقنعوا الشيخ موريس بالترشّح لرئاسة الجمهورية، ثم بإقناع الشيخ بيار بتبنّي هذا الترشيح، وبعده سائر أركان «الحلف»، فتتوحّد زعامات البلاد على انتخاب الشيخ موريس رئيسًا للجمهورية.

كثرت المحادثات والمفاوضات في هذا الشأن، وتسرّبت الفكرة إلى كثيرين، فأصبحت همسًا ثم أضحت زيارات تهنئة إلى منزل الشيخ موريس. كان طبيعيًا ومرتقبًا أن يوافق الشيخ بيار على ترشيح نسيبه (ابن عمته) وعضو مجلسه السياسي في الحزب وفوق ذلك ألمع مفكري لبنان الذي شغل مناصب دولية بارزة أهمها رئاسة المنظمة العالمية للتغذية (FAO). لكن «أولاد الحلال» كثر و«مبيّضي الوجوه» أكثر و«الغيارى على البلاد» لا يُحصَون من حزبيين وغير حزبيين، فأدخلوا في رأس الشيخ بيار أنه الأفضل له أن يترشّح لرئاسة الجمهورية بدلًا من موريس، وأن الرئيس حلو إنما عرض موريس من باب تفكيك الصف في «الحلف» ليس إلا.

إستساغ الشيخ بيار فكرة ترشيحه من قبل «الغيارى»، وعمل شخصيًا وبواسطة بعض أركان المكتب السياسي في الحزب وخاصة جوزيف شادر على تثبيت هذا الترشيح، وعلى قطع الطريق على وصول موريس إلى رئاسة الجمهورية. وزاد في هذه الدغدغة موقف الرئيس شمعون الذي أقنع الشيخ بيار بأنه لو كان الرئيس حلو صادقًا في توحيد الرأي والكلمة على مرشح واحد، لكان رشح بيار الجميّل لأنه ليس هناك أفضل منه. صدّق بيار الجميّل خدعة شمعون وسهى عن باله أن موريس مقبول أكثر منه في الأوساط الإسلامية والنهجية، لأن مسلكه السياسي ومسلكيته الوطنية جعلا منه، رغم كونه كتائبيًا، أكثر السياسيين انفتاحًا على جميع مكوّنات المجتمع اللبناني، وعلى المحيط الشرق أوسطي، ولأنه أكثر العلماء

والمفكرين جاذبية وقدرة على العطاء في المحافل والأوساط الدولية حيث عرض في أكثر من مؤتمر عصارة أفكاره ومشاريعه وتصاميه الخلّاقة.

سهى عن بال الشيخ بيار كلّ هذا، وانجرف في السياسة الحزبية الضيّقة ففوّت الفرصة على نسيبه وطبعًا عليه فتولّى الرئاسة سليمان فرنجية. ويقال أيضًا إنه أثناء انعقاد جلسة الانتخاب، تقدّم رشيد كرامي وصبري حماده وغيرهما من الشيخ بيار لإقناعه بالتنازل لمصلحة موريس فرفض رئيس الكتائب هذا العرض الأخير. بعد كلّ هذا، اضطر الشيخ موريس إلى تقديم استقالته من حزب الكتائب، لأنه اعتبر نفسه فاقدًا ثقة المكتب السياسي الذي أبعده عن فرصة تاريخية. والعجيب، كما رشح إلينا، أن المكتب السياسي، وأبرز أعضائه حينذاك جوزيف شادر، قَبِل الاستقالة، وأن المرحوم لويس أبو شرف لم يشأ آنذاك أن تمرّ هذه الحادثة من دون أن يفجّر غيظه على المواقف غير المسؤولة والمستهجنة من المكتب السياسي.
والآتي مكتوب استقالة الشيخ موريس الجميّل من حزب الكتائب:

بيروت في ١٦/١٠/ ١٩٧٠

لجانب الأمانة العامة في حزب الكتائب اللبنانية الموقّرة

تحية وبعد،

إنني مع تقديري للدور الوطني الذي قامت به الكتائب اللبنانية في تاريخ لبنان، إن على صعيد الاستقلال والسيادة أو تنشئة الأجيال مواطنيًا، ومع إيماني بأن وجود الكتائب واستمرارها كحركة وطنية وحزب سياسي، لما يزل ضرورة ما دامت وجود الأوضاع متحكّمة في البلاد وما دمنا نعبر مرحلة ممارسة الديمقراطية عن طريق الأحزاب ولم نبلغ بعد مراحل الأرقى التي يرسمها العلم، مع كل هذا، ولأنه أتيح لي منذ زمن أن أنكبّ على شؤون الفكر من كافة نواحيه، وأن أطل على آفاق الخبرة المتنوعة، وأن أقف على مشارف المسؤولية على أكثر من صعيد، فقد تكوّنت لديّ رؤية للأمور تنبع من منطلقات متعدّدة ومتطوّرة ومتبدّلة بسرعة وباستمرار.

وطالما أن بَوْحي بما كان يشغل فكري في هذا المضمار بحماسة أحيانًا، كان سببًا لإزعاج رفاق عمر وجهاد ما كَنَنْتُ لهم يومًا سوى المحبة.

وبما أنني قد خرجت بعد طول تأمّل باقتناع بأنني قد بلغت مرحلة فكرية من التحرّر، لم يعد من الممكن معها أن أستمر سجين الأطر الحزبية، أية أطر حزبية، الأمر الذي يجعل استقالتي من الحزب ليس شهادة علمية، بل انسجامًا مع النفس وتوقًا لمزيد من الحرية.

لذلك،

وإذ أقدّم استقالتي من الحزب، أتمنّى لكم التوفيق، وأضع نفسي في تصرّفكم لكلّ خدمة وطنية أستطيع أن أسديها ضمن نطاق تحرّري من أي التزام.

عاش لبنان

موريس الجميّل

حقيقة يجب أن تسجّل في تاريخنا المعاصر: فرئاسة الجمهورية كانت في متناول الشيخ موريس الجميّل، بل كان وحده في الساحة جديرًا بها، قادرًا على بلوغها بسهولة. وقد سمع من مؤيديه ومريديه كلامًا واضحًا وصريحًا في هذا الصدد. قيل له أقدِمْ، إقطَعْ الحبل، تخطّ المعارضة مهما يكن المعارض عزيزًا عليك... ولكنه أبي وفي نفسه مرارة القهر... خيّل إليه أن البلاد تتدهور، فآثر المحافظة على روابط العائلة. ولكن الحسرة تفجّرت في أعماقه آلامًا كاوية وخيبة قاتلة، وما استطاع قلبه تحمّل تلك الصدمة، فترنّح ثم انهار.

الشيخ بشـير الجميّل:

ولد الشيخ بشير الجميّل في سنة ١٩٤٧.

في ٦ حزيـران ١٩٨٢، دخلـت إسرائيـل إلى لبنـان تحـت شـعار «السـلام مـن أجـل الجليـل». توغّـل الجيـش الإسرائيـلي في البدايـة إلى عمـق ٤٠ كيلومـتر مـن الحـدود، ثـم تابـع زحفـه إلى شـمالي بـيروت. وفي ١٤ حزيـران ولـدت هيئـة الخـلاص الوطنـي مـن شـفيق الـوزّان، فـؤاد بطـرس، بشـير الجميّـل، وليـد جنبـلاط، نبيـه بـري، ونـصري المعلـوف. ولكـن جنبـلاط رفـض المشـاركة فيهـا. ولم تكـن لهـذه الهيئـة فعاليـة كبـيرة عـلى مجـرى الأحـداث، وقـد يكـون الرئيـس سركيـس أراد منهـا جمـع بشـير بقـادة القـوى الفاعلـة عـلى الأرض تمهيـدًا لقيـام تعـاون بينـه وبينهـم في المرحلـة التاليـة لـو قُـدّر لـه أن يحكـم.

في ٢٤ تمـوز، أعلـن بشـير ترشّـحه إلى رئاسـة الجمهوريـة، بعدمـا تبنّتـه «الجبهـة اللبنانيـة». ولكـن ثلاثـة مـن أقـرب مستشـاريه عارضـوا هـذا الترشـيح هـم سـليم الجاهـل وأنطـوان نجـم وجـورج فريحـه للأسـباب التاليـة:

١. تسرّعـه في الترشـيح لأنـه سـيُنتخب ضمـن النظـام المتّبـع لانتخـاب رئيـس الجمهوريـة عوضًـا عـن بلـوغ الرئاسـة بشـكل ثـوري.
٢. صغر سنه وعدم تحضيره لهذه المسؤولية.
٣. الشق الأكبر من المسلمين، وخاصة الطائفة السنّية ستقاطع الانتخابات.

لم يرضخ بشـير لهـذه المعارضـة، فتابـع مسـيرته وانتُخـب رئيسًـا للجمهوريـة في ٢٣ آب ١٩٨٢، في الـدورة الثانيـة ب ٥٧ صوتًـا مـن أصـل ٦٢.

إجتمـع بشـير مـع كبـار قـادة الإسرائيليـين مرتـين بعـد انتخابـه: في نهاريـا أولًا حيـث لم يحصـل أي اتفـاق، وخاصـة حـول توقيـع معاهـدة السـلام، وفي بكفيـا حيـث تـمّ التوصّـل إلى اتفـاق بتفاصيلـه. (تفاصيـل الاجتماعـين موجـودان في مـتن هـذا الكتـاب).

إستشهد بشير في ١٤ أيلول ١٩٨٢.

الشيخ أمين الجميّل:

ولد الشيخ أمين الجميّل سنة ١٩٤٢.

بعـد استشـهاد شـقيقه، رشـحّه الإسرائيليـون عقـب اجتـماع حصـل في بيـت المسـتقبل بحضـور عـدد مـن أركان دولـة إسرائيـل وهـم: شـمير، وشـارون، ودايـف، وبيـتر، ومانـدي، وكمحـي وسـاغي وهـوفي وأمـين وأنـا. وبعـد أن أعلـن أمـين أنـه يوافـق عـلى كلّ مـا جـرى مـن تفاهـم واتفـاق بـين أخيـه واسرائيـل، رفعـه شـارون بيديـه قائـلًا: مـات الملـك عـاش الملـك. فانتخـب رئيسًـا للجمهوريـة في ٢١ أيلـول ١٩٨٢ بأكثريـة ٧٧ صوتًـا مـن أصـل ٨٠ نائبًـا.

بعـد فـترة وجيـزة، لم يـفِ الرئيـس أمـين بوعـوده، وتدخّلـت الولايـات المتّحـدة وواكبـت عمليـة التفـاوض بـين لبنـان وإسرائيـل التـي نتـج عنهـا اتفـاق ١٧ أيـار. هـذا الاتفـاق نـال شـبه إجـماع اللبنانيـين مـن النـواب وأعضـاء الحكومـة وبعـض رؤسـاء الـدول الإسـلامية، وقـد وقّعـه موريـس درابـير عـن أمـيركا وديفـد كمحـي عـن إسرائيـل وأنطـوان فتّـال عـن لبنـان، لكـن الرئيـس أمـين الجميّـل لم يبرمـه فعاقبتـه إسرائيـل باسـتحداث حـرب الجبـل وتهجـير المسـيحيين.

الفصل الثاني:

إكتشافي لقدرات بشير الكامنة

بعـد لقـاءات عائليـة عابـرة، حتّمتهـا مقتضيـات المصاهـرة والنسـب لم تتخـط حـدود أدبيـات المجاملـة، وإن تخلّلتهـا بعـض المواقـف الطريفـة التـي لا مجـال للخـوض فيهـا في سياق هـذا الكتـاب، تسـنّى لي اكتشـاف حقيقـة قـدرات هـذا الشـاب المفعـم بالحيـاة والعـزم والطاقـة والشـجاعة في مناسـبتَين، في مطلـع سـبعينات القـرن المـاضي. الأولى خـلال الأيـام الأخـيرة مـن حيـاة الشـيخ موريـس الجميّـل في مستشـفى الجامعـة الأميركيـة، والثانيـة عندمـا طلبـت إدارة الجامعـة الأميركيـة مسـاعدتها عـلى التصـدّي لهيمنـة التنظيـمات والحـركات الطلّابيـة التـي تـدور في فلـك القـوى اليسـارية والفلسـطينية، عـلى حـرم الجامعـة ومسـارها التربـوي والوطنـي.

في مستشـفى الجامعـة الأميركيـة كنـا نتنـاوب، أصهـرة الشـيخ موريـس السـبعة، للسـهر بجانبـه في الأيـام السـبعة عـشر الأخـيرة مـن حياتـه. وكان بشـير يسـهر معنـا، وخاصـة معـي شـخصيًا، فكنّـا نصـل الليـل بالصبـاح، تـارة حـول سريـره في غرفـة العنايـة الفائقـة وطـورًا عـلى سـطح مستشـفى الجامعـة الأميركيـة حيـث كنـا ننظـر إلى الأفـق البعيـد ونتحـدث ونتكلّـم عـن وضـع لبنـان المتـردّي وننـسى موريـس المطـروح في الفـراش.

رأيـت في بشـير هـذا الشـاب الثائـر الغاضـب الـذي يسـعى للخـروج مـن القمقـم الضيـق إلى فسـيح آمالـه ورؤيـاه في نهضـة لبنـان مـن كبوتـه والتغلّـب عـلى التحدّيـات الوجوديـة المتربّصـة بـه عـلى أكـثر مـن صعيـد.

بعـد نحـو أربعـة أشـهر، في كانـون الثـاني ١٩٧١، دُعيـتُ إلى اجتـماع في دار الشـيخ بيـار، حيـث اجتمـع عـدد مـن أسـاتذة الجامعـة الأميركيـة، جـاءوا يشـكون سـيطرة طـلاب الأحـزاب اليسـارية عـلى الجامعـة، أذكـر منهـم كـمال الصليبـي، وفـؤاد خـوري، ومـارون كـسرواني. دار يومـذاك الحديـث عـن الجامعـة و«مجلـس الطلبـة» المصبـوغ بلـون معـيّن تجسّـده فئـة مـن الطـلاب تعمـل عـلى مناهضـة الرابطـة اللبنانيـة التـي تضـم طلابًـا يتميّـزون بالنزعـة الوطنيـة اللبنانيـة الصرفـة، ويواجهـون مختلـف التيـارات الطارئـة والمسـتوردة. ونقـل المجتمعـون في ذلـك اللقـاء طلـب إدارة الجامعـة مسـاعدتها عـلى اسـتعادة سـيطرتها الأكاديميـة المفقـودة.

فقد كان «مجلس الطلبة» قوة سياسية هائلة، تتحكّم بمصير الجامعة الأكاديمي تحكّمًا شبه مطلق جعلها قادرة على تعطيل الدروس ساعة تشاء، وتنظيم التظاهرات والإضرابات على هواها، وتحتل المكاتب والأبنية، وتسيّر الحياة الجامعية برمّتها وفق ما تريد من غير أن يستطيع أحد أن يتصدّى لها أو أن يعاكس مشيئتها.

بعدما استمع بشير إلى شكوى المسؤولين عن الجامعة الأميركية، صارحهم من دون مواربة وعزا مشكلة الجامعة إلى سوء تصرّف الإدارة، وتساهلها في التعامل مع الطلاب، ما ساهم في تشجيعهم على المبالغة في الطلب، والتصلّب في المطالبة. وقال في نهاية الاجتماع إنه مستعد للتدخل ومحاولة إنهاء هذه الأزمة في يوم واحد، بشرط أن تنفّذ له الإدارة مطلبًا واحدًا لا غير وهو حلّ «مجلس الطلبة». ووعد بأن يقترح خطة على الإدارة في غضون ساعات.

صباح اليوم التالي، اتصلت باكرًا ببشير، وسألته عن خطّته، فأجاب بما عرفناه فيه من الوضوح والبساطة والكلام القليل: «تقوم رابطة الطلاب اللبنانيين باحتلال مضاد يؤدّي حتمًا إلى صدام مع الطلاب اليساريين والفلسطينيين، يعقبه تدخلّ السلطة عسكريًا وفك الاشتباك بين الطرفَين المتصارعَين. وعلى الأثر، يتدخّل رئيس الجامعة ويعلن حلّ «مجلس الطلبة». وهذا، كما قلت لكم أمس، مطلبي الوحيد، وبرأيي الوسيلة الوحيدة للانتهاء من الوضع الشاذ في الجامعة الأميركية».

كان من الطبيعي أن تستهول الإدارة هذه الخطة لا بل تستهجنها في البداية، ولكن بعد جدل طويل طال أسابيع، وافقت إدارة الجامعة على خطة بشير بانقضاض طلاب اليمين على الطلاب اليساريين، أينما وجدوا. وكما توقّع القائد الشاب، أدّت الصدامات الدامية إلى تدخّل القوات الأمنية المسلّحة واعتقال عدد كبير من الطلاب، وفرض الأمن في الحرم الجامعي. وسارعت إدارة الجامعة إلى أخذ قرارها الحازم المُتّفق عليه مع بشير والقاضي بحلّ «مجلس الطلبة».

أدّت هذه الأحداث إلى إعادة الأمور إلى نصابها في الجامعة الأميركية ونتج عنها تفكّك سريع في صفوف الفلسطينيين واليساريين في الانتخابات الطلابية التي جرت بعدها. وقد أسفرت عن فوز الرابطة، في انتخابات اللجان والجمعيات في معظم الكليات، بأكثرية المقاعد، فضمنت بذلك التمثيل الطالبي الصحيح، وأيقظت الفئة

الكبيرة الصامتة، فحملتها على التحرّك وإبداء الرأي والاهتمام بالشؤون العامة. وكان الرأي السائد أن هناك موجة تبلورت عند الطلاب بضرورة أن يتحمّلوا مسؤولياتهم من أجل أن تبقى عجلة الجامعة سائرة علميًا ومزدهرة أكاديميًا.

كانت تلك الحادثة مناسبة لي لكي أكتشف شخصيته القيادية المقدامة القادرة على تحدّي الظروف الصعبة بشجاعة ورباطة جأش، وأخذِ القرارات الخطرة وخوض مواجهات يخشى الناس العاديون غمارها، فيتهرّبون منها معتقدين أن الوقت كفيل بإيجاد حلّ لها. أما بشير فقد كان من قماشة أخرى، وأشبه بقيصر مستعدٍ لتحمّل المسؤوليات الجسام، لا وجود في قاموسه لعبارة تردّد أو تراجع.

الفصل الثالث:

البداية من الأشرفية

قصـة بشـير في الأشرفيـة هـي قصـة انطلاقـه إلى العمـل السـياسي، إلى تحمّـل المسـؤولية، إلى الانفتـاح والتخطّـي، إلى التحـوُّل مـن «الولـد المدلّـل» الموصـوم بالانفعـال، والحركـة اللاواعيـة، والطيـش الضاحـك، إلى رجـل السياسـة الجـريء، الصريـح، رائـد التغيـير الـذي لم يتلـوّث سـلوكه بإغـراء المجـد والغـرور المتأثّـر بمظاهـر الشـهرة.

مـن الأشرفيـة انطلـق بشـير سياسـيًا. فصـال وجـال، وتسـلّق سـلّم السـلطة خطـوةً خطـوة، بمسـيرة زاخـرة بالحيويـة، تجتـاز منـازل ودسـاكر وشـوارع، وترصّعهـا خطبًـا ومؤتمـرات ومجالـس. سـحر الجميـع، واسـتأثر بالقلـوب والمشـاعر.

بدأ مجهولًا، فأصبح شهيراً، مالكًا، سيّدًا على المنطقة.

كان وفيًا للأشرفية، فقد استشهد فيها، وفي المبنى نفسه الذي منه انطلق.

تحملنـي الذكريـات إلى أيـام الفصـح، عـام ١٩٧٣، فصـح الـروم الأرثوذكـس الـذي يـأتي دائمًـا متأخّـرًا عـن فصـح الموارنـة والكاثوليـك. وكان فصـح الـروم يتميّـز أيضًـا بأنـه «يقيـم» المسـيح بالرصـاص والمتفجـرات، كأن المسـيح الأرثوذكـسي عميـق السـبات، ثقيـل الإغفـاء، لا يوقظـه مـن نومـه إلا هديـر الديناميـت ولعلعـة الرصـاص. ولمـا كنـت أرثوذكسـيًا حريصًـا عـلى الطابـع التقليـدي والـدارج في مـدار العـرف والعـادة، تأهّبـت لاسـتقبال العيـد، وهيّـأت نفسـي لمشـاركة أبنـاء طائفتـي في فرحهـم المتفجّـر وبهجتهـم المفرقعـة. فاشـتريت رشاشًـا جديـدًا، وعزمـت عـلى تجربتـه، للمـرة الأولى، في مهرجـان العيـد المجيـد.

نعم، هذا هو الواقع، وهذا ما كان.

لقد شوّهنا عيد الفصح. جعلناه فرصة لاختبار مختلف أنواع الأسلحة.

ولـن أنـسى، منـذ أن كنـت صبيًـا حتـى هـذه السـاعة، أن يـوم «إثنـين الباعـوث» المعـروف بالعاميـة باسـم «الباعـود»، هـو يـوم النـار والرصـاص. كانـت الفئـات كلّهـا،

الأرثوذكسية وغيرها، تنتظر هذا اليوم، لتأتي إلى الكنيسة -وكانت كنيسة مار نقولا في الأشرفية أشهر الكنائس- فتهطل زخّات الرصاص مدرارًا ورذاذًا من كلّ عيار ونوع.

في ليلة الفصح هذه، جاءني بشير يقول: «ما رأيك في أن نتعشّى معًا، ونسهر إلى منتصف الليل، ثم نذهب «لنقيم» المسيح في كنيسة مار متر، ونجرّب رشاشك الجديد؟»

وافقت بنظرة إليه أغنتني عن الكلام، ثم ذهبنا معًا، تصحبنا زوجتي إلى مطعم «ميرتوم هاوس» في شارع مي زيادة في القنطاري. أكلنا وشربنا النبيذ المعتّق حتى انتصف الليل.

كان بشير، في أثناء العشاء، متجهّمًا، مكفهر الوجه، مقطّب الجبين. وظلّ منكمشًا ساهيًا في معظم الوقت، تأخذه مخيلته إلى أماكن بعيدة، ولا تعيده إلينا إلا لمامًا. وهذا نقيض عادته، وغير ما عرفته فيه. سألته عما به، فأجاب: «أنا تعيس. ولتعاستي سبب واحد هو أني ابن بيار الجميّل».

ودار الحديث وتشعّب حول هذا الموضوع وفيه، فتبيّن لي أن واقع بشير «البيتي» أو «العائلي» كان يزعجه إزعاجًا كبيرًا يصعب عليه تحمّله. يكبّل يديه، يثبط عزيمته، ويشلّ نشاطه. فلأنه ابن بيار الجميّل، لا يستطيع أن يطمح إلى أي عمل سياسي. فأبوه شديد الوطأة، يرفض أقلّ تساهلٍ أو مسايرة في هذا الموضوع، حتى يمكن القول إنه أصبح معقّدًا، خصوصًا بعدما ظهر وما تداولت به الناس من مبالغة الرئيس سليمان فرنجية في تساهله مع ولده طوني. والجميّل الأب يأبى أن تتناوله ألسنة الناس بالنقد في ما يتعلّق بالعلاقات بينه وبين أبنائه.

ولا بد من الاعتراف بأن هذا الأمر، ولنقل هذه «العقدة» قد أثّرت في الشيخ بيار تأثيرًا بليغًا، حتى أنه، بعد وفاة الشيخ موريس، عارض حلول ابنه الشيخ أمين محل خاله في نيابة المتن الشمالي معارضة شديدة. وما تراجع عن معارضته هذه إلا لما اتخذ المكتب السياسي الكتائبي قرارًا بترشيح الشيخ أمين. وأصرّ الشيخ بيار على الإعراب عن استيائه فتغيّب عن الجلسة التي اتُّخذ فيها هذا القرار، وكان سابقًا يشجّع ابنة موريس الكبرى منى على الحلول محل أبيها، ولكنها

رفضت. وهذا يعني أن الشيخ بيار كان يعارض دائمًا ولديه في مشاريعهما السياسية كلّها، مما كان يحزّ في قلب بشير ويحدّ من طموحه.

وصارحني بشير، في ذلك العشاء، بأن حزب الكتائب في الأشرفية ضعيف جدًا، وأن بيت الكتائب في المنطقة مُهمل لا يكترث به أحد، ولجنة هذه المنطقة مهترئة. وأضاف أن هذه اللجنة راغبة في إجراء تغيير يُحسِّن أحوالها، ومنه إبدال رئيسها جان ناضر بشخص آخر ذي حيوية وحزم ونشاط، فلا يجوز التخلّي عن الأشرفية، وهي «واجهة السحّارة» كما كان يقول عنها، فكيف يمكن تركها على ما هي عليه من الهزال والاهتراء؟

وكانت لجنة الأشرفية هذه قد لجأت إلى بشير، والتمست منه العون والحلول محل جان ناضر، فأجابها بأنه يستحيل عليه أن يلبّي طلبها ما دام أبوه رئيسًا للحزب. وكثيراً ما حدّثني عن هذه المشكلة والغصة ملء قلبه.

خرجنا من المطعم وتوجّهنا إلى كنيسة مار متر، وأقمنا المسيح على الطريقة الأرثوذكسية، وعدنا إلى البيت حوالي الساعة الثانية صباحًا.

المهمة الأصعب: إقناع الشيخ بيار

تأثّرنا تأثّرًا عميقًا، زوجتي وأنا، من الحال النفسية القاتمة التي كان بشير يتخبّط فيها. فقررت أن أعمل شيئًا، أن أبذل محاولة ما في هذا الشأن. وحوالي الساعة التاسعة صباحًا، ذهبت إلى منزل الشيخ بيار، وكان لا يزال في ثياب النوم، فدُهش لرؤيتي في تلك الساعة المبكرة، ولكنني طمأنته، وتحدّثت معه في موضوع بشير. قلت له إن الأشرفية بحاجة إلى دم جديد لتستطيع النهوض من كبوتها التي طال أمدها، وبات استمرارها غير جائز. وأضفت أن الدم الجديد المنعش والقادر على تبديل الأحوال هو بشير.

إنتفض الشيخ بيار مستاءً لدى سماعه هذا القول، ورفض اقتراحي بنزق وحزم. فما اعتبرت نفسي مغلوبًا، واستأنفت حديثي محاولًا إقناعه بالبراهين الواضحة والحجج الدامغة والأرقام. قلت إن الحزب في هبوط مستمر في الأشرفية.

فبعد حرب ١٩٥٨ دخلها الشيخ بيار منتصرًا، كما دخل يوليوس قيصر روما، وما لبث أن ألّف لائحة انتخابية فازت بالتزكية. ولكنه بعد دورتين خسر الأرثوذكسي والكاثوليكي، فسقط من اللائحة فؤاد بطرس وخليل صحناوي، وفاز عوضًا عنهما ميشال ساسين ونصري المعلوف. وفي دورة أخرى خسر البروتستانتي، فتنازل عن سمير إسحق لمقعد أرمني.

واستطردت قائلًا: «ليس من المستبعد أن نخسر في الدورة الآتية مقعد جوزف شادر، وسبب هذا كلّه كون الوجود الكتائبي في المنطقة ضعيفًا، والقاعدة هزيلة تحتاج إلى إنعاش وتقوية».

تشدّد الشيخ بيار في رفضه. أبى التشبّه بسليمان فرنجية ونهجه مع ابنه طوني. فعدت إلى محاورته بكل ما أوتيتُ من الصبر وطول الأناة والقدرة على الإقناع وهدوء الأعصاب، وحتى «ثقل الدم». وكنت أشعر، بيني وبين نفسي بأنه مخلص وصادق في إصراره على الرفض، بقدر ما كنتُ مخلصًا وصادقًا في عزمي على إقناعه، فرحتُ أقدّم له مزيدًا من الحجج والبراهين المعزّزة بوقائع لا تترك مجالًا للشك. وأذكر أني أحدثتُ فيه تأثيرًا ملموسًا لما قلتُ له: «أليس من الإجرام أن يطمر طموح ابنك لسبب واحد هو أنه ابنك؟ أين العدل والإنصاف؟ ألا نرتكب خطيئة حين يُحرم بشير من حقه الطبيعي وحريته في التحرّك السياسي لأنه ابن بيار الجميّل، ولأن أباه يخشى لغط الألسنة؟

وقلت له أيضًا إني لا أطلب إليه أن يدعم بشير، ولا أن يساعده، بل أن لا يعرقل مسيرته، ولا يقطع عليه الطريق ليمنعه من الوصول إلى أهدافه.

لان موقف الشيخ بيار قليلًا، فشجّعني ذلك على أن استطرد، وأستفيض، وأزداد نبضًا وتركيزًا وتوضيحًا، حتى ضاق صدره، فصاح بي صيحة من اكتفى، ومن يأبى مزيدًا على ما سمع لئلا يتحرّك فيه ضعف العاطفة، بل حنان الأبوة، فقال بنبرة حادّة جازمة: «أعدك بأن لا أقف على دربه قاطعًا عليه الطريق، ولا أمنعه من متابعة مسيرته، ولكن حزبنا ديمقراطي. لا يمكن أن يُعمل فيه شيء إلا بالطرق الديمقراطية. عليه أن يتدرّج في الحزب وخاصة في الأشرفية.

إكتفيت بما سمعت. قررت أن أجعل هذا الوعد خاتمة الحوار. فخرجت من غرفة الشيخ بيار. وفيما كنت أجتاز الدار، سمعتُ صفيرًا خافتًا. حوّلت نظري إلى مصدره، فرأيت بشير يطلّ من نصف فتحة باب غرفته. أومأ إليّ بإشارة استفهام تسأل، بلا كلام، عن نتيجة الاجتماع، فرددتُ عليه بإشارة صامتة تدعوه، بلا كلام أيضًا، إلى أن يلحق بي إلى منزلي.

بعد نصف ساعة أو أقل، قرع بشير باب بيتي. فأخبرته بما كان بين أبيه وبيني. واقترحت عليه أن يبادر إلى تهيئة الأجواء مع رؤساء الأقسام ليُعرَض اسمه بصيغة اقتراح ومطالبة بأن يتولّى شؤون الأشرفية. فيُبحث هذا الاقتراح في المكتب السياسي، ويُتّخذ بصدده قرار لن يعارضه الشيخ بيار.

خرج بشير مبتهجًا، وتوجّه إلى بيت المنطقة. ولم أطّلع اطلاعًا تامًا على تفاصيل ما حدث. ولكنني علمت، فيما بعد، أن هفوةً كبيرةً قد ارتُكبتْ، خلاصتها أن رؤساء الأقسام اجتمعوا، وذهبوا جميعًا، دفعةً واحدة، لمقابلة الشيخ بيار، وتهنئته بالعيد، ثم طلبوا إليه أن يعتبرهم مستقيلين من مسؤولياتهم الحزبية، إنْ لم يتسلّم بشير رئاسة المنطقة. وما اكتفوا بالكلام، بل قدّموا رسائل خطية تثبت عزمهم على تنفيذ القرار الذي اتخذوه.

كان الشيخ بيار قد استقبلهم مبتسمًا، فرحًا. ولما صدموه بقرارهم الجازم، تملّكه الغيظ، فأنّبهم تأنيبًا قاسيًا، ودعاهم إلى مغادرة بيته فورًا. وقد أخبرني أحدهم، الشهيد ساسين كرم، أن الشيخ بيار ما عبّر عن غضبته بالحكي وحده، بل دفشهم دفشًا إلى خارج منزله، «ودركبهم على الدرج»... فإذا بنا نعود إلى نقطة الصفر!

في هذه الأثناء وقرابة الساعة الواحدة بعد الظهر زارني بشير غاضبًا ومتأسّفًا وقال لي: «خرّبتُها لأنني أرسلت رؤساء الأقسام لكي يُهدّدوا باستقالتهم، إذا لم أعيَّن رئيسًا لمنطقة الأشرفية»، طالبًا إليّ محاولة ترتيب الوضع. وعلى الفور، قصدتُ منزل الشيخ بيار، فاستقبلني معاتبًا على تصرفات بشير. فأقنعته بأن لا دخل لبشير بالموضوع وهو مقتنع بألا يحل مكان جان ناضر وأنه يعمل لمساعدته في نهضة الكتائب في الأشرفية. إقتنع الشيخ بيار، وأصرّ على أن يتدرّج بشير في تعاطيه بقضايا إقليم الكتائب في منطقة الأشرفية.

إستأنفنا بذل الجهود، وأقنعنا رؤساء الأقسام بأن يذهبوا مرةً ثانية إلى الشيخ بيار، ويعتذروا منه، ويعربوا عن ولائهم، وعن موافقتهم سلفًا على قرارات المكتب السياسي بلا قيد أو شرط.

إنتشر الخبر بسرعة النار في الهشيم. وتناقله الناس مؤكّدين احتمال مجيء بشير مسؤولًا عن الأشرفية. وتأثّرت به الأوساط الحزبية فضلًا عن أوساط المنطقة. فما كان من جان ناضر، رئيس هذه المنطقة الحزبي إلا أن قدّم استقالته إلى مصلحة بيروت، فرفضها بيار صايغ رئيس المصلحة لأنه اعتبرها نتيجة عملية ضغط مؤذية. ولما طُرحت قضية بشير على المكتب السياسي، جاءت النتيجة حلًا وسطًا، فجرى تعيينه نائبًا لرئيس المنطقة، وبقي جان ناضر رئيسها. وهذا تدبير حكيم، وعلى جانب كبير من الذكاء صان كرامة جان ناضر، وأدخل بشير، في الوقت نفسه، إلى المعترك السياسي، ولكن من الباب الصغير.

وعد البقاء مع بشير حتى النهاية

إستدعاني الشيخ بيار إلى منزله بعد يومين، وقال لي: «الآن، وقد عُيّن بشير في الأشرفية من غير أن أعترض على تعيينه، برًا بالوعد الذي قطعتُه لك، بقي لي مطلب واحد. أريدك أن تعمل على تنفيذه، وهو أن تبقى إلى جانب بشير، لا تتركه ولا تبتعد عنه. فهو حديث العهد في السياسة، يفتقر إلى الكثير من الخبرة والمرونة والحنكة. فإبقَ معه دائمًا».

وعدته بأن أفعل. وكان قولي عهدًا قطعته على نفسي، وهو في أول الطريق الطويلة التي سرنا عليها معًا، بشير وأنا. وبما أني لم أكن حزبيًا، وبما أن نظام الحزب يقضي بأن يكون أعضاء لجنة المنطقة من الحزبيين فقط، ولما كانت في الحزب مصلحة تحمل اسم «أصدقاء الكتائب»، تولّيت رئاسة «لجنة أصدقاء الكتائب في الأشرفية» وتمكّنت، بهذه الصفة، من أن أكون عضوًا في لجنة المنطقة.

كان نشاطنا في البدء محدودًا بسبب ضآلة الإمكانات المادية والبشرية. فمن الناحية المادية، كنا نتبرّع آخر كلّ شهر، من مالنا الخاص، لتسديد فواتير التلفون والكهرباء، ومن الناحية البشرية، كان عدد الكتائبيين قليلًا لا يتجاوز بضع عشرة شخصًا.

وضعتُ برامج العمل وقسّمتها شطرين: شطرًا اجتماعيًا يعمل على جمع الطاقات في الأشرفية وتشغيلها في فلك بشير تشغيلًا تفاعليًا مستمرًا عبر اجتماعات وندوات وسهرات ورحلات ومراحل تدريب. وقد أُنيط هذا الشطر بي، لكوني رئيس «لجنة أصدقاء الكتائب». أما الشطر الآخر، فكان سياسيًا عسكريًا يرتبط مباشرة ببشير لكونه نائب رئيس المنطقة، ونائب قائد القوى النظامية آنذاك المرحوم الشهيد وليم حاوي.

باشرنا العمل بجدٍ ومثابرة، فاتصلت بجماعات من أبناء الأشرفية على مختلف المستويات، مثلًا، بأبناء بعض العائلات العريقة، من ضمن ما يُعرف بالعائلات السبع وهي المتوغّلة الجذور في الأشرفية أصلًا واستمرارًا. واتصلت أيضًا بأبناء بعض العائلات المتوسطة، وأخرى لها معالم «المرجلة» وفرض النفس والهيبة، أعني «القبضيات».

عقدنا اجتماعات في المنازل. وكنا نقوم بزيارتين في الأسبوع، للبحث في مختلف الموضوعات المطروحة على الساحة اللبنانية. وكان أهمّها آنذاك الوجود الفلسطيني المسلّح المتزايد، والمتطاول، والمتحدّي، والمتعاطف مع فئات يسارية في غمرة مقلقة من الاستغلال المتبادَل.

روبرتز رولز (قوانين روبرتز)

لما انتُدب بشير نائبًا لرئيس منطقة الأشرفية، تنحّى جان ناضر قليلًا وتخلّى له عن صلاحيات كبيرة، منها تولّي رئاسة اجتماع لجنة المنطقة كل يوم ثلاثاء. وكانت هذه اللجنة مؤلّفة آنذاك من رؤساء الأقسام والمكاتب ورئيس لجنة أصدقاء الكتائب.

لم تكن في البداية الاجتماعات التي تولّى بشير رئاستها على ما يرام من التنظيم والترتيب والانضباط. كانت شبه فوضويّة، يسودها الهرج والمرج على غرار ما كانت عليه منذ نشوئها، ولا سيّما في ظلّ جان ناضر. فلا جدول أعمال، ولا محاضر محترمة، ولا سجلّات مصنّفة ومبوّبة ومحفوظة في إدارج معيّنة. وكان أمين السر جورج باخوس حرًا مطلق اليدين والإدارة، يكتب في المحضر ما يشاء

ويحذف ما يشاء، من دون قاعدة له ولا ضابط، ولا دليل يرشد إلى اتجاهاته ومراميه. وكلّما كنّا نلفت نظره إلى خطأ، أو استرسال، أو شطحة، كان يلملم أشياءه مغتاظًا متذمّرًا مدمدمًا، ويهمّ بمغادرة ردهة الاجتماع مهدّدًا بالاستقالة. وكم مرّة اضطررنا إلى مطاردته وتطييب خاطره ليعود إلى مزاولة عمله في ارتكاب الأخطاء، والتمادي في الاسترسال، وإطالة الشطحات. فما رضي يومًا إلا بأنْ يدوّن على هواه ما يراه هو مناسبًا.

أما بشير فكان يتولّى رئاسة الاجتماعات بدون خبرة سابقة، فينتقل من موضوع إلى آخر بلا سبب واضح، ويقفز من هذه القضية إلى تلك. وقد حرصت على أن استرعي انتباهه إلى هذا الأمر بعد كل اجتماع، وما تردّدتُ مرارًا في تحذيره من تكرار هذه الأخطاء التي تُفقد الاجتماعات القسم الأكبر من أهميّتها. وكنت أستشهد دائمًا بكتاب أهديته نسخة منه عنوانه «Roberts Rules»، أي « قوانين روبرتز» وهي متعلّقة بإدارة الجلسات، وما يُفترض فيها من الترتيب والنظام والدقّة لتكون على المستوى المنشود في مختلف الأحزاب والمؤسسات.

أغلب ظني أن بشير ما قرأ هذا الكتاب، ولكنّه تعلّم ما فيه من خلال الممارسة وملاحظاتي لأني حرصت على تنبيهه دائمًا، وكثيرًا ما كان يصغي إليّ باهتمام كبير حين أقول له: «روبرتز رولز» يسمح بهذا أو لا يسمح، فاتخذت هذه العبارة طابعًا خاصًا في ذهنه، فراح ينظر إليّ أحيانًا، في أثناء إدارة الجلسات، ليسألني مبتسمًا، بين المزح والجد: «شو بيقول مستر روبرتز هون؟»

والحق يقال، إن هذا الشاب المدهش أضحى، في وقت قصير، سيد إدارة الجلسات، يعرف أصولها وأنظمتها من غير أن يقرأ كلمة واحدة من كتاب القواعد والتوجيهات.

تحوّلات في أداء بشير

كان بشير أيضًا حادّ المزاج، مسترسلًا في حزبيته، إلا أنه تميّز بحسّ رهيف، أتاح له أن يلاحظ بسرعة أبعاد تماديه واسترساله، فيلجم حدة هجومه، ويرتدّ، ويُطرّي لهجته، و«يكوّع»، كما يقال في لغة السياسة، فيتحدّث بلغة المجموعة ولغة الكلّ.

ما كان يستطيع إلا أن ينتقد. وكم جاء انتقاده شديد الوطأة، وحتى جارحًا في بعض الأحيان، خصوصًا حين يقلّد شخصيات مرموقة ويتكلّم بلهجتها وأسلوبها ساخرًا، فيخدش المشاعر ويمس الحساسيات مسًا كبيرًا غالبًا ما كان موجعًا ومرفوضًا، وهذا ما أضرّ أكثر بكثير مما أفاد.

لفتُ نظره أيضًا إلى هذه النقطة فتأثّر بملاحظاتي، وأحسست بأنها مقبولة لديه، وأنه تفهّمها، وعقد العزم على الإفادة من أخطائه، وعلى أن لا يعود إليها ولا يكرّرها. وفي أقلّ من عام واحد، بدأت أرتاح إلى تصرّفه، وعفة لسانه، وأبتهج بسرعة خاطره في تقويم أي اعوجاج طارئ، وأية هفوة أُفلتت منه عن غير قصد.

تعدّدت الاجتماعات والاتصالات في المنازل. وكنا ندعو جماعات إلى بيت الكتائب في المنطقة. وكثيرًا ما كان الحشد يتكثّف ويكبر، فنضطر إلى الاستعانة بالأرشمندريت الياس الهبر المسؤول عن كنيسة سيدة الانتقال، ليمدنا بكراسي إضافية. وقد درجنا على عقد اجتماع كلّ يوم ثلاثاء مساءً، فكان بيت الكتائب يعجّ بالضيوف من مختلف الفئات: محامين وقضاة، أطباء وصيادلة وأساتذة، مهندسين وتجارًا، وصناعيين وموظفين وغيرهم. وكانوا جميعًا ينتظرون من بشير كلمة إرشاد، أو تفسيرًا لملامح غامضة في الأوضاع الراهنة، أو شرحًا للوقائع السياسية، أو توجيهًا في موضع معّين. فكان بشير يحلّق، يخاطب الكلّ بلغة الكلّ. وكم كان مرتاحًا في حديثه، مجيدًا حصيفًا في توجيهاته، متفوقًا في تحليلاته وتفسيره، مثيرًا في مطالعاته، يُصغي إليه الجميع بذهول وإعجاب. وكانت الحلقات تتكرّر والاتصالات تتوالى. فبادرنا إلى تنظيم الجماعات المنتمية إلى «أصدقاء الكتائب»، وألّفنا لجان عمل: لجنة المال، وكان ألبير فريحه مسؤولًا عنها، ولجنة سلاح التدريب، وقد أُسندت مسؤوليتها إلى حنّا صفطلي وإيلي جعجع، ولجنة تعبئة تسلّم مسؤوليتها فؤاد ساروفيم، ولجنة الشؤون الاجتماعية أُلقيت مسؤوليتها على هنري أبي نادر.

كنا نوزّع على هذه اللجان عددًا من الأشخاص المتّصفين بالحماسة والنشاط وحب العمل، ليكونوا أعضاء فيها. وتولّيتُ شخصيًا رئاستها كلّها، فرحتُ أنسّق الأعمال فيما بينها، وأرفع إلى بشير تقارير إضافية عن نتائج العمل، وعن أفضل الوسائل لتحسينه وجعله كبير الجدوى ووفير الثمار.

أولوية للشق العسكري

أولينا الشطر العسكري عناية خاصة واهتمامًا كبيرًا. فالحزب عامّةً، وبشير بنوع خاص كانا يعيان مقدار الخطر المحدق بلبنان واللبنانيين، من جرّاء تأهّب الفلسطينيين المستمّر للقيام بأعمال عسكرية لخلخلة النظام، وإشاعة التمرّد والعصيان وزعزعة أركان الدولة الشرعية. وقد ألحّ بشير عليّ مطالبًا بأن نباشر بإعداد الجماعات الحزبية والصديقة عسكريًا، لأن الأجواء لا تبشّر بالخير، ولا يجوز أن نؤخذ يومًا ما على حين غرّة، أو أن نبقى معرّضين لغدر مفاجئ. فأوعزنا إلى الفئة التي كانت مهمتها شراء السلاح بأن تنفّذ ما هو موكول إليها. وكانت الأسلحة تتدفق على الموانئ غير الشرعية من بلدان أجنبية عديدة. واستطاع الحزب أن يُسهّل عملية التسلّم والتسليم بعد دفع الثمن -وكان زهيدًا- فحصل كلّ مقاتل على رشيشة كلاشينكوف مع ٦٠٠ طلقة.

كانت المجموعة المستعدّة للتدريب وحمل السلاح من أصدقاء الكتائب، يراوح عدد أفرادها بين ٣٥٠ و٤٠٠ عنصر، وتراوح سنّهم بين الفتوة والكهولة.

هيّأ لنا بشير ثلاثة مدربين من أفضل مساعديه. وبدأنا نتدرّب على يد سامي خويري الذي جاء إلى الأشرفية، وجمعنا مرارًا في بيت الكتائب، وأحيانًا في باحة الكنيسة الكاثوليكية سيدة الانتقال.

تعلّمنا أولًا استعمال مختلف أنواع الأسلحة، وغدونا نجيد فكّها وتركيبها وتنظيفها. وكانت دروس المدرّب، في بادئ الأمر، نظرية بحتة. وبعد مدة غير طويلة، غادرنا سامي خويري وحلّ مكانه ثلاثة جورجات: جورج روحانا، وجورج أسمر، وجورج ريّس. وكان الثلاثة من خيرة مساعدي بشير، وأفضل العناصر القتالية.

كنا نذهب معهم إلى منطقة النعص في بكفيا، فيلتحق بنا ويساعدنا على التدريب نويل داغر. وحين كنا نذهب إلى المتن كان ينضم إلينا جورج شعنين.

كان أمين أسود، رحمه الله، لا يفارق المجموعة. يبدأ العمل معها صباح كل أحد، أمام مقر منطقة الأشرفية حيث «يضيّف» كلّ واحد من المجموعة منقوشة بزعتر، ثم يقود الجميع إلى الجبل.

توالت أعمال التدريب في جبال المتن الشمالي بضعة أشهر، ثم انتقلت المجموعة إلى جرود كسروان حيث ساهم في تدريبها سامي خويري وشقيقه.

كنّا نستعمل الذخيرة الحية، ونشهد أحيانًا على معمودية الدم يقوم بها مغاوير الكتائب.

عملية احتلال بكفيا

لما اقترب الأصدقاء من نهاية دورتهم العسكرية، قرّر المدرّبون القيام بعملية عسكرية يحضرها بشير، وكانت هذه العملية: مهاجمة بكفيا واحتلالها.

وفي يوم ماطر من كانون الأول، صعدنا باكرًا مع بشير إلى بكفيا. وتمت عملية الاحتلال بنشاط ونجاح باهرين، مما جعلني أعتزّ بنفسي أمام «الباش» وأمشي نافخًا صدري كالطاووس، فهنّأني وقال لي: «إجمع السلاح من أيدي شبابك، وضعه كلّه في سيارة واحدة، وقلْ لهم أن يتبعونا إلى النعص».

جمعتُ السلاح عملًا بإيعاز بشير، وتوجّهنا في رتل من السيارات إلى «المحفار» في النعص. وكنتُ في سيارة بشير مع المدربين. ولما أشرفنا على أعلى مطلّ من النعص، توقف بشير وأشار برأسه يدعو المدرّبين بلا كلام إلى تنفيذ خطة كانوا قد اتفقوا عليها.

ترجّلتُ وجلستُ على صخرة أنتظر ما سيحصل.

كانت الطريق ملتوية بشكل «S». ولما وصلت أولى سيارات الرتل إلى المنعطف الأخير، فتح المدرّبون النار في الفضاء، وساد هرج ومرج. وخرج «الأبطال» الذين

احتلوا بكفيا من سياراتهم يصرخون ذعرًا، ويقفزون فوق الجلول كالسهام، نزولًا إلى الوادي. فراح بشير يضحك وهو يقول لي: «يا هيك أبطال يّما بلا! كان الأجدر بهم تحاشي الرصاص بشكلٍ منظّم لا الهروب من دون إدراك».

كنا، في الأيام العادية، نتابع الاجتماعات والندوات، ونخطط لمستقبل أفضل. وكنّا بحاجة إلى المال. فلا يمرّ علينا يوم إلا ونشعر بمزيد من اشتداد الخطر واقترابه منا. ولا سبيل إلى المقاومة والدفاع عن النفس إلا بسلاح من نوعية معينة لا نستطيع الحصول عليه إلا بالمال.

قمنا بحملة تبرّع واسعة وكان أبطالها صهر بشير أنطوان أبو ناضر والمرحوم ميشال بيرتي وزوجتي فيفيان. وفي أقل من شهرين، تدفّقت علينا مبالغ كبيرة. وفي غضون آذار ونيسان ١٩٧٤ جمعنا ما يقارب ٢٧٠ ألف ليرة. ولن أنسى اليوم الأول من هذه الحملة، وقد جمعنا فيه ثلاثة آلاف ليرة، فنظر بشير إليّ، وقد اتّسعت عيناه دهشة، ثم قال: «فظيع، صارت عندنا خميرة».

كرم المتبرّعين لشراء السلاح

وكان فرحه بهذا النجاح يفوق الوصف. وكلّما عدنا في المساء، ساسين كرم، وأنا وجان ناضر لنعدّ حصيلة التبرع، تراكمت أمامنا الشيكات و«السجادات الزرقاء»، أي أوراق المئة ليرة، وقد اخترع لها ساسين كرم هذا الاسم الطريف، رحمه الله.
وتجدر الإشارة إلى أن جزءًا من التبرّعات صُرف على تأسيس إذاعة «صوت لبنان» وكان من أول روادها «بول رزق»، ابن الدكتور فؤاد رزق والفنان روميو لحود.

كنا نضع هذه الأموال في البنك، ونطلع بشير على الرقم الأخير الذي وصلنا إليه، فيُعرب عن سروره، وينصرف كل ليلة إلى التفكير بما يستطيع شراءه من الأسلحة المتنوّعة، الكبيرة والصغيرة، بهذا المال. وبعد الشراء، توزّع الأسلحة على الشباب والأقسام المحيطة بمخيّمات الفلسطينيين ثم على الجبهات الساخنة، كالدكوانة، مثلًا بعد اندلاع الحرب. ولا يغرب عن بالي كم كانت هذه الأموال غالية على قلب بشير، حتى تبادر إلى ذهنه أنها قادرة على إنهاء الحرب إن لم تكن قد أنهتها وانتهت منها. وكلّما عرّفني إلى شخص جديد، حزبي كان أم غير حزبي، كان يقول له مشيراً إليّ: «هيدا ربّحنا الحرب»، وظلّ هذا دأبه طوال سنوات.

ومن طرائف عمليات التبرّع أن الدكتور ألكس إسكندر، في كرم الزيتون-الأشرفية، اتّصل بي إليّ طالبًا مني أن أعرّفه إلى بشير وقال: «إني مستعد لأن أدفع ألف ليرة في مقابل كلّ دقيقة يمضيها بشير عندي، على أن يكون ما أدفعه عدّة للمقاومة».

أقنعتُ بشير بتلبية دعوته. وذهبنا بصحبة ساسين كرم. فاستقبلنا الدكتور إسكندر بالترحيب الحارّ والعناق والقبل والدموع. ثم صف أولاده وأفراد عائلته وعرّفهم ببشير واحدًا بعد آخر...

مرّ الوقت مسرعًا كأن عصا سحرية تسوقه. ولما صُبّت لنا القهوة، ألقيتُ نظرة على ساعتي، فرأيت أن عقربها قد اجتاز، منذ وصولنا، مسافة عشر دقائق، فأومأت إلى ساسين كرم أدعوه إلى أن يتأهب للرحيل، وهمست في أذن بشير قائلًا: يجب أن نغادر هذا البيت. فأدهشه تسرّعي، ولكنه وقف وهمّ بالذهاب. إلا أن الدكتور إسكندر أصرّ على استبقائنا عنده، فاعتذرنا منه، وخرجنا.

في هذه الأثناء زعم ساسين كرم أنه نسي شيئًا في البيت وانفصل عنا. وكانت حقيقة أمره أنه ذهب ليأخذ شيكًا بقيمة عشرة آلاف ليرة، في مقابل زيارتنا التي استغرقت عشر دقائق.

وفي الشارع استوضحني بشير سبب استعجالي في إنهاء تلك الزيارة، فتجاهلتُ سؤاله. ولما أصرّ بالحقيقة أعلمته بوعد الدكتور إسكندر معتذرًا ومعبّرًا عن أسفي لأني «استعملته» أداةً لجمع المال. فما كان منه إلا أن ربّت على كتفي قائلًا: «يا ساذج، كان لازم نقعد عندو ساعة كاملة».

ومن المآثر التي تُذكر بالخير مأثرة لشخص من آل نصار كان بائع لحوم في شارع أديب اسحاق، دأب في إرسال ليرة لبنانية كلّ شهر في ظرف مختوم موجهًا إليّ. أثّر بي هذا العمل وأصررت على بشير بأن يزوره ليشكره. ولما أطلّ بشير على باب محلّه حتى صرخ والدموع في عينيه وسلّمه ساطور اللحم قائلًا: «رقبتي فداك ودمي حلال يا شيخ بشير. الليرة التي أرسلها إليك هي مقدوري، لكن أنا وعائلتي بين يديك». سالت الدموع في عينَي بشير الذي شكره ومضى.

لم تكن عمليات التبرّع ناجحةً كلّها، بل مُنِيَ بعضها بإخفاق يثير الأسف. منها، على سبيل المثال، أننا أرسلنا شابين هما جوزف كفوري وجورج بركس، بعد أن ألبسناهما أفخر الثياب، وجعلناهما على أفضل جانب من الأناقة و«الجخ»، ليجمعا التبرّعات من المؤسّسات الكبيرة، كالمصارف والشركات العاملة في مختلف حقول الاقتصاد، فما أفلحت جولتهما بالمقدار الذي كنا نتوقّعه.

بقدر ما أُغدقت علينا الأموال تدفّقت الأسلحة. فحصلت القوات النظاميّة على قذائف من طراز RPG-آر بي جي. ودُعي المقاتلون جميعًا للصعود إلى النعص لتجربة الأسلحة الجديدة، ولا سيما هذه القذائف، بحضور بشير. فانتقلنا إلى هناك باكرًا، واتخذنا مراكز تحت الصنوبر ووراء الصخور لنحتمي من الانفجارات والشظايا. وفيما كنا نتأهّب لإجراء العملية، ساد الهمس هنا وهناك، وتوقّفت كلّ حركة... ما الخبر؟ وصل فجأة، وعلى غير موعد، قائد القوّات النظاميّة المرحوم وليم حاوي يصحبه نائبه جورج كساب. وقف الجميع استعدادًا للترحيب العسكري وفي طليعتهم بشير.

علمنا فيما بعد أن القائد وليم حاوي كان يحظّر البذخ في التدريب، ويرفض التبذير وهدر الذخائر على سبيل التجربة، خصوصًا إذا كانت هذه التجربة تتناول ال «أر بي جي» التي كان ثمن القذيفة الواحدة لا يقل عن ٢٥٠ ليرة. ولم يكن في إمكان الحزب أن يتهاون في خسارة مثل هذا المبلغ من دون سبب وجيه. وعلى الرغم من هذه الاعتبارات قررنا إجراء التجربة.

تطوّع المرحوم جوزف أبو عاصي لإطلاق الصاروخ. وضع صاجًا عتيقًا على حائط المحفار، في وسطه، وابتعد عنه حوالي خمسين مترًا، وصوّب، وأطلق... طار الصاروخ كالمجنون، وما أصاب الهدف... ما أصاب حتى الحائط الطويل العريض الذي يتوسطه الصاج، بل صعد عموديًا إلى السماء، وارتفع صياحنا: «إنبطاح!... إنبطاح!...» وتملّكنا الهلع. هذا انبطح، وذاك اختبأ، وآخر احتمى بصخرة، وغيره دسّ رأسه في الأرض مقتديًا بنعامة الأمثال...

والحمد لله! سقط الصاروخ بعيدًا، على مسافة مئة متر تقريبًا من المحفار، من غير أن يؤذي أحدًا. ومرّت التجربة الأولى بسلام. ورحنا نتابع إجراء التجارب كلّ يوم أحد، حتى برع في الرماية نفرٌ من المقاتلين، في طليعتهم جورج أسمر.

مكتب «أصدقاء الكتائب» الذي ترأّسته كان يضمّ نخبة ممتازة من الأساتذة الجامعيين والطلاب ورجال الأعمال والمهن الحرّة من أطباء ومحامين وصيادلة نشطوا في التمارين العسكرية وفي تحضير الندوات لبشير. فاق عددهم الألف عنصر حافظوا على أمن المنطقة الشرقية وساهموا ماليًا في اقتناء الأسلحة وإدارة ما سمي مع مرور الوقت «بالهيئات الشعبية».

الترشيح للنيابة في الأشرفية

أوائل ١٩٧٤، وفي موعد اجتماع مكتب الأشرفية الأسبوعي، ذهبت إلى الأشرفية أزور بعض الأصدقاء. وكان من المتوقع أن يُعرض في هذا اليوم فيلم تاريخي موضوعه نشوء الكتائب، والشيخ بيار أيام شبابه. ولما وصلت إلى بيت المنطقة وكان برفقتي الدكتور عادل برباري والدكتور ميشال نصر اللذين أحبّا التعرّف إلى بشير، لاحظت أن بعض الشبان ورجال الحرس يتهامسون، ومنهم من أسرع إلى البيت كأنه يريد أن يُخبر بوصولي أناسًا هناك ينتظرون. وما كدت أصل إلى بيت الكتائب حتى قدّم إليّ رهط من النظاميين التحية العسكرية على صفّين، ولما دخلت ردهة الاجتماع حتى فوجئت بتصفيق اشترك فيه الحاضرون جميعًا، ومنهم بشير.

أدهشتني هذه البادرة، وحسبتها مزحة، وغدوت راغبًا في معرفة سببها. وما هي هنيهة حتى استُدعيت إلى غرفة داخلية كان بشير قد جعلها مكتبًا له، وهي الغرفة الوحيدة الصالحة للاستعمال آنذاك، أي قبل توسيع البيت وتخصيص مكتب لكلّ مسؤول. وفي تلك الغرفة التقيت بيار صايغ، رئيس مصلحة بيروت، ونائبه جوزيف معرّاوي، وجان ناضر. وساورني التعجّب لما باشر الحاضرون يبحثون مسألة الانتخابات، ولا سيما في بيروت، وراحوا يلمحون إلى أنه من المستحسن أن يكون المقعد الماروني لبشير، والمقعد الأرثوذكسي لي أنا.

لزمتُ الصمت. قطعت المفاجأة عليّ سبيل الكلام. كاد فكري يشرد عما أنا فيه، لأن هذا الموضوع لم يطرح قبلًا على بساط البحث.

شـاهدنا الفيلـم الـذي أرجعنـا إلى تاريـخ الكتائـب ورئيسـها في الثلاثينـات وكان في الفيلـم أيضًـا مبـاراة للملاكمـة أحـد أبطالهـا الشـيخ بيـار، ثـم غادرنـا البيـت وأنـا تحـت وطـأة تلـك المفاجـأة. وفي المسـاء، أتـاني بشـير يسـتأنف معـي حديـث النيابـة عـن الأشرفيـة.

عـرض الموضـوع قائـلًا إن الحـزب ومصلحـة بـيروت سـيقنعان الشـيخ بيـار بالتنـازل للشـيخ بشـير عـن المقعـد المـاروني في الدائـرة الأولى، وأن الشـيخ بشـير الـذي سـيتولّى رئاسـة اللائحـة لا يـرى أنسـب مـن جـورج فريحـه، رفيـق دربـه، لمشـاركته في الترّشح عـن هـذه الدائـرة لتمثيـل الـروم الأرثوذكـس.

رفضـت هـذا الطـرح برمّتـه، أساسًـا وشـكلًا، لأني مـا فكـرت يومًـا بـأن أتعاطـى السياسـة تعاطيًـا رسـميًا. وقلـت إن الشـيخ أمـين عـرض علـيّ، قبـل أشـهر، أن أكـون رفيقـه في النيابـة، وأن أحتـل المقعـد الأرثوذكـسي في المـتن، فرفضـت.

دار الحديـث وتشـعّب. وكانـت غايتـه إقناعـي بالقبـول، ولكـن رفـضي كان قاطعًـا. وكذلـك كان موقـف زوجتـي التـي عـبّرت عـن شـعورها تعبـيرًا بليغًـا، معرّبـة عـن تأثّرهـا العميـق بمـا عانـاه والدهـا الشـيخ موريـس الـذي كان ولوجُـه ميـدان السياسـة سـببًا لحرمـان العائلـة نعمـة التضامـن الأليـف والتفاهـم الصـافي، إذ أكرهتـه الظـروف الراهنـة عـلى الغـوص في سياسـة تقليديـة أبعدتـه عـن إنتاجـه الفكـري المبـدع، ثـم أودت بحياتـه.

إتخـذت المناقشـة طابعًـا عائليًـا، إلا أنهـا مـا لبثـت أن تطـوّرت، وارتفعـت حرارتهـا بـين بشـير وزوجتـي، فبلغـت حـدّ تبـادل الكلـمات القاسـية. وقبـل أن يغـادر بشـير منـزلي مغتاظًـا، ضرب الطاولـة بكفـه مـرّات عديـدة تنفيسًـا لحنقـه وإخفاقـه في إقناعنـا.

وبقـي بشـير يفاتحنـي بموضـوع الانتخابـات مـن وقـت إلى آخـر إلى أن وقعـت الحـرب الـضروس وانشـغل الجميـع بهـا.

الفصل الرابع:

١٣ نيسان ١٩٧٥
واستشهاد جوزيف أبي عاصي

كان ذلك اليوم أحدًا. وعلى عادتنا، كنّا، في النعص، فريقًا من الأصدقاء، مع بشير والمدرّبين العاملين في ظل قيادته وإرشاده، نكمل دورة تدريب بدأناها قبلًا.

عدنا بعد الظهر، الساعة الثانية، إلى بيروت. وما كدت اغتسل وأستعد لقيلولة مريحة بعد تعب التدريب، حتى اتصل بشير بي، وأخبرني أن حدثًا خطيرًا قد حصل هو مقتل جوزيف أبي عاصي، بعد قدّاس في عين الرمانة كان يحضره الشيخ بيار الجميّل وبعض أركان حزبه. وعلمتُ أن جريمة القتل كانت مفاجأة موجعة أسفرت عنها معركة بين كتائبيين على رأسهم جوزيف، وجماعة من الفلسطينيين.

إشتدّ الغيظ والتأثّر البليغ في نفس بشير ونفوس مرافقيه والمقرّبين إليه. ولا عجب، فقد كان الشهيد واحدًا من أبرز الذين ساعدوا بشير كثيرًا في أمور عديدة حزبية وعسكرية، أخصّ بالذكر منها تلك الحادثة التي وقعت بالقرب من الجامعة الأميركية قبل نحو سنتين، وقد اشتبك فيها جوزيف وجماعة من رفقائه، بإيعاز من بشير، مع زمرة من الفلسطينيين تعوّدت أن تصول وتجول، ودأبت في رصد تحرّكات الكتائبيين، واستفرادهم، والاعتداء عليهم بالإهانة والضرب. فانتقم منها أبو عاصي انتقامًا زاخرًا. وتدخّل رجال الدرك، ونشبت معركة بالسلاح أصيب فيها أحد رجال الأمن الداخلي في عينه كلّفت جوزيف أبو عاصي وبشير مبلغًا كبيرًا من المال دُفع للجريح ثمنًا لإسقاط دعواه عليهما. وكان دفع هذا المبلغ أمرًا مهمًا بالنسبة إلى الظروف السائدة في ذلك الحين، إذ اضطر بشير أن يستدينه من هنا وهناك ليجمعه ويدفعه.

إثر اغتيال جوزيف، اجتاحت عين الرمانة والأحياء المجاورة، موجة عارمة من الغيظ والغضب المتفجّر، وتأهّب الجميع للانتقام. ثم انصبّت تلك الموجة نارًا على الباص الفلسطيني المكتظّ بالمقاتلين، الذي كان يمرّ عادة نحو جسر الباشا وتل الزعتر فهلكوا جميعًا في اليوم نفسه.

كانت تلك الشرارة هي الأولى في الحرب اللبنانية الفلسطينية التي بدأت في ١٣ نيسان ١٩٧٥، بعد أن سبقتها حوادث تمهيدية متفرّقة هنا وهناك، ولا سيما في صيدا والأماكن الخاضعة لنفوذ الذين كانوا يسمّون نفوسهم «فدائيين» ويدّعون الكفاح «لتحرير الأرض السليبة»، وهم لا يفكّرون إلا باتخاذ لبنان وطنًا جديدًا لهم بقوة السلاح، والعمل على تفكيك المجتمع اللبناني وشرذمة أبنائه.

حماية الأشرفية

لم تكن الأشرفية مستعدّة للحرب. ولم تتخذ حتى الحد الأدنى من التدابير التي يفرضها خوض القتال، فيما كان الفلسطينيون وحلفاؤهم على أتم الاستعداد. وقد جاءت حادثة ١٣ نيسان انطلاقة لحرب أرادوها، وتأهّبوا لها، وأعدّوا عدتها عديدًا وعتادًا. أضف إلى ذلك أن الأشرفية كانت «مخروقة»، على حد تعبير بشير، أي أنها ملغومة من الداخل ومخترقة، تفتقر إلى توحيد الكلمة ورصّ الصفوف والتعاون المخلص بين أبنائها جميعًا. وكان بين هؤلاء الأبناء القومي السوري، والشيوعي، والاشتراكي، والفلسطيني المتلبنن، والسوري، والحوراني... إلى جانب خليط لا يؤمن كلّه بلبنان، ولا وجود في مفهومه لشيء اسمه «القضيّة اللبنانية». فلا غرابة في أن يكون هذا «الوضع الواقعي» مشكلة، بل معضلة المعضلات، يتطلّب حلّها كثيرًا من الحكمة والحزم، بعد الاطلاع على حقيقة ما هنالك من تضارب التيارات، وتنابذ المبادئ، واختلاف المرامي، وتناقض المفاهيم، وغموض ملامح المؤامرة المدبّرة على لبنان واللبنانيين. وهذا ما أوجب مباشرة عملية التطهير والتنسيق والتوعية والإرشاد من الداخل.

والمعروف عن الأشرفية أنها منطقة أرثوذكسية الطابع، ما تعاطفت أصلًا مع الكتائب، وما اهتمّ الكتائبيون يومًا في المقابل بالغوص في أعماقها، والتناغم مع عقلية أبنائها، والتوغّل في عقولهم لاجتذاب قلوبهم.

كان اتكال الكتائب يقتصر على وهج بيار الجميّل، إذ تبادر إلى أذهان بعضهم أن هذا الرصيد الشخصي يكفي لتجيير المنطقة إلى الحزب كاملةً غير منقوصة. لكن هذا الوهج، على ما كان فيه من القوّة والإشراق، لم يعمّر طويلًا.

كما سبق أن ذكرنا، مَلَكَ بيار الجميّل الأشرفية، أو المنطقة الشرقية، على أثر حرب ١٩٥٨، لأن الشعب كان وفيًا للأعمال البطولية التي قام بها الكتائبيون، وللشهداء الذين بذلوا دماءهم ذودًا عن لبنان. وما إن رشّح الشيخ بيار نفسه في الانتخابات النيابية ضد بيار إدّه سنة ١٩٦٠، حتى فاز عليه فوزًا ساحقًا على الرغم مما يتمتّع به بيت إدّه من رصيد مرموق لدى الأرثوذكس باعتبار أن والدته من عائلة سرسق الأرثوذكسية العريقة. وقد أوجدت أواصر القربى هذه جذورًا للإدّيين في الأشرفية لم يتمتّع بمثلها آل الجميّل ولا غيرهم من الموارنة وغير الموارنة. إلا أن الكتائبيين لم يأخذوا هذه الأمور بالاعتبار، بل تابعوا رهانهم على رصيد الشيخ بيار. فسجّلوا نجاحًا كبيرًا في الانتخابات التي أجريت في عهد فؤاد شهاب، في الدائرة الأولى، وفازت لائحتهم بالتزكية.

لكن، كما ذكرنا أيضًا، سرعان ما بدأ نجم الحزب يخبو على مرّ الأيام، فتضاءل زخم التأييد الشعبي، وراح المرشحون على لائحة الشيخ بيار يسقطون واحدًا بعد آخر. ثم اضطر الحزب إلى سحب مرشّحه البروتستانتي سمير إسحق لإعطاء مقعده إلى الأرمن، وما بقي في الميدان غير الشيخ بيار وجوزيف شادر. لا بل تبيّن أن أكثرية الأصوات انصبت على المرشح الأرثوذكسي ميشال ساسين لا على رئيس الكتائب، كاشفة عن واقع كان لا بدّ من التوقّف عنده وهو أن أهمية الحزب أخذت تتقلّص في الأشرفية، وأن نفوذه ينحسر.

ولما اندلعت الحرب التي ما برحت الأشرفية تكتوي بنارها، كان على بشير أن يواجه هذه الحقيقة، حقيقة ضعف الحزب في الأشرفية، وكون هذه المنطقة فسيفساء بشرية تحتوي عددًا لا يستهان به من غير اللبنانيين.

كان التدريب العسكري مستمرًا. وكنا نحن، أصدقاء الكتائب، نؤيّد هذا العمل، ونُعِدّ لبشير الندوات واللقاءات ليتوغل في صميم الحياة العامّة، ويدخل البيوت، ويتفاعل مع الشعب. فراح نجمه يسطع، وكثر التائقون إلى معرفته ولقائه، فتوافدوا إلى بيت المنطقة حيث عمدنا إلى عقد اجتماعات أسبوعية كل يوم ثلاثاء، وبقي هذا النهج متبعًا حتى استشهاد بشير يوم الثلاثاء ١٤ أيلول ١٩٨٢.

نظّمنا عملنا في لجان. وأنشأنا، كما ذكرنا في الفصل السابق، جهازًا لجمع التبرعات والاستعداد للحرب، فتدفّقت علينا الأموال، واشترينا بها أسلحة، ونظّمنا دورات تدريب، وحثثنا الشباب على الالتحاق بالحزب، فانضووا تحت لوائه مئات، وانخرطوا في صفوف القوى النظامية، فأصبحت الأشرفية أكثر استعدادًا للقتال.

تابعنا العمل حتى وفرّنا لكل شاب من المقاتلين بندقية، ولكل عائلة قطعة سلاح تناسب الوضع الراهن، مع الإشارة إلى أن السلاح الذي كان يملكه الفلسطينيون هو متطوّر ومتفوّق في النوعية والكمّية.

مع اشتداد المعارك، برزت أكثر فأكثر حاجة المنطقة إلى السلاح الثقيل، فاشترينا مدافع. وأذكر أن أوّل مدفع حصلنا عليه صار «فرجة» يتقاطر الناس ليلقوا نظرة عليه كأنه أعجوبة. وكلّما جمعنا مبلغًا من المال، كان بشير يقول لنا: «روحوا تنشتري قسطر»، و«القسطر» في مفهومه ومفهوم زوجتي فيفيان هو مدفع الهاون. وقد كانت الأشرفية شبه محاصرة تحوطها جبهات من معظم الجهات من التباريس إلى السوديكو، فالبرجاوي، فالمتحف، فالسيوفي، فالبدوي، فحدود الكرنتينا. وكانت، طبعًا، تنسّق مع مناطق المدوّر والصيفي والرميل لحماية المنطقة كلّها.

ظلّ عدد المقاتلين محدودًا لا يكفي لتوفير القوة اللازمة لهذه الجبهات، وللاحتماء من الخونة والمأجورين المندسّين في الداخل، فكان علينا، نحن «الأصدقاء» أن ننزل إلى الشارع وأن نسند هذه المهمة إلى المدرّبين منّا لضمان الحماية الداخلية. فتوزّعنا على الأحياء توزّعًا منظّمًا، ووصلنا النهار بالليل ننصب الحواجز الطيّارة لفحص السيارات والتنبّه لمن فيها. وكان بشير يفاجئنا بزيارات خاطفة تحت جناح الليل أو مع بزوغ الفجر ليشرف على سير عملنا. وكم كان طريفًا في هذه «الغزوات»! لا يأتي إلى مركزنا إلا حين أكون نائمًا بعد حراسة مضنية. ويبدو أن مخبرًا من مجموعتي كان يخبره بأني أويت إلى فراشي في طبقة سفلى، فلا تمر هنيهة حتى أراه يدخل عليّ قائلًا: «كمشتك يا نشيط، وسمعتك تشخّر». وتكرّرت هذه المفاجآت غير السارة حتى كدت أتعقّد، ثم اكتشفتُ حقيقة الأمر، فعمدت إلى التظاهر بالنوم، حتى إذا جاء نهضت فورًا واستقبلته مرحّبًا.

في الساعة الحادية عشرة والنصف من ٥ كانون الأول سنة ١٩٧٥، اتّصل بي تلفونيًا جورج الأشقر، صاحب فندق برنتانيا في برمانا ورئيس بلديتها، وسألني: «هل بلغك الخبر؟» قلت: «أي خبر؟» قال: أقام الفلسطينيون كمينًا على طريق عين سعادة الداخلية القديمة وتسبّب بمقتل أربعة شبان من فرقة الصخرة، وهم إيلي بانو وإدي عوكر وجورج عبسي ورولان سعادة، فيما رفيقهم الخامس دافيد عوكر بين الحياة والموت. وقد نتجت عن ذلك موجة من الغضب والانتقام قادها الصحافي جوزيف سعادة والد القتيل رولان، أسفرت عنها عشرات القتلى على الهوية».

إتّصلت فورًا ببيروت، فتبلّغت المزيد من المعلومات المؤسفة. وذهبت إلى منزل الشيخ بيار حيث كان بشير نائمًا، فأيقظته ونقلت إليه النبأ.

وفي هذه الأثناء، كانت العاصمة اللبنانية تشهد واحدة من أدهى مآسيها. غصّت بيروت بالمسلحين. ألهبت بالرصاص. إنتابها الخطف والبطش والتقتيل في إعصار من الفلتان الأعمى والغضب الأهوج.

أذكر هذه الحادثة، بل أصرّ على تسجيلها أمانةً مني للحقيقة والتاريخ. فبشير الجميّل كان غارقًا في النوم لما هبّت بيروت تنتقم للشبان الأربعة الذين اغتيلوا غدرًا أمام المون لاسال على كتف تل الزعتر، على طريق عين سعادة العتيقة.

ولمّا وصل بشير إلى بيروت، كان دخان الرصاص يخالط رائحة الدماء المسفوحة في ساحة البرج وضواحيها. وقد بذل جهودًا كبيرة مع أصدقائه لإنقاذ من أمكن إنقاذهم من الأبرياء. ومن الجور أن يتهمه بعض المغرضين، أو غير المطّلعين على الحقيقة، بأنه هو المسؤول عن هذه المجزرة، وهو منها براء.

ملفات وزارة الخارجية

لم تقتصر الحرب على السلاح والعسكر، بل شملت حقولًا سياسية واجتماعية عديدة منها النشاط الإعلامي، وجمع المعلومات، وتوفير الخدمات العامة، والاهتمام بمختلف شؤون الحياة. فانصّبت الجهود على جمع أكبر عدد ممكن من المخلصين للقضية اللبنانية، وحملهم على المساهمة في مختلف فروع العمل. وكانت لجنة أصدقاء الكتائب سبّاقةً في هذا المضمار، فأنشأتُ لجانًا فرعية، وعزّزتها بأصحاب الكفاءة في مختلف القطاعات. وكان بشير قد أوجد لنا مكتبًا في جوار بيت الكتائب، وهو المكان الذي كانت تشغله إذاعة «صوت لبنان». ومن أهم إنجازات هذا النشاط انضواء عدد من المواطنين تحت راية الكتائب، وانضمام الشبان منهم إلى القوى النظامية. وكنا في أشدّ الحاجة إلى العسكر، لوجودنا في منطقة واسعة ومواجهة لخطوط التماس، وقريبة من ميادين القتال، وهي تتطلّب عددًا كبيرًا من الرجال.

وفي مدة وجيزة نسبيًا، لا تتجاوز ثلاثة أشهر، انضم إلينا حوالي ٣٠٠ شاب وشابة، وأقيمت حفلة تخريجهم وقسمهم في نادي أبناء نبتون في الأشرفية الذي ترأسه، وألقى بشير خطابه العلني الأول، فكان حماسيًا، بليغًا، مؤثّرًا، يبشّر بمستقبل باهر. وبعد أقل من سنتين، وفي ساحة ساسين، أقسم حوالي ٣٠٠٠ شاب من الأشرفية يمين الانتماء إلى حزب الكتائب.

تنوّعت أعمال لجنة الأصدقاء وتفاعلت وتداخلت مع أعمال لجان الحزب، فتكوّنت وحدة متجانسة، متلاحمة تصب كلّها في قناة بشير، وتسترشد بتوجيهه وتلتزم بقيادته.

ذات ليلة، استدعاني وقال لي إن حدثًا مهمًا قد وقع، وهو حصولنا على ملفات وزارة الخارجية، وعلينا أن نشبعها درسًا ونطّلع على ما فيها، وننسخها في أسرع ما يمكن. واستطرد قائلًا: السرعة وحدها لا تكفي، يجب أن يبقى هذا الأمر سرًا مكتومًا لا يدري به أحد غيرنا.

ألفّت فريق عمل قوامه زوجتي، وشقيقتها ميشال ناصيف ودنيز غبريال الجميّل، والدكتور جاك نصر، ونبيل حرفوش. وكان يساعدنا في هذا العمل الدكتور ميشال يارد (أبو مارون)، رئيس دائرة الاستخبارات التابعة لبشير آنذاك.

وُضعَت في تصرفنا آلتان لتصوير الملفات، وكان علينا ألاّ نهمل شيئًا مما يجب تصويره، فانقسمنا ثلاث فئات: واحدة تفرز، وثانية تصوّر، وثالثة توثّق. واستغرقت العملية ثلاثة أسابيع متواصلة، ثم أعيدت الملفات إلى وزارة الخارجية. وصُنّفت الوثائق في مواضيع متنوّعة، وبُوِّبَتْ تحت عناوين، ووُضعت بشكل واضح ومنتظم في خزانات حديدية ضمّتها غرفة خاصة.

علم القوات اللبنانية

برزت الحاجة بعد نحو سنة من اندلاع الحرب اللبنانية، وبالتحديد في صيف ١٩٧٦، إلى توحيد الجهود بين التنظيمات المقاتلة التابعة للأحزاب اللبنانية والتنسيق على الجبهات. فقد كان للعفوية التي بلغت في بعض الأحيان حدود الفوضى والمشاحنات غير المستحبة، نتائج لا تليق بالتضحيات الكبيرة المبذولة. وبعد سلسلة اجتماعات بين أركان التنظيمات المقاتلة، تم تأسيس القوات اللبنانية، وانعقد إثر ذلك اجتماع في منزلي ضمّ بشير الجميّل رئيس القوات اللبنانية، داني شمعون نائب الرئيس، إتيان صقر (أبو أرز) فؤاد الشمالي عن التنظيم الذي انقسم فيما بعد ما بين مجموعة أولى برئاسة فوزي محفوظ (أبو روي) وثانية برئاسة جورج عدوان، وبحضور سعيد عقل الأب الروحي للقوات.

بعد الاجتماع التنظيمي، طلب بشير اعتماد علم للقوات اللبنانية، فاقترحت تبنّي علم الجامعة الأميركية مع إبدال شكل الأرزة، وهذا ما حصل.

إستشهاد ميشال يارد

بدأت أعمال الاستخبارات في القوات اللبنانية مع الدكتور ميشال يارد الملقّب «أبو مارون»، وكان مسؤولًا مع فؤاد أبو ناضر عن مركز التنصّت في الأشرفية، في الطبقة الرابعة من المبنى الذي تشغله إذاعة «صوت لبنان». وتألّف قسم الاستخبارات في بدايته من شبان لا يتجاوز عددهم الأربعة عشر. وظلّ هذا القسم محدود الإمكانات لافتقاره إلى المبالغ الكافية من المال. ولكن ميشال يارد امتاز بأنه «حركة دائمة كلّها بركة». فبذل جهودًا كبيرة ومشكورة لتثبيت القسم ورفع مستوى أهميته إلى المستوى اللائق.

ذات يوم، اشتدّ القتال على محور فتّال-بنك سوريا ولبنان. وكانت الكفة تميل ضدّ الكتائب. فاتّصل بشير بي في الساعة الثانية بعد الظهر وقال لي: «إصعد إلى الأشرفية، واجمع لي مئة مقاتل، وإلا سقط البيت المركزي في محلّة الصيفي بعد ساعات معدودة».

ذهبتُ إلى الأشرفية، وكان يداوم فيها آنذاك الشيخ ألكسندر الجميّل، ابن عم بشير. أخبرته بطلب بشير، فبادر فورًا إلى إجراء الاتصالات اللازمة. وبعد ساعة تقريبًا، تجمّع في بيت الكتائب حوالي أربعين مقاتلًا.

إتصلت ببشير وأطلعته على واقع الحال، فصاح غاضبًا: «إذهبوا إلى محلات الفليبرز، إلى الكنائس، إلى حيث تشاؤون... ولمّوا الشباب من اللعب، من عراضات القواص في المقابر... أريد مائة مقاتل في غضون ساعة، وإلا سقط البيت المركزي».

أعدنا الكرة، وجدّدنا حملة البحث والجمع، فوصلنا بعد ساعة إلى سبعين مقاتلًا على أتمّ الاستعداد للنزول إلى المعركة.

إتصلت ببشير من جديد، فكان رفضه قاطعًا، وعاد يصرخ: «مئة، لا أرضى بأقل من مئة، اخلقوهم لي فورًا».

إستدعينا رؤساء المكاتب والأقسام، وكان الدكتور ميشال يارد بينهم، وأخبرناهم عن الواقع المأساوي الذي يواجهه بشير في الصيفي، وكرّرنا عليهم أنه بحاجة إلى مئة مقاتل. وبعد الاجتماع بقليل، علمنا أن الدكتور يارد انضمّ مع معاونيه

الأربعة عشر إلى المقاتلين، وتوجّهوا جميعًا إلى ميدان القتال. وصعَقَنا هذا النبأ، لعلمنا بأن يارد لم يتدرّب كفاية ليخوض معارك شرسة كتلك الناشبة في الأسواق، ولكننا لم نتمكن من استدراك ما حدث.

أمضينا الليل ننتظر نتائج المعركة التي بدأت كفّتها تميل إلى الكتائب. وفي الصباح أسرعنا إلى قراءة الصحف. وكنا نقرأ، قبل كلّ شيء، أسماء الذين استشهدوا في المعارك. وكم كان ألمنا شديدًا كاويًا لما رأينا اسم ميشال يارد في طليعة تلك الأسماء. وما لبثنا أن علمنا الحقيقة كاملةً وهي أن استشهاده كان بطوليًا. سقط في البدء جريحًا فيما كان يجتاز شارع بنك سوريا ولبنان بعد أن حرّره مع رجاله. وقد أصرّ على أن يكون آخر المارين بعدهم، بصفة قائدهم، فأصابته رصاصة مضاد وهو في منتصف الشارع، فسقط، ولم يستطع رفقاؤه الوصول إليه على الرغم من المحاولتين الجريئتين اللتين قاموا بهما، وقد استشهد أكثر من رفيق في هاتين المحاولتين. ولما وصلت ملالة مدرّعة لنجدته كان قد نزف دمه وفارق الحياة.

أبو مارون يرقد اليوم تحت صنوبرة وارفة الظلال على هضبة مار متر في الأشرفية، وهو ينعم بذلك الهناء التام الذي يضفيه الموت على من قام بواجبه الوطني كاملًا.



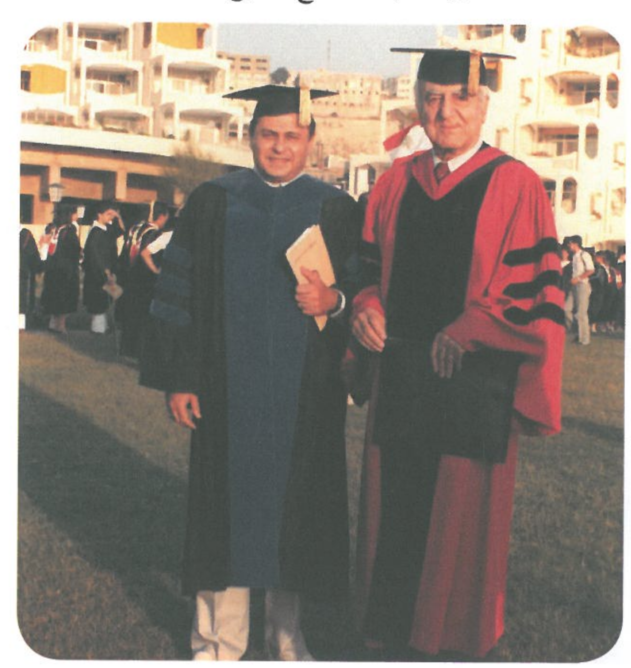
تدريب عسكري في النعص بكفيا ١٩٧٥.



طلّاب السنة الأولى في الطب ١٩٨٦.



الدكتور رجا الخوري وزوجته سميّا، عادل برباري وزوجته ميشلين وفيفيان في حفلة تعارف الجامعة مع الفرع ١٩٨٠.



الدكتور شارل مالك مع دكتور فريحة في حفلة تخرّج طلّاب الOCP ١٩٨٤.



مع النائب للOCP الدكتور عبدالله صفير.



تهنئة منى أميوني ودوللي فياض لنوالهما شهادة الدكتوره في OCP عام ١٩٩٣.



طلّاب الهندسة في فرع الجامعة أثناء عرض أعمالهم الهندسيّة بحضور الشاعر سعيد عقل والنقيب الصحافي الياس عون ١٩٨٩.



طلّاب الهندسة في فرع الجامعة أثناء عرض أعمالهم الهندسيّة بحضور الشاعر سعيد عقل والنقيب الصحافي الياس عون ١٩٨٩.



عمداء الفرع مع ميشال ضومط عضو مجلس الأمناء في حفلة تخرّج طلّاب الـOCP ١٩٨٧.



زيارة بشير للهيئة الشعبية في بيروت ويبدو رئيس منطقة الأشرفية للهيئات الشعبية ريمون روفيل ١٩٨٢.



توقيع كتاب «شعب وهيئة» للهيئة الشعبية ١٩٨٣.



تمثال بشير الجميل في قاعة بشير الجميل في نادي أبناء نبتون ١٩٨٧.



قاعة بشير الجميل المغلقة في نادي أبناء نيبتون ١٩٨٦.



إفتتاح قاعة بشير الجميّل في ENB ١٩٨٦. ويبدو في الصورة صولانج ونديم ويمنى.





علم القوات اللبنانية مُستنسخ من علم الجامعة الأميركية.



نخب الرئاسة.

الفصل الخامس:

معركة المعاهد والجامعات

بموازاة الاستعدادات العسكرية التي بدأت بعد حوادث ١٩٧٢-١٩٧٣ الدامية في لبنان، تحرّك العديد من القطاعات المهنية والاجتماعية، وبينها قطاع الأساتذة اللبنانيين. فعقدوا ندوات واجتماعات تدارسوا فيها الأخطار المحدقة بالجامعة والوسائل التي تساعد على الخروج من تلك الأزمة المصيرية. فألّفوا لجنة مصغّرة عُهد إليها بمتابعة شؤون الوضع الجامعي، والاتصال بالأساتذة اللبنانيين جميعًا كلّما دعت الحاجة إلى رص الصفوف لدعم المرشحين الجديرين بالوصول إلى المراكز الحسّاسة. أذكر من هذه المجموعة شارل مالك، رجا خوري، جان جاك حجار، رجا إيليا، فؤاد حداد، عادل برباري، ميشال نصر، أنور بخعازي، مارون كسرواني. وقد سارت الأمور على ما يرام في هذا التيار حتى العام ١٩٧٥.

وما كادت الحرب تندلع بين اللبنانيين والفلسطينيين، على أثر حادث عين الرمانة حتى اختلطت الأوراق، وأصبح الوجود اللبناني في الجامعة الأميركية مهدّدًا برمّته لوجود هذه الجامعة في منطقتها المعروفة. فتبدّلت الأدوار، وعاد اليساريون إلى المسرح، وظهر المتطرّفون المطرودون، وتوالت عمليات الانتقام: في آذار سنة ١٩٧٦، خُطف وقُتل رياض الحلبي، أحد المسؤولين عن الأمن في الجامعة. وقتل نجم نجم في يوم واحد العميدين ريمون غصن وروبرت نجيمي وأُطلقت النار، فيما بعد، على عفيف الصغيري (رئيس جهاز الأمن في الجامعة)، فأصيب بجروح خطرة في صدره، نجا منها بأعجوبة، ولكنه ما لبث أن قُتل في اعتداء آخر عليه سنة ١٩٧٨على باب حرم الجامعة. وتكرّرت الاعتداءات فقُتل وخُطف وأُهين عدد كبير من اللبنانيين ناهز الـ ٧٥ طالبًا وموظفًا واستاذًا في الجامعة.[١] هذا فضلًا عن اضطرار الأساتذة، وأنا منهم، والموظفين والطلّاب إلى التغيّب بسبب الأحداث الأمنية.

تكاثرت الاتصالات بي وبالشيخ بشير والمراجعات المطالبة بإيجاد حلّ لتلك المعضلة عبر استحداث فرع للجامعة الأميركية في المنطقة الشرقية أسوة

١. لمزيد من التفاصيل يمكن مراجعة اللائحة الأسمية التي أدرجتها في كتابي: They had life.

بالجامعة اللبنانية التي كانت بدأت عملية تفريعها وبجامعة القديس يوسف التي فتحت فرعًا في صيدا لطلاب الجنوب والشوف، لكن إدارة الجامعة لم تتجاوب في البداية. عندئذٍ اضطر بشير إلى قصف حرم الجامعة، ما أدّى إلى تعطيل الدروس فيها. إتصلت شخصيًا بسمير تابت نائب رئيس الجامعة آنذاك وبرئيف ناصيف، مدير كلية الطب وبإيلي سالم، عميد كلية الآداب والعلوم، مجدّدًا الطلب باستحداث فرع للجامعة في المنطقة الشرقية. وكان جوابهم أن هذا القرار يجب أن يأتي من قبل مجلس الأمناء في نيويورك.

جامعة للجميع أو لا جامعة لأحد

رد بشير على هذا الجواب بالتهديد بإغلاق الجامعة بالقوة أي بالقصف المتواصل إن لم تذعن إدارة الجامعة لمطلبنا. فاتصل بي عندئذ سمير تابت وطلب أن أحضّر اجتماعًا لرئيس مجلس الأمناء آنذاك كالفن بلمبتون ببشير في منزلي. حصل الاجتماع في ١٥ تشرين الأول سنة ١٩٧٦ مع بشير بحضور داني شمعون وبلمبتون وتابت وجايمس كاوان رئيس الجامعة بالوكالة آنذاك، والمدير العام لقوى الأمن الداخلي هشام الشعار الذي تولّى نقل مسؤولي الجامعة إلى منزلي. أتى بلمبتون بنفسية غير متفهّمة، ما جعل الاجتماع صاخبًا.

بدأ بلمبتون بالتنويه بصداقته مع الرئيس كميل شمعون والشيخ بيار الجميّل، واستغرب كيف أن ولديهما داني وبشير شذّا عن صداقة والديهما وضربا الجامعة الأميركية بالقذائف. فأجابه بشير بأن الجامعة كانت للجميع ولم تستثنِ أحدًا بالتمتّع بمرافقها وعلمها. أما اليوم فمنطقة بكاملها تحرم من خدماتها مضيفًا: «إما أن تكون الجامعة للجميع أو لا تكون لأحد».

أغاظ هذا الكلام بلمبتون وغادر منزلي مصرًّا بعنف أنه لا وارد لديه فتح فرع في الشرقية. وما إن عاد إلى الجامعة حتى انهالت القذائف على الأبنية مما أدى إلى وقوع جرحى من بينهم ابن نائب رئيس الجامعة للشؤون الخارجية آنذاك جورج حكيم. إزاء تصلّب بشير، اتصل فورًا هشام الشعار طالبًا ترتيب لقاء بين أركان القوات اللبنانية وممثلين عن إدارة الجامعة.

حضر الاجتماع في منزلي بشير ورئيف ناصيف مدير كلية الطب في الجامعة، وسمير الحاج أستاذ التوليد، وغاب داني شمعون. كان الاجتماع سريعًا ومحسومًا إذ إن بشير كرّر موقفه في شكل واضح وخيّر الإدارة بين «فتح فرع للجامعة أو إغلاق الجامعة». فتقرّر فتح الفرع في الشرقية بناء على شروط ثلاثة:

أولًا: يدعى برنامج خارج حرم الجامعة أو Off Campus Program, OCP.

ثانيًا: أن يُغلَق عندما تُلغى خطوط التماس.

ثالثًا: أن لا يكبّد الجامعة مصاريف إضافية.

عيّنت إدارة الجامعة الأميركية الدكتور بيار مراد أستاذ الفيزياء أول مدير للفرع، ما أغاظ بشير الذي كان ينتظر أن يتم تعييني في هذا المنصب، فهدّأته. وسار الفرع بسلام مبتدئًا بـ ١٣٥ طالبًا وخمسة أساتذة واضعًا أمام عينيه هدف تقديم جودة التعليم نفسها للطلاب غير القادرين على العبور إلى المقر الرئيسي للجامعة الأميركية. وبعد سنتين تقدّم بيار مراد باستقالته، مقترحًا تعييني خلفًا له، لكن إدارة الجامعة ارتأت تعيين الدكتور حنا مخلوف لسبب مدهش. وقد وردت إشارة إليه في كلام قاله سمير تابت مفاده أن تعييني من شأنه أن يثير استياء حزب الوطنيين الأحرار، بالنظر إلى النفور الحاصل آنذاك بين هذا الحزب وحزب الكتائب، وإلى كوني محسوبًا على بشير، وبالتالي على الكتائب.

تولى مخلوف إدارة الفرع سنتين انتعش خلالهما وأضحى عدد الطلاب يناهز المئة والخمسين طالبًا وبعض الأحيان مئتين، ومواد التدريس قاربت السبعين مادة في حقول الآداب والعلوم والهندسة. غير أن تدخّل الطلاب الحزبيين في شؤون الفرع عطّل تطوره المتنامي، نتيجة المناوشات فيما بينهم التي بلغت في بعض الأحيان حد المعارك. فقرّر حنا مخلوف الاستقالة من إدارة الفرع مصرًّا على أن أكون خليفته لكوني -كما كان يقول مخلوف آنذاك- قادرًا على ضبط الأمور ومنع التدخلات الحزبية في شؤون الفرع. وصدر قرار تعييني رئيسًا «لبرنامج خارج الجامعة» (OCP) بتاريخ ٢٧ آب ١٩٨٠.

تبلّغت قرار تعييني في لندن حيث كنت أمضي سنة في الأبحاث الأكاديمية هي من أجمل الأيام في حياتي المهنية مع العلّامة جيمس د. سميث في جامعة لندن

-إمبريال كولدج. فترددت مرتين إلى أن زارني رسميًا فؤاد سعيد حداد باسم الجامعة، وأصرّ عليّ أن اقطع إجازتي العلمية وأعود لأستلام إدارة الفرع. هذا فضلًا عن إصرار بشير على أن أقبل باعتبار أن الموضوع أصبح وطنيًا يهمّ المنطقة الشرقية بكاملها. فعدت مع العائلة، وكان يومًا مشهودًا، إذ أرسل بشير مجموعة من الأمن العام بإمرة منصور الأسمر لفتح الطريق أمامي للوصول إلى الأشرفية سالمين، بعدما مررنا بمخيمَي صبرا وشاتيلا. وبعد يومين أمرت زوجتي أن أصعد إلى دير مار مارون في عنايا حيث مقام مار شربل لتفي النذر الذي قطعته من أجل وصولنا بالسلامة إلى منزلنا. أثناء الزيارة حصلت أعجوبة بشفاعة القديس شربل لعائلتي مدوّنة في كتاب «شربل قديس الخوارق» للأب أنطوان صيفي في الصفحة ١٨٧.

كان التحدّي الأصعب إيجاد مقر ثابت وآمن للفرع. استأجرنا في البداية جناحًا في معهد زهرة الإحسان، وأماكن أخرى تبعًا للأحداث الأمنية: في مدرسة عبرين، ومدرسة القلبين الأقدسين ومعهد العائلة المقدسة الفرنسية في الفنار، ومعهد سيدة اللويزه الذي كان يديره آنذاك الأب بشاره الراعي، وكذلك انتقل بنتيجة الأحداث إلى المدرسة المركزية للرهبانية المارونية في جونيه، وهنا لا بد من كلمة شكر للأباتي نعمان لمروءته الكبيرة أيضًا في تسهيل استعمال مستشفى سيدة المعونات فيما بعد كمركز أساسي لكلّية الطب وعقد اتفاقية بين المستشفى والجامعة بهذا الخصوص. ولما عاد الهدوء إلى الأشرفية أعيد الفرع إليها، ولكن مقرّه كان هذه المرة في مدرسة الآباء اللعازاريين بعدما تدخّل المطران الياس عودة المعيّن حديثًا على بيروت لإيقاف تجديد إيجار مدرسة زهرة الإحسان لفرع الجامعة. وكان يؤمّ الفرع عند الحاجة بعض الأساتذة من الجامعة الأم بإذن خاص من رئيس الجامعة. أما الموظفون فكان عددهم واحدًا فقط وهو مساعد رئيس التسجيل في الجامعة وسمح للفرع بتوظيفٍ موقّت لسكرتيرة واحدة.

أوّل عمل قمت به هو تحضير حفلة تعارف للرئيس هولشر وأركان إدارة الجامعة والشخصيات السياسية والدينية والتربوية والاجتماعية في المنطقة الشرقية. ففي ٢٩ كانون الثاني ١٩٨٠، حضر أكثر من ١٠٠٠ شخصية لبنانية ودينية واجتماعية الكوكتيل الذي أقيم في مربع الهوليداي بيتش السياحي ليقابلوا أركان إدارة الجامعة الأميركية في الغربية. ومن بين الذين حضروا رؤساء الأحزاب والأركان الحزبية كميل

شمعون، بيار الجميّل، إتيان صقر، جورج عدوان، جوزيف سعادة، أمين الجميّل، بشير الجميّل، دوري شمعون، داني شمعون، فادي افرام، ألفرد ماضي، ومن الوزراء والنواب ميشال ساسين، لويس ابو شرف، خاتشيك بابكيان، إدمون رزق، الياس الخازن، بطرس حرب، ومن رجال الدين ممثّل بطريرك الموارنة المطران ضومط، والمطران الياس عودة والأرشمندريت ألكسي مفرّج، والأباتي بولس نعمان، ورؤساء الجامعات اليسوعية، واللبنانية، والروح القدس - الكسليك، وكليّة بيروت الجامعية، وشخصيات عديدة من متخرّجين وأصدقاء الفرع.

إمتدت السهرة حتى ساعة متأخّرة من الليل. جرت أثناءها أحاديث بين الزعماء وإدارة الجامعة صبّت كلّها في إطار تقوية فرع الجامعة في الشرقية وإفساح المجال لمنطقة الجبل المسيحي من الاستفادة والتنعّم بالثقافة الأنكلوساكسونية المتمثّلة بالجامعة الأميركية. وهنا أذكر مقولة صديقي الدكتور فؤاد سعيد حدّاد وهي أن «الجامعة الأميركية وصلت وتعدّت أبعد كثب في صحاري العالم العربي، لكنها لم تصل أو تتعدّى نهر الكلب للوصول إلى الجبل المسيحي». كانت هذه الانطلاقة مباركة، إذ التحق بالفرع في الفصل الذي تلا تعييني عشرات الطلاب وارتفع العدد من ١٧٠ طالب إلى نحو ثلاثمئة.

مغامرة استحداث كلّية الهندسة

تردّت الحالة الأمنية مجددًا وشهدت خطوط التماس معارك حادّة، ما جعل التنقّل بين الشرقية والغربية مستحيلًا، واضطر حوالي إثني عشر أستاذًا ومئة طالب، في كلّية الهندسة في الجامعة الأميركية، القاطنين في الشرقية، إلى التخلّف عن الالتحاق بدروس الفصل الثاني من السنة الدراسية. ومن هؤلاء الأساتذة حنا مخلوف، وعبدالله صفير، وسامي كلنك، وألبير قرعان، وهراتش بابازيان ومعين سلامه. وجاءني وفد منهم يطالبني باستحداث فرع للهندسة في الشرقية.

كان القرار صعبًا وشبه مستحيل لعلمي التام أن الإدارة في الجامعة الأم ترفض رفضًا باتًا هذا التدبير، وبخاصة لأن الفرع ليس مؤهّلًا ليستوعب هذا العدد من الطلّاب ولا تتوفر فيه التسهيلات والمختبرات التطبيقية للهندسة. صبرت أسبوعًا

ولم تتحسّن الحال الأمنية. وازداد الضغط عليّ. فجمعت الطلّاب والأساتذة في ١٥ آذار ١٩٨١ في منزلي في الهوليداي بيتش، وأخذت معهم قرار استحداث فرع لكلّية الهندسة في الشرقية. وسجّلت الطلاب واستوفيت منهم قسط الفصل الثاني وأعطيتهم إيصالات رسمية بِاسم الجامعة. واتصلت، في الوقت نفسه، برئيس مدرسة برمانا العالية السيد دانكن كامبل، واتفقت معه على أن أستأجر المبنى الكبير المستحدث على كتف قرية رومية وكان يسمى «مبنى الباطون». وكلّفت عمالًا بإعداد قاعات للمحاضرات وللإدارة وللأساتذة.

كما واتصلت بكلية الهندسة في جامعة القديس يوسف وبعميدها المغوار سليم كاتافاغو الذي قدّم لي كافة التسهيلات لجهة استعمال طلّابنا لمختبرات الجامعة اليسوعية. والأمر نفسه حصل مع رئيس الجامعة اللبنانية الدكتور جورج طعمه الذي أمّن لطلابنا مختبرات الدكوانة التابعة للجامعة من أجل أعمال تطبيقية أخرى تعود للهندسة. وفي غضون ثلاثة أيام، ابتدأ التدريس في برمانا لفرع كلية الهندسة. وقد قمت بجميع هذه الإجراءات قبل أن أستحصل على إذن رسمي من إدارة الجامعة الأميركية التي كان يرأسها بالوكالة السيد دايفيد دودج، وهو ابن بايارد دودج وحفيد دانيال بلس، مؤسّس الجامعة، من جهة والدته زوجة بايارد دودج.

جنّ جنون دايفيد دودج وكنعان كانو، عميد كلية الهندسة آنذاك، وقرّرا في اجتماع مجلس العمداء في الجامعة زيارتي لمواجهتي وإبطال عملي هذا غير الانضباطي.

لم أُعلم بالزيارة. فجأة رأيت الأكارم دايفيد دودج وسمير تابت، نائب الرئيس، وإيلي سالم، عميد كلية الآداب والعلوم، وكنعان كانو، ورجا خوري، عميد كلية الطب، في منزلي في الهوليداي بيتش في ٢٠ آذار ١٩٨١. وصلوا منهكين إلى منطقة نهر الكلب بعدما اجتازوا خطوط التماس آنذاك بعد طول عناء ومشقة مع هشام الشعار. ذهبنا إلى البار في الهوليداي بيتش، وكان انفعال دايفيد دودج كبيرًا، إذ ما إن جلسنا حتى واجهني بكلام قاسٍ لا يخلو من التهجّم على عدم انضباطيتي وعدم التزامي بمسؤوليتي تجاه الجامعة. وكيف أسمح لنفسي باستحداث كلّية هندسة بفروعها الأربعة: معمارية وميكانيكية وإلكترونية ومدنية من دون الرجوع

إلى الإدارة في الجامعة الأم وأخذ الإذن منها. وكيف أسمح لنفسي بتسجيل الطلاب وتقاضي أقساطهم، وبالتالي توريط الجامعة بقانونية هذا الإنجاز الذي برأي دودج غير ممكن وغير مقبول.

ثم فاجأني بجملته القاسية التي أردّدها عليه مازحًا في كل مرة نلتقي فيها: «لو باستطاعتي الآن أن أقطع عنقك لفعلت». وقبل أن يستطرد دودج قاطعته بتقديم استقالتي على ورقة متواضعة استحصلت عليها من خادم المطعم، وقلت له: «كنتُ أمام خيارين: إما أن أنتظر وأنتظر كثيرًا مسار الروتين الإداري من أجل لملمة الطلّاب والأساتذة أو أسير بموجب إنسانيتي كمربّي وكمدير وإن كانت صلاحياتي غير محدّدة بأية اتفاقية مكتوبة أو توجيه شفهي. لذلك ارتأيت أن آخذ هذا القرار التاريخي من دون توبيخ ضمير أو ارتجاج في الوجدان والأهم أن قراري هذا هدّأ موجة عارمة من ثورة الطلاب الذين كانوا يُحرمون من التدريس. وإذا شاءت الجامعة أن تدينني فهذه استقالتي بين يديك».

هدأت أعصاب دايفيد دودج بعض الشيء وساهم في تهدئته أيضًا تدخّل العميدين إيلي سالم ورجا خوري اللذين شعرتُ بأنهما كانا يتفهمان موجبات الخطوة التي قمت بها، ويؤيّدانها بخلاف تصلّب وتحجّر كنعان كانو وصمت سمير تابت. ثم سألني دايفيد دودج: «ماذا سيكون موقف بشير إذا قبلت استقالتك وأغلقنا فرع الهندسة المستحدث؟» فأجبته: «لا أدري». فاستطرد قائلًا: «أنا أدري وهذا ما أخشاه».

مزّق دايفيد دودج ورقة استقالتي، موضحًا أن الوقت غير ملائم وليس من بديل لي في الوقت الراهن. ثم طلب مني أن أحدّد له موعدًا مع بشير الجميّل ليساعد في كسر قرار فتح فرع الهندسة وتهدئة الطلاب الحزبيين الذين سيهبّون بشكل عنيف إذا ما كسر القرار. إتصلت فورًا ببشير وأخذنا موعدًا بعد يومين في منزله في الأشرفية. فأبكر دايفيد دودج بالمجيء صباح يوم الموعد وبرفقته سمير تابت وكنعان كانو وأنا. وكانت مناسبة ولادة يمنى ابنة بشير وقدّمت لنا أطباق «المغلي».

فاتح دودج بشير بأن عملية استحداث فرع الهندسة في الشرقية بالشكل العفوي الذي حصل لن يكون مثمرًا من حيث المستوى، إذ إن الفرع غير مجهّز لاحتضان كلّية حسّاسة تتطلّب سنوات عديدة من التحضير والتجهيز لتصبح ملائمة.

ثم أعطى دودج الحديث لسمير تابت الذي سعى أيضًا لإقناع بشير بعدم نضوج مشروع الهندسة في الشرقية بعد؛ ثم تكلّم كنعان كانو وأدلى بحديث مستفيض عن المستوى وعن المجازفة الخطيرة التي قام بها فريحه.

كان بشير يدوّن على ورقة الملاحظات، ثم أخذ الكلام مجيبًا دودج وتابت وكانوا معًا بأن المستوى التعليمي في الغربية وخاصة في كلّية الهندسة لا يُحسد عليه وأعطى أمثلة عديدة عن أساتذة أهينوا من طلابهم وهُدّدوا ليعطوا علامات غير مستحقّة، وعن أساتذة خُطفوا، ومنهم الدكتور سامي كلنك، وكيف تدخّل شخصيًا لإنقاذهم من الهلاك. وطمأن الحاضرين إلى أن الفرع سيكون مستواه أرفع من رديفه في الغربية لأن مناخه سيبقى أكاديميًا وأستاذه حرًا ومختبراته الموضوعة في تصرفه من قبل جامعات الشرقية صالحة جدًا. تحدّث مجددًا دودج فذكّر بشير بأنه أصبح مؤخّرًا يبشّر بتوحيد البلد وإعادة الأمور إلى ما كانت عليه قبل الحرب. فوافقه بشير وقال له إنها حسرة في قلبه أن يرى لبنان ثانية موحّدًا كما كان عليه. وإذّاك سيكون وضع الجامعة الأميركية مختلفًا فيترأسها مثلًا جورج فريحه بدلًا من دايفيد دودج.

قالها بشير بمزيج من المزاح والجدّ. وجم وجه دودج ثم ابتسم بتكلّف، وقال لبشير: «أرجو إبقاء فرع كلّية الهندسة لجورج فريحه وإبقاء رئاسة الجامعة لي». وهكذا فقد ثبت فرع الهندسة في الشرقية؛ ولم يخطئ بشير الجميّل برهانه. فبأقل من سنة أصبح مستواه أرفع من مستوى رديفه في الغربية، إذ اجتذب أساتذة من المستوى الرفيع جدًا، معظمهم من خريجي أكبر الجامعات الأميركية والأوروبية كهارفارد وبرنستون ومساتشوستس ولندن، ويال والسوربون. ووصل عدد الطلّاب في فرع الجامعة إلى ١٦٠٠ طالب و١٠٩ أساتذة و٧٦ موظفًا إداريًا.

فروع الجامعة اللبنانية:

أما أوضاع الجامعة اللبنانية فكانت صعبة جدًا وبخاصة ابتداء من مطلع السبعينات لوقوعها تحت سيطرة اليساريين. ومما زادها تردّيًا تساهل رئيسها آنذاك الدكتور إدمون نعيم وتماديه غير المبرّر الذي بلغ حدود التواطؤ مع الطلاب المتطرّفين بالإذعان المطلق والمستمر لمطالبهم، مهما تكن مخالفة للقانون

وحتى المنطق. فكانت النتيجة اهتراء وتردٍ لأوضاعها الأكاديميّة والتربويّة والإداريّة وللحياة الطلّابية فيها.

ولا يجهلنّ أحد أن وضع الجامعة اللبنانية يختلف اختلافًا جوهريًا عن وضع الجامعة الأميركية لأسباب عديدة، منها أن اللبنانية تتأثّر مباشرة بالدولة وبوزارة التربية على الأخص، وأنْ تكن محصّنة مبدئيًا، باستقلالها الذاتي إداريًا وتنظيميًا. فتعيين العمداء، والترقيات، وما إليها من الشؤون الإدارية خاضعة كلّها لموافقة وزارة التربية ومجلس الوزراء. وهذا ما يطبعها حتمًا بالطابع السياسي وتجاذباته المعروفة التي يتضاءل بنتيجتها مستواها العلمي والأكاديمي، ويجعلها، إلى حدّ ما، مكبّلة الأيدي ومسيّرة أكثر منها مخيّرة في خياراتها.

بدأ الصراع فيها بين اليسار واليمين في أواخر الستينات وأوائل السبعينات. وفي معظم الأوقات كان اليساريون يفوزون بأكثرية المقاعد التمثيلية للطلّاب. وأدّت علاقات اليساريين الوطيدة برئيس الجامعة إلى شلّ الحركة وعرقلة النشاط الطلّابي في مختلف الكليات، إلّا في كل ما كان يصبّ في خانة التيارات السياسية اليسارية والمناصرة للكفاح الفلسطيني. وتخطّى ضرر هذا الشلّل والعرقلة إطار الجامعة اللبنانية إلى معاهد عامة وخاصة عديدة. فإذا أضربت الجامعة اللبنانية سعى القائمون بالإضراب إلى جرّ المعاهد الأخرى للسير في ركابهم، وغالبًا ما نجحوا في مسعاهم باعتبارهم يمثّلون الجامعة الأم، والأكبر، والحاملة اسم لبنان. فلا عجب إذا اقتدت بها فورًا الجامعة العربية، ثم الأميركية، فالمعاهد على اختلاف ألوانها ونزعاتها. ولم يسلم من هذه الحلقة الهدّامة سوى الجامعة اليسوعية، ومعهد الحكمة والمعاهد الواقعة جغرافيًا في المنطقة الشرقية.

كان لهذا الوضع الشاذ تأثيره العميق، ليس في الحياة التربوية فحسب، بل في مختلف المناخات الاجتماعية والسياسية في البلد. ولم يغفل بعض السياسيين عن استغلال هذا الواقع، فكان كمال جنبلاط، مثلًا، إذا أراد أن يشلّ الحركة العامة، يوعز إلى طلاب اللبنانية بالإضراب والتظاهر، فتغلق المتاجر، وتقفر الأسواق، وتقفل المدينة، ويعمّ الجمود المنذر بالانفجار. وزاد الطين بلّة أن طلّاب الأحزاب اليمنية في الجامعة اللبنانية كانوا منقسمين. فالكتلة الوطنية في وادٍ، والأحرار في وادٍ آخر، والكتائب في وادٍ ثالث. ولا ننسى أن الأكثرية هي دائمًا صامتة ومشلولة، لأنها غير منظّمة.

تنادى بعض العمداء في الجامعة اللبنانية واتّصلوا بي طالبين الاجتماع ببشير ليدرسوا الوضع معه، ويتّفقوا على مخرج ينقذ الجامعة من دوّامة الفوضى والضياع. فهيّأت لهم هذا اللقاء الذي ضم سعيد البستاني، وإيلي طراد، وجاك نصر، رحمهم الله، وبشير العريضي. وبدأت تدريجيًا رابطة الطلاب اللبنانيين في الجامعة الأميركية تميل إليّ وتكرّر اجتماع بعض أركانها في منزلي وكان منهم روجيه ديب، وألفرد ماضي عن الكتائب، مارون حلو عن الأحرار، جورج بحر عن الكتلة الوطنية وغيرهم. في هذه الفترة، برز تحوّل كمال الصليبي فجأة إلى المعسكر الثاني أي إلى الفلسطينيين واليساريين، وأصبح بين ليلة وضحاها حليفهم والمدافع عن قضاياهم.

تعدّت نشاطاتنا التربوية إطار الجامعة الأميركية إلى جامعات وكليات أخرى كما تعدّدت اللقاءات على مستوى عمداء ورؤساء الجامعات برئاسة بشير. وقد نظّمت له تباعًا ندوات ولقاءات أهمها حصل في منزلي في ٢٤ كانون الثاني ١٩٧٤ بحضور رؤساء الجامعة الأميركية بالوكالة، سمير ثابت، كلّية بيروت الجامعيةBUC ، رياض نصار، والجامعة اللبنانية ممثّلة بالعمداء زاهية قدّورة، وجاك نصر، وبشير العريضي، وقيصر نصر، وسعيد البستاني وقبلان كيروز ومن الرسميين الشيخ بيار الجميّل، وجوزيف شادر، وإدمون رزق، ولويس أبو شرف. وفي كل اجتماع كان بشير محوره، وأخذ تدريجيًا يستأثر بمشاعر الحاضرين ويتطوّر في استيعاب الشؤون التربوية في لبنان ويصبح المرجعية لحلّ المشاكل.

بعد تثبيت فرع الجامعة الأميركية، قصد بشير الدكتور أسعد رزق، وزير التربية، ليبحث معه مسألة استحداث فروع للجامعة اللبنانية في المناطق الشرقية. لم يتّفق الوزير رزق مع بشير مشدّدًا على توحيد العلوم الجامعية وعدم تقسيم الجامعات. كان الاجتماع صاخبًا إلى حدّ حمل بشير على أن يشكو الوزير رزق عند الرئيس الياس سركيس الذي دعاه لزيارته في القصر الجمهوري للبحث في الموضوع، فاصطحبني بشير معه. وبعد فترة وجيزة على بدء الاجتماع، حذّر الرئيس سركيس بشير من القيام بعمل شائن ضد الوزير رزق من خطف أو ما شابه، كما حصل سابقًا مع طوني سعد مدير عام كازينو لبنان عندما لم يلبّي هذا الأخير طلب المساعدة المادية للمقاومة اللبنانية.

ثم طلب الرئيس سركيس من بشير أن يتحاشى الاتصال بالوزير رزق بموضوع استحداث فروع للجامعة اللبنانية، بل يتعدّاه للعمل مباشرة مع رئيس الجامعة اللبنانية آنذاك الدكتور بطرس ديب الذي تولى رئاستها من سنة ١٩٧٦ حتى سنة ١٩٨٠. وقال لبشير: «نتفق مع رئيس الجامعة وأنا أتولّى إصدار المراسيم لإنشاء الفروع».

وفي منتصف شهر شباط سنة ١٩٧٧ دعا بشير الدكتور ديب إلى الغداء في منزله في الأشرفية ودعاني معه للبحث بالموضوع. كانت جلسة هادئة استفاض فيها الدكتور ديب بما عنده من معلومات عن الحقل التربوي من أيام حمورابي حتى يومنا هذا، مستأثرًا بالكلام خلال الغداء من دون أن يأكل أو يشرب. وبعدما أنهى الدكتور ديب حديثه الطويل، توجّه بشير إليه وسأله بشكل هجومي: «هل ستقبل باستحداث فروع للجامعة اللبنانية أم لا؟» فما كان من الدكتور ديب إلا أن تنهّد تنهيدة طويلة ثم قال: «إسمع يا بشير، أنا رجل شبه مريض بداء المفاصل Arthrites، لا أحتمل صحيًا دخول صندوق سيارة أو ما شابه. هذا يضنيني، لذلك أرجو أن تعرض عليّ ما تشاء بخصوص تفريع الجامعة وأنا على استعداد لتوقيعه فورًا. للتو، أعطيناه المرسوم الذي سبق أن حضّرناه مع الزملاء المعنيين الأخصائيين، فوقّعه. وبهذا أخذ مشروع تأسيس الفروع في الجامعة اللبنانية شرعيته القانونية، بعدما كانت الظروف الأمنية والسياسية قد فرضت البدء في خضم الأحداث.

يمكن اعتبار هذا الاجتماع محطة تاريخية بالغة الأهمية في مسار بشير السياسي، فقد تولّى رئاسته في جو من الرصانة التامة، وأدار مناقشاته بما فُطر عليه من الحزم والجرأة والصراحة. ففي هذه الفترة، وكما أسلفنا سابقًا، كان بشير بدأ يستفيد من أخطائه الطفيفة والبريئة، على مستوى الأداء والتواصل، ويتطوّر بسرعة مذهلة ويبلغ حدًا متقدّمًا من الاحتراف الذي أضفى على جاذبيته الفطرية سحره القيادي الذي جعل منه تلك الأسطورة.

الفصل السادس:

المقاومة الاجتماعية:
الهيئات الشعبية والأندية

راحت الحرب تستفحل وتتفاقم، فتجرف بويلاتها كل معالم الحضارة. وبقدر ما ضعفت سلطة الدولة وتقلّصت، كانت مؤسّساتها وخدماتها تصاب بالشلل ثم تنهار. واضطر المواطن اللبناني إلى دفع ثمن هذا الاهتراء من حياته وهنائه وراحته مع غياب الخدمات العامة من التنظيم البلدي والصحي والاجتماعي على اختلاف أصعده. تراكمت النفايات في زوايا الشوارع والأزقة. تفجّرت المجارير وتدفقّت أوساخًا تنشر الأوبئة. تقطّعت أنابيب المياه وأسلاك التلفون والكهرباء. أحدثت القذائف حفرًا في الطرق، وفجوات في الأبنية، ودمارًا في كلّ مكان، فأصبحت الحياة اليومية محفوفة بالمصاعب والخطر. وامتلأت النفوس قلقًا واضطرابًا. فتنادى بعض شبان الأشرفية العليا وتجمّعوا، ثم اقتدى بهم شبّان الأشرفية الوسطى، وقرّروا تنظيم وحدات منهم لمعالجة هذه المشكلات الحياتية المستجدّة، فألفوا لجانًا، ضم معظمها طلّابًا، تصدّت كل واحدة منها لمشكلة حياتية يعاني منها أبناء الأشرفية، وباشروا العمل بالسرعة المرجوّة والنشاط المنشود. وكانت لجانهم العاملة آنذاك: لجنة الصحة، لجنة البلديات، لجنة المال، ولجنة الشؤون الاجتماعيّة. وكان لكل لجنة رئيس يتولّى مسؤوليته دوريًا مرةً في الشهر.

حجزوا، على يد الكتائب، بعض شاحنات البلدية، واستعملوها لجمع النفايات، وتجنّد لهذا العمل حوالي أربعين شابًا تجاوز نشاطهم الأشرفية، فبلغ الرميل والمدّور والصيفي. وجاءت النتائج أفضل بكثير من العمل الذي كانت عشرات الشاحنات ومئات العمال والموظفين من صناديق الدولة. وحصلت المجموعات المتطوعة على مبيدات أخذت ترشّها في الأماكن القذرة وتطهّرها من الجراثيم والحشرات والقوارض. وأطلق العاملون في هذا الحقل الإنساني على أنفسهم اسم «الهيئة الشعبية»، وأوجدت الهيئة في كل حيّ فرعًا أشركت فيه أبناءه في العمل على مختلف الصعد، واتخذت اللجنة الأم مركزًا لها في تياترو الأليزيه.

تحقّق بذلك حلم موريس الجميّل الذي باشر منذ الستينات التبشير بمثل هذا العمل الشعبي، وسمّاه «البرلمانات الشعبية» وسجّل تفاصيل تكوين جهازه ونواحي نشاطه في كتيّب أصدره لما كان وزيرًا للتصميم سنة ١٩٧٠ تحت عنوان «نواة التنظيمات للشعب اللبناني لتطبيق مبدأ المشاركة-برلمان الشعب». ويتجسّد حلم موريس الجميّل هذا بتنظيم الشعب في مجموعات، أو جمعيات، أو أندية، تصبّ كلّها في برلمان، أو هيئة، أو مجلس، مهمّته المشاركة في تحمّل مسؤولية الشؤون العامة، حتى لو كانت من اختصاص الدولة. وكان، رحمه الله، يريد إشراك كلّ مواطن في عمل ما يخدم المجموعة، على أن تكون هذه الخدمة في إطار الاختصاص والكفاءة، وعلى مستوى من التنظيم الدقيق الفعّال.

كان الشيخ موريس يعتقد أن لكل مواطن حقًّا في النقد والمحاسبة. ولا يمكن أن يكون لنقده ومحاسبته قيمة واقعية، إلا إذا كان قريبًا من الأحداث واشترك في مسارها. وهذا ما جعله يفكر بصهر المجموعات في مجلس أو برلمان يحاسب المسؤولين إذا أخفقوا في توسيع نطاق المشتركين في العمل أو في تنفيذ الأعمال التي يفرضها التطوّر الحضاري.

«فالهيئة الشعبية» إذن، كانت، في جوهرها، تحقيقًا لحلم الشيخ موريس انطلاقًا من الأشرفية. وقد جاء هذا التحقيق عفويًا، تلقائيًا ووليد الحاجة الملحّة إليه.

إتّسع نشاط «الهيئة الشعبية» في الأشرفية، وكان نجاحه موازيًا لما يتلقّاه من حزب الكتائب من الدعم والمساعدة. وكان جان ناضر في البدء يراقب هذا النمو باهتمام مرموق، ولم يكن بشير أقلّ منه حرصًا على الوصول إلى نتائج إيجابية، وقد طَلَبَ إليّ أن أرعى الهيئة وأعمل على انتشارها في سائر مناطق بيروت. وبسحر ساحر، انتقلت عدوى نشوء الهيئات إلى الرميل، ثم الصيفي، ثم المدور، فوُضع لها نظام عام، وألحقت بها لجان تخصّص إضافية، وارتفع عددها من ٤ إلى ٧، بعدما استُحدثت ثلاث لجان للاهتمام بقضايا التربية، والإعلام، والتصميم.

ومع وضع تنظيم لها، رُسم مخطّط نظري واسع وفضفاض، وألحقت الهيئات بمؤسسة «دار العمل» التي أنشئت في الوقت نفسه. وطُلب إليّ أن أكون منسّقًا

عامًا للهيئات الشعبية. ومن أهم إنجازاتها: إستحداث سوق للخضار، وإطلاق فكرة أكياس النفايات وتنفيذها، وكان ذلك بالغ الأهمية ولم يسبق له مثيل في لبنان، وإنشاء مستوصفات، وإجراء إحصاء شامل لبيروت الشرقية استعانت به بعض الوزارات منها وزارة الشؤون الاجتماعية لتوزيع حصص من المواد الغذائية على المحتاجين والمهجّرين، ونشر دليل للهاتف يشمل الشخصيات، والوظائف، والمطاعم، والصيدليات، وغيرها من المؤسّسات التي لا غنى للمواطنين عنها، وإيجاد الملاجئ والإسعاف الأولي، والدفاع المدني في أثناء القصف، ووضع اليد على التعاونيات.

وفي مدة ستة أشهر، انتقلت عدوى الهيئات من بيروت إلى الجبل، فبدأت بالمتن، وانتقلت منه إلى بعبدا، فكسروان، فالشمال. وفي العام ١٩٧٦، أصبح عددها ١٤١ هيئة شعبية يديرها متطوّعون لا يقل عددهم عن ١٤٠٠٠ عضو. ولا يمكن تعداد ما أنجزته هذه الهيئات. أما اهتمامها الجدير بالذكر فيختص بضمان المدارس، وإنشاء الإذاعات، وبناء الجسور، ومنع الكسارات، وجمع المواد الغذائية وبيعها بأسعار مخفّضة، وإيجاد تعاونيات ومحلّات «سوبر ماركت»، وتأليف محاكم ميدانية، وغير ذلك من الشؤون الاجتماعية الرامية إلى إشاعة النظام والهدوء، وتوفير الأشياء الضرورية لسدّ الحاجات الحيوية. وكانت كلّها مرتبطة بجهاز تنسيق عام يضمّ أمانة سرّ، ومسؤولًا عن كل لجنة اختصاص مرادفة للجان العاملة في الهيئات المحلية. وقد أوردت تفاصيل أعمال الهيئات الشعبية في كتاب «شعب وهيئة» الصادر سنة ١٩٩٣.

حلّ «الهيئات الشعبية»... موقّتًا

بعد انتخاب الياس سركيس رئيسًا للجمهورية، طلب الشيخ بيار إليّ حلّ الهيئات الشعبية كلّها للإفساح في المجال للسلطة الشرعية، والتمهيد لعودتها إلى ميدان العمل العام، وتحريك أجهزتها، من بلديات، وقائمقاميات، ومحافظات، ودوائر، ومصالح تعمل كلّها لخدمة الشعب.

وافقت على حلّ الهيئات الشعبية مؤمنًا بأن هذا التدبير يدعم الدولة، ويشجّعها على القيام بدورها الطبيعي. وكم كان أسفي شديدًا، وخيبتي عظيمة

المرارة لما تقاعست الدولة، أو عجزت لأسباب معروفة، عن تأدية عملها وإدارة أجهزتها في إطاراتها المحدّدة، فبقيت مشلولة، وراحت تزداد تعثّرًا، خصوصًا لأن البلديات أصيبت بنوع من الهرم جعلها عاجزة عن القيام بالعمل المفروض عليها، إذ توفّي معظم أعضائها وشاخ بعضهم الآخر. في هذه الفترة، وُلِدَت فكرة إنشاء «الهيئة المشاركة» التي أردناها إطارًا شاملًا يحتوي كل المؤسسات والفعاليات العاملة في الحقل الاجتماعي والحياتي. فإذا بها تضم الهيئات الشعبية السابقة، وهيئة حماية المستهلك التي تولّى الدكتور فكتور غريب الإشراف عليها، وحركة الأنصار، ولجنة أصدقاء الكتائب، ولكن هذه الهيئة لم تُعمِّر لأنها لم تنشط كما يجب، بل تلاشت تدريجيًا ومن تلقاء نفسها.

بقيت الهيئات منحلّة أو مجمّدة حتى استدرك الحزب غياب الدولة مجدّدًا وانهيار المؤسسات العامة، فطلب إليّ في العام ١٩٧٩ إنشاء الهيئات الشعبية من جديد وإلحاقها به، بموجب مذكّرة أصدرها الأمين العام لحزب الكتائب، وهذا نصّها:

وما كدت أعود من لندن في حزيران ١٩٨٠ حتى بادرني بشير معربًا عن رغبته في إعطاء دفع للهيئات الشعبية وتنشيطها وتحريكها، لأنها تؤلّف، بحسب رأيه، عمق المقاومة الاجتماعية.

سجّلت هذه الهيئات خطوات تقدّمية مرموقة، وسارت في عملها على تنظيم جديد شارك الحزب في وضعه ممثلًا بجوزيف معرّاوي وميشال تحومي، مع أركان المكتب المركزي ممثلًا بالمنسق العام ونائبه لورانس شدياق وساسين كرم، وطوني مفرّج، ونديم شويري. ولحظ النظام الجديد وجوب إيجاد مكاتب إقليمية تقوم على ترتيب هرمي شبيه بترتيب المكتب المركزي، وفيه مناصب مرادفة لمناصب هذا المكتب هي: الرئاسة، نيابة الرئاسة، أمانة السر، أمانة الصندوق، فضلًا عن رئاسات لجان الاختصاص التي أصبح عددها إحدى عشرة هي: الصحة، التربية، الإعلام، الشؤون الحياتية، الأشغال والبلديات، المال، البيئة، التصميم، الدفاع المدني، المفتشية، والرياضة والشباب.

نشطت هذه الهيئات بزخم وعطاء كبيرَين أتاحا للمجتمع أن ينعم بطمأنينة قلّ نظيرها في فترة الحرب اللبنانية، وفي الوقت نفسه، أعطت بشير بُعدًا إضافيًا ميّزه عن سائر القادة السياسيين. إذ عندما جاءت اللجنة المختصّة في الشؤون الاجتماعية التابعة للمركز الدولي للإنماء في جامعة ماريلاند الأميركية برئاسة البروفسور لويس سنايدر من قسم الإنماء، تبحث عن أسباب نجاح بشير السريع في بلوغ رئاسة الجمهورية، توصّلت إلى خلاصة مفادها أن العوامل الثلاثة الأساسية التي مكّنته من ذلك هي: شخصيته الفذّة وقوته العسكرية، وتأليفه مجتمعًا نموذجيًا من خلال أداء الهيئات الشعبية[٢]. وكان بشير شديد الاهتمام بهذه الهيئات، يدعمها ماليًا ومعنويًا وعسكريًا، ويعتبرها مولودته وابنته المدلّلة. وحرص على أن يكون وفيًا لها، بعدما ساهمت في بداية انطلاقته السياسية في العام ١٩٧٦، من خلال تنظيم اجتماعات له مع عائلات المنطقة، وندوات كبيرة في الكنائس والقاعات، ألقى فيها محاضرات، وخاض فيها مناظرات، فأبدع وحلّق واجتذب الشعب بسحر لا يقاوَم.

وكانت الهيئات تهيّئ له أيضًا لقاءات مع المؤسسات والفعاليات والأندية لاستعراض مشكلاتها أمامه، فكان يبادر شخصيًا، إلى حل بعضها، ويحيل بعضها الآخر إلى أصحاب الاختصاص.

ضم «الهيئات الشعبية» إلى القوات اللبنانية

كانت الهيئات إذًا، بالنسبة إلى بشير، بمثابة منبر يطلّ منه على الشعب، فضلًا عن كونها وسيلته للاختلاط بالناس، والتفاعل معهم، ناهيك عن أنها كانت تضمّ خيرة أبناء هذا المجتمع، ومعظمهم من غير الحزبيين. وهذا ما أشار نظامها إليه بوضوح تام، مؤكّدًا أن هؤلاء اللاحزبيين هم أشدّ الناس إخلاصًا لبشير الجميّل، يحملون رسالته مؤمنين بقضيته وقيادته، وينادون باسمه فخورين معتزّين.

---

٢. مجلة «الشرق الأوسط» (Middle East Journal) في العدد ٣٨، رقم ١، سنة ١٩٨٤، من الصفحة ١ الى الصفحة ٣٣. ونُشرت أيضًا في المجلة الأميركية «التايم ماغازين» في الوقت نفسه و جاء فيها: «... اكتسبت «الهيئات الشعبية» أهمية على الصعيد الوطني، وشهرة على الصعيد الدولي، إذ أصبحت محط إعجاب الوفود الأجنبية التي زارت لبنان وتقديرها، وذلك لما تحمله هذه المؤسسة من رقي على صعيد العلاقة بين المواطن والمسؤول».

ولكـن هـذه العلاقـة الوثيقـة لم تحلْ دون حصـول سـوء تفاهـم بينـه وبـين الحزبيين كاد ينقلـب نفـورًا متبـادلًا، أو بيننـا وبينـه، عندمـا أراد أن يضـمّ الهيئـات الشـعبية إلى القـوات اللبنانيـة في أواخـر العـام ١٩٨١ وأوائـل ١٩٨٢، ولكنـه لم يفلـح.

فقـد فاجـأني بشـير يومًـا، جريًـا عـلى عادتـه، وقـال لي بلهجـة فيهـا مزيـج بـين المـزاح والجِـد: «لـن أدعـك بعـد اليـوم فاتحًـا عـلى حسـابك... ولا بـد مـن إلحاقـك مباشـرة بي وبالقـوات!» مـا أعـرت هـذه الملاحظـة، بـل هـذا التهديـد، اهتمامًـا كبـيرًا، ظنًّـا منـي أنهـا دعابـة عابـرة. إلا أن أمـين عـام حـزب الكتائـب اسـتدعاني بعـد يومـين إلى مكتبـه، وقـال لي إنـه اتفـق مـع بشـير عـلى أن تُلحَـقْ «الهيئـات الشـعبية» بالقـوات اللبنانيـة.

ناقشـته في هـذا الموضـوع رافضًـا الضـم. وكانـت حجتـي أن للهيئـات نظامًـا عامًـا ينـصّ صراحـة عـلى ارتباطهـا بالحـزب، وبأنهـا تنشـأ حيثـما يوجـد قسـم كتائبـي، وتبقـى عـلى اتصـال أفقـي بالأقسـام والأمانـة العامـة، فـلا يمكـن اسـتبدال ارتباطهـا بهـذه الطريقـة الهرميّـة قبـل اسـتحداث هرميّـة مماثلـة فيهـا وتعديـل نظامهـا. وبمـا أن القوات اللبنانيـة لا تقـوم عـلى هرميّـة تشـبه تكويـن الحـزب، ولمـا كانـت الهيئـات قـد انطلقـت، واقعًـا وعـددًا، حيـث توجـد أقسـام كتائبيـة، فيُسـتحسـن إبقاؤهـا كـما هـي. وإلّا، فـلا بـد مـن إزالـة الهيئـات الفرعيـة والإقليميـة المحليـة، وإبقـاء المركزيـة فقـط، وهـذه وحدهـا يمكـن ربطهـا بقيـادة القـوات اللبنانيـة. ولا سـبيل، أو لا ضرورة، لاسـتبدال الحـزب بالقـوات، لأن المؤسّسـتين توأمـان. وبشـير فاعـل فيهـما عـلى حـد سـواء.

إقتنـع الأمـين العـام بوجهـة نظـري، وبشـير بالحجـج التـي قدّمتهـا، إذ قـال لـه: «يبـدو أن جـورج فريحـه كتائبـي أكـثر منـك». لكـن ذلـك لم يمنعـه مـن أن يقـول لي بشـير في أول لقـاء بيننـا بقولـه إننـي مخطـئ، وأنـه مصّر عـلى ربـط الهيئـات بالقـوات، وإلا اضطـر إلى إنشـاء مؤسسـة جديـدة لا غايـة لهـا غـير الاهتـمام بهـذا الأمـر.

الكتائـب اللبنانيـة
حـزب ديمقراطي اجتماعي لبنانـي
الامانـة العامـة

في خدمـة لبنان

مذكرة رقم ١٦ / ٨٠
تاريخ ١٩٨٠/٩/٢٥

من الاميـن العـام
الـى
الاجهـزة الحزبيـة كافـة،

تحيـة كتائبيـة،

بالنظـر الى الاوضـاع الراهنـة، ونسـبة لخدمـات الهيئـات الشـعبية التي قدمتهـا في الماضـي.

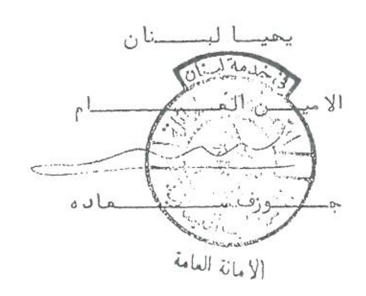
وحيث انه من الضـرورة بمكـان، ان تعـود هـذه الهيئـات الى ممارسـة نشـاطاتها لما في ذلك من خدمـة للمواطنيـن ومصالحهـم.

بنـاء عليـه،

فاننـا نطلـب منكـم ان تعيـدوا احيـاء الهيئـات الشـعبية وفقـا للاسـس المنصـوص عنهـا في القـرار رقـم ٣٦٤٥ تاريـخ ١٩٧٧/٨/٨ المرفـق ربطـا.

ومن اجـل هـذه الغايـة فقـد انتدبنـا الدكتـور جـورج فريحـه للاشراف على هـذه الهيئـات والتنسـيق فيما بينهـا وبيـن الاجهـزة الحزبيـة، وبالتالـي فاننـا نطلـب منكـم ان تتعاونـوا معـه بكـل جديـة واخـلاص وان تزودوه بالمعلومـات التي سـيطلبها منكـم.

يحيـا لبـنان



الاميـن العـام
جـوزف سـعاده
الأمانة العامة

الكتائب اللبنانية

حزب ديمقراطي اجتماعي لبناني

الامانة العامة



مذكرة رقم ١٠/ ٨٠

تاريخ ٢٤/٩/٨٠

من الامين العام

الى

الدكتور جورج فريحه ،

تحية كتائبية ،

- بناء على المادة ٢٥ من النظام العام
- وبناء على القرار رقم ٣٦٤٥ تاريخ ١٩٧٧/٨/٨ المنشأ بموجبه نظام الهيئات الشعبية وسيما المادة ٩ منه .

فاننا قررنا انتدابكم للاشراف على الهيئات الشعبية والتنسيق فيما بينها وبين الاجهزة الحزبية، على ان تقدموا لنا تقريرا عن اعمالكم كل خمسة عشر يوما على الاقل .

يحيا لبنان

الامين العام

جوزف سعاده

الأمانة العامة

الكتائب اللبنانية

حزب ديمقراطي اجتماعي لبناني

الامانة العامة

في خدمة لبنان

الامانة المركزية

بيروت في ٢٩ / ١٢ / ١٩٨٠

من الامين العام

الى

الدكتور جورج فريحه ،

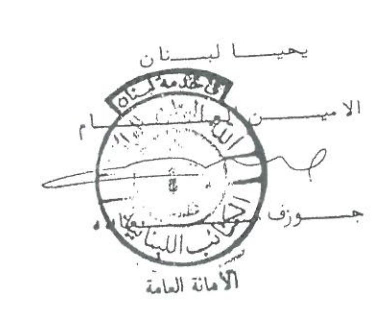
تحية كتائبية ،

نتابع باهتمام نشاطاتكم المستمرة ضمن الهيئات الشعبية في مختلف المناطق اللبنانية المحررة .

فاننا اذ ننوه بجهودكم المبذولة وسعيكم المتواصل لخدمة لبنان ، نتمنى عليكم المثابرة في عملكم هذا ، ونطلب اليكم ابلاغ تحياتنا وتقديرنا لجميع العاملين معكم في حقل الهيئات الشعبية .

يحيا لبنان

الامين العام



جوزف سعاده

الأمانة العامة



الى حضرة المنسق العام
للهيئات الشعبية - الكتائب اللبنانية
الدكتور جورج فريحه

مع تقديرنا المستمر
ومحبتنا المتزايدة
واخلاصنا دون حدود.

رئيس واعضاء مكتب بيروت

عايده غلمية

١٩٩٢/٧/١٢

إلى جانب الهيئات الشعبية ولجنة أصدقاء الكتائب في الأشرفية، أولَى بشير اهتمامًا كبيرًا بالأندية والرياضة، معتبرًا أنها أساسية في تنمية الديناميكية وروح الالتزام والعمل الجماعي عند الشباب. وقد كان هو بنفسه رياضيًا ممتازًا مارس الرياضة اليومية في المون لاسال حتى بعد انتخابه رئيسا للجمهورية، وكان رئيسًا فخريًا لنادي أبناء نبتون ورئيسًا فخريًا لنادي الراسينغ وصديقًا حميمًا لنادي برمانا الرياضي.

وعندما اندلعت الحرب، وتعرّضت الحياة الاجتماعية في لبنان لضربة كبيرة نتيجة الأوضاع الأمنية والقصف والعبوات الناسفة، قرّرنا تفعيل نادي عريق هو «أبناء نبتون» الذي تأسّس سنة ١٩٢٩، والذي أترأسه منذ سنة ١٩٧٧.

ولتأسيسه قصة طريفة: كان لبنان تحت الانتداب الفرنسي وكانت تزور مرفأه قطع بحرية في شكل دائم. ذات يوم أتت فرقاطة فرنسية على متنها بحّارون يلعبون لعبة كرة الماء، فطلبوا إلى المسؤولين في المرفأ أن يؤمّن لهم فريق يلعب هذه اللعبة. فاتصل القيّمون على المرفأ ببعض شباب محلة المدّور، وكانوا سبّاحين قديرين يمتهنون السباحة يوميًا مما جعلهم بلياقة جسدية قوية، منهم: لويس باز، إدمون ملكي، إيلي خليفة، عبد الرؤوف قباني، وفيق العجوز، تشيكافي، عبد الحليم اللبان، أنطوان خضرا، محمود أرناؤوط . فلعب الفرنسيون ضد اللبنانيين بعد أن علمّوهم بسرعة أصول اللعبة، فما كان من اللبنانيين إلا أن تغلّبوا عليهم بسبب تفوّقهم البدني. وصل هذا الخبر إلى اتحاد كرة الماء في باريس، وبعد فترة دُعي اللاعبون اللبنانيون للذهاب إلى باريس لمباراة ضد نادي «أبناء نبتون في باريس» «ENP» تيمّنا بنبتون إله البحر، وكانوا أبطال فرنسا. ذهب اللبنانيون مكرّمين وفازوا على الفرنسيين. فما كان من القيّمين على النادي في فرنسا إلا أن سمّوا الفريق اللبناني بنادي أبناء نبتون في بيروت «ENB» وطلبوا إلى السلطات الفرنسية أن تُقدّم لهم مسبحًا قرب فندق السان جورج سمّي «الحمّام الفرنسي» وعُيّن لويس باز مديرًا له.

هذا النادي أنشأ فيما بعد أول قاعة مقفلة في لبنان وسمّاها «قاعة بشير الجميل». وقد تبرّعت القوات اللبنانية وعلى رأسها فادي افرام وأنطوان بريدي بتغطية مصاريف إنشاء القاعة التي صمّمت لتضم كافة الألعاب الرياضية.

إضافة إلى تنشيط هذا النادي، وبغية تعويض الفراغ الذي سبّبه جمود نشاط مديرية الشباب والرياضة واللجنة الأولمبية اللتين كانتا فعّالتين قبل اندلاع الحرب، اضطررنا بشير وأنا إلى أن نحيي « تجمّع الأندية الرياضية» سنة ١٩٧٩ برئاستي وفيما تولّى أمانة السر فكتور حداد رحمه الله. هذا التجمّع أشرف على كافة الألعاب الرياضية ووضع نظامًا وأدار الرياضة بأفعل وأنجح طريقة على رغم معوقات الأوضاع السياسية والعسكرية. وخصّص بشير فرقة عسكرية من القوات اللبنانية تحت إشرافي للمساعدة في تنفيذ مقرّراته وتنظيم المباريات والدورات وحتى البطولات في كافة الميادين الرياضية. وقد استمر هذا التجمّع ناشطًا إلى أن انتهت الحرب وعاد البلد إلى طبيعته ونشطت مديرية الشباب والرياضة واللجنة الأولمبية وسائر الاتحادات الرياضية.

مشروع «غاما»

كان بشير يغيّر معاونيه كطفل يملّ دميته فيستبدلها، لا لشيء غير العبث والتسلية. وكان أيضًا يصدّق بسهولة ما يقال، ولا يستغرب شيئًا، فلا يكاد حالم بإنشاء مؤسّسة ما يهمس في أذنه كلمات قليلة حتى يتحمّس ويجيز مباشرة العمل بلا قيد أو شرط، كأنّ المؤسسة التي سمع بها هي بدعة البدع وأعجوبة العصر.

وأذكر من المؤسسات التي استأثرت باهتمامه، ونالت منه الكثير من الدعم المادي والمعنوي، مؤسسة «غاما». وقد أوعز إلى ريمون (موني) عرب بإنشائها وإدارتها. وذات يوم، استدعاني إلى مكتبه بحضور موني وطلب إليّ، بوصفي منسّقًا عامًا «للهيئات الشعبية»، أن أساعده على إنشاء غاما، مؤكّدًا لي أنها ستقوم بدور كبير وفعّال في الدرس والتخطيط لا غير، لتسهيل مسيرة الشؤون العامة. ولفت نظري إلى إمكان استعانة «غاما» «بالهيئات الشعبية» لتنفيذ الدراسات المتعلّقة بالتأهّب الضروري لمواجهة «الساعة صفر». وكانت «الساعة صفر» تعني بدء الاجتياح الإسرائيلي.

فعقدتُ اجتماعات عدة مع موني عرب، وأحيانًا بحضور شارل غسطين نيابةً عن قائد القوات اللبنانية. وأطلعنا عرب على نظام «مجموعة غاما» فإذا به يختلف من الناحيتين الشكلية والنظرية، عن نظام الهيئات، إلا إنه يماثله من الوجهة العملية على الأرض. وأكثر من ذلك، كان هذا النظام نظام حكم أو حكومة ظلّ للقوات اللبنانية. ووضعنا بنيجة هذه الاجتماعات بروتوكولًا مكتوبًا عن أعمال التعاون والتنسيق، حظي برضى بشير وموافقته وحتى بركته.

غير أن التنسيق بين الطرفَين لم يحصل على الوجه المناسب بين «غاما» «والهيئات الشعبية»، فراحت الأعمال تتقارب حينًا وتتضارب أحيانًا، مما أدّى إلى تضارب بين الإنجازات ونشاط العاملين في الجانبين. وكان بشير يدعم «غاما» علنًا، وهذا ما قاله لي صراحةً وأكثر من مرة، عندما كان يقع خلاف أو نزاع بين الجانبَين. وقد وصل به الأمر إلى حد أنه قطع المساعدات المالية عن «الهيئات» وأسبغها على «غاما»، فقفزت موازنتها إلى ملايين الليرات. لم يحبط ذلك «الهيئات الشعبية» التي تابعت مسيرتها بتؤدة وإصرار ومثابرة، فضاعفت نشاطها، وعزّزت إعلامها بتوسيع نطاقه وزيادة إمكاناته، ووضعت إذاعتا «صوت لبنان» و«لبنان الحر» برامج كاملة في تصرفها إلى جانب مجلة شهرية واسعة الانتشار، حملت اسم «الشعبية».

في هذا الوقت، أدرك حزب الكتائب أهمية «الهيئات الشعبية»، وباشر بتوفير دعم حزبي حازم لها لا مثيل له، وبذل كل جهد ممكن لإبقائها، وتعزيز نشاطها، وتوسيع دائرة عملها.

حلّت «الساعة صفر»، وبوشر التنفيذ على الأرض. فإذا به يبدو مشلولًا كليًا من جانب «غاما» حتى في أسهل الأمور، كتوفير الفُرش والمواد الغذائية للمهجرين...

تكرّرت الاتصالات «بغاما»، فأبت أن تتحرّك وأن تلبّي لنا ولو طلبًا واحدًا على مدى ثلاثة أيام، حتى اضطررت إلى التدخّل شخصيًا موبّخًا ومؤنّبًا، واستنكرت تقصير المسؤولين في المؤسسة عن القيام بواجبهم، وكلّت لهم أشدّ اللوم والتقريع.

وبعد ربع ساعة اتصل بي بشير تلفونيًا، وخاطبني بلهجة جافّة لا تخلو من نبرة غيظ. سألني: هل «شتمت «غاما»؟ أجبت: «نعم شتمتها، لأنها امتنعت عن

القيام بواجبها طوال ثلاثة أيام». فتضاعف غيظه حتى انفجر وقال: «أنا «غاما». فليكن هذا معلومًا لديك». قلت: «تشرّفنا وأخذنا علمًا بذلك».

إنقطعت الاتصالات بيننا على مدى أسابيع لم نتلقّ خلالها قرشًا واحدًا يساعدنا على متابعة أعمالنا. فما اكترثنا بتلك النزوة، وثابرنا على بذل النشاط المطلوب لتظلّ الأمور في مجراها الطبيعي، فكان النجاح حليفنا عملًا بالقول المأثور: من جدّ وجد، ومن أراد فعل.

بعد شهر تقريبًا، كان بشير في الأشرفية، وقد جاء يقوم بزيارته التقليدية يوم الثلاثاء. إلتقى ساسين كرم، أمين صندوق «الهيئات الشعبية»، فبادره قائلًا: «كيف الهيئات الشعبية يا ساسين؟ شايفها بعدها ماشية أحسن من الأول، مع أني قطعت عنها المال».

أجابه ساسين: «لعيونك، يا باش... ما بحياتنا تأثّرنا بالمال. عم نشتغل متطوعين للقضية، ولنجاحك أنت معها».

فابتسم بشير وقال له: «سلّم لي على فريحه وقُلْ له: ما بيلبق الشغل إلا لكم. كلّفتني «غاما» ملايين الليرات بلا فائدة فيما أنتم كنت أساعدكم بالفتات، بالقليل مما يتيسّر. تابعتم العمل حتى بعد قطع المدد عنكم. أعطيتم الكثير. حقًا، لا يليق العمل إلا بكم!»

وفي اليوم التالي اتّصل بشير بي وقال: «أريد أن أخصّص يومًا في الأسبوع للاجتماع بكم والعودة إلى دعمكم من جديد». وهذا ما جرى حتى آخر أيامه. وفي آخر اجتماع له مع أركان الهيئات الشعبية، بعد انتخابه رئيسًا للجمهورية، قال بشير لهم: «المنسّق العام للهيئات الشعبية الدكتور جورج فريحه أصبح منسّقًا عامًا لرئاسة الجمهورية وأصبح Chief of Staff». وفي ١٤ أيلول ١٩٨٢، وهو يوم استشهاده: «سأنهي حفلات الوداع مع «الهيئات الشعبية»، ثم ألتقيكم يوم الخميس، ١٦ أيلول في الهوليدي بيتش للوداع».

وما بقي بشير ليطل عليه نور النهار التالي!

غادرنا تاركًا ألوف العاملين في «الهيئات الشعبية» يتحرّقون أسىً، وكلّهم توق إلى وداعه.

أهي مشيئة الله، أم صدمة أرادها القدر؟

مهما نَغُصْ في التفكير والتحليل والاستنتاج نبقَ مقصّرين عن إدراك إرادة الحياة فينا. ومرارة الحياة أنها تقف على عتبة الموت.

لقد راح! فهل بقينا نحن؟

بقاؤنا متوقّف على قيمتنا الإنسانية، على ما فينا من جوهر الوعي والرشاد والحصافة والإرادة الخيّرة.

ولا إرادة خيّرة بدون أصالة. ولا أصالة بلا جذور حضارية.

فلنعد إلى هذه الجذور لنشقّ طريقنا إلى ما نصبو إليه من مصير أمثل.

وهذا ما نستطيعه إذا أبينا أن نهوي إلى الفناء والعدم اللذين انتهت إليهما الشعوب المنقرضة.

الفصل السابع:

تنظيم مالية المقاومة

سـارت الأمـور الماليـة في منطقـة الأشرفيـة «بالتـي هـي أحسـن» وفـق مـا ذكرنـا سـابقًا خـلال السـنة الأولى مـن الحـرب. فقـد كنـا مأخوذيـن بتسـارع الأحـداث وتطـورات جبهـات القتـال ومحاولـة تأمـين مـا يمكننـا الحصـول عليـه لسـدّ الحاجـات المتزايـدة للسـلاح والحاجـات اللوجسـتية. وبعدمـا اعتمدنـا عـلى التبرّعـات التلقائيـة مـن المؤمنـين بقضيتنـا، وصلنـا إلى مرحلـة اضطررنـا فيـه لإجـراءات أكـثر فاعليـة، أولًا لأننـا اسـتنزفنا مناصرينـا، وثانيًـا لأن ثمـن الأسـلحة النوعيـة التـي كان بإمكانهـا تقويـة قدراتنـا العسـكرية باهظـة جـدًا.

في تمـام السـاعة ٢٠:٤٥ مـن ١١ آذار سـنة ١٩٧٦، وعـلى أثـر حركـة عزيـز الأحـدب الانقلابيـة التلفزيونيـة، قُطعـت المعابـر بـين المنطقتـين، الشرقيـة والغربيـة، ومـا عـاد يُسـمح باجتيازهـا إلا للشـاحنات والسـيارات التـي تحصـل عـلى ترخيـص مـن الطرفَـين. وكان المعـبر الوحيـد هـو معـبر المتحـف، فَفُرضـت رسـوم عـلى المركّبـات التـي كانـت تجتـازه. وأخـذت الأمـوال تتدفّـق عـلى صنـدوق بيـت الكتائـب في الأشرفيـة، فيتسـلّمها المرحـوم جـان نـاضر، رئيـس المنطقـة، ويضعهـا في كلّ مـكان، وكيفمـا تيـسّر لـه الأمـر بصـورة فوضويـة عشـوائية.

وبقـدر مـا كـبرت المبالـغ، ازداد جـان ارتباطًا في المحافظـة عليهـا. إشـترى صندوقًـا حديديًـا ضخـمًا وضـع فيـه الـواردات الكثيرة، لكنّـه لم يشـأ أن ينظّـم محاسـبة واضحـة يُضبـط فيهـا الداخـل والخـارج. وراح ينفـق ألـوف الليـرات بالسـهولة نفسـها التـي كان يتسـلّمها بهـا، ويـوزّع عـلى المقاتلـين الأسـلحة والذخائـر بـلا حسـاب، ويجـود عـلى المعوزيـن بـلا حسـاب أيضًـا، حتـى سـادت الفـوضى. وافتقرنـا في حينـه إلى الحـد الأدنى مـن التنظيـم الـذي لا تسـتقيم الأعـمال إلا بـه.

مالية منطقة الأشرفية

بقيت الحال على هذا المنوال أشهرًا، حتى طُلب في آخر السنة، إلى أمين الصندوق المرحوم ساسين كرم أن يقدّم تقريره المالي إلى لجنة المنطقة. فقدّم تقريرًا مشوّشًا، لا دقة فيه ولا وضوح، استحقّ أن نصفه بأنه «ورقة اللحّام». ثم تبيّن أن صندوق المنطقة في عجز، فاستولت علينا الدهشة حيال ميزانية عرجاء مغلوطة، مرتجلة، وغير محترفة لفقدان الوثائق والمستندات. إذ كنا نعلم جميعًا أن «السجّادات الزرقاء»، أي أوراق المئة ليرة، كانت تصل إلى مقر المنطقة بكميّات كبيرة، فكيف يكون الصندوق في عجز؟

طلبت شرحًا يوضح هذا الأمر، فأحسست أن جان ناضر، ومعه بشير، يعمدان إلى الغمغمة والتهرّب واللف والدوران، ثم أرجئ البحث إلى جلسة تالية. وبعد أسبوع بقي جدول الأعمال خاليًا من هذا الموضوع، فتضاعفت دهشتي، واستغربت هذا الإهمال، حتى أنني خشيت أن يكون مقصودًا. ولمّا تطرّقت إلى هذا الموضوع في آخر الجلسة، طلب جان ناضر إرجاء البحث إلى جلسة أخرى، وأيّد بشير هذا الطلب بلا تردّد. ولمّا أعدّت الكرة بعد أسبوع آخر، جاء الجواب تأجيلًا ثالثًا، فرابعًا، حتى مضى شهران وأسبوعان، فلم أجد إذّاك بدًّا من تقديم استقالتي من لجنة المنطقة.

إستاء بشير منّي، وصارحني على حدة قائلًا إنه مضطر إلى إبعاد موضوع المال عن الدرس كي لا يضع الحزب يده على مواردنا، ووعدني بإطلاعي على ميزانيّة واضحة ودقيقة. ولكنّي أصررت على أن نتّبع طريقة علميّة أكثر ضبطًا وانضباطًا، يُعرف فيها الدخل والنفقات، فلا نبقى على ما نحن عليه من الاضطراب والفوضى. واتفقنا على تأليف لجنة مالية قوامها: جان ناضر، ساسين كرم، رفيق ضومط، الدكتور كميل قبع، مدير وزارة الإسكان آنذاك، وأنا.

ولمّا عقدنا اجتماعنا الأول، فَقَدَ جان ناضر صوابه عندما علم أن الأموال يجب أن تودع في مصرف، وأن سحبها لا يمكن أن يتمّ إلا بتوقيع إثنين من المسؤولين عنها، وأن محاسبة يومية دقيقة يجب أن تُجرى، فرفض هذا النظام في شكل قاطع. ونشبت بين بشير وبينه مناقشة حادّة أدّت إلى أزمة عصبيّة انتابت جان، وحملتنا على المبادرة إلى تهدئة الحال وإزالة التوتّر. وبالنتيجة فاز جان بعناده، وبقيت

مالية المنطقة فوضويّة، وسريّة، وعديمة الوضوح، يتصرّف بها هو وحده، فما لبثت اللجنة التي اجتهدنا في تكوينها أن اضمحلت وزالت من الوجود.

قرّرنا بعد فترة ابتكار طريقة لجمع المال أسهل من التبرّع، وأطول نفسًا وأبعد مدى. وبعد التفكير الطويل، والتداول، والتحليل، والأخذ والردّ، عزمنا على القيام بعمليّة جمع المال من المؤسسات المصنّفة في بيروت الشرقية. وقد ابتدعنا نحن هذا «التصنيف»، فوضعنا لوائح بالمؤسسات التي يجب برأينا أن تدفع دوريًا تبرّعات للحزب، أي لصندوق الأشرفية، ومنها: الصيدليات، السوبر ماركت، محطّات الوقود، المصارف، المقاهي، دور السينما، المطاعم وما شابهها.

ثم انتدبنا لهذه المهمة إثنين من شباب القوى النظامية، ممشوقَي القامة، أنيقَي المظهر هما جورج برنس، رئيس القوى النظامية آنذاك، وجوزيف كفوري. وسلّمناهما دفاتر إيصالات، ودعوناهما إلى التقدّم من المؤسسات بكلّ ما هو مطلوب من التهذيب وحسن التصرّف، كأَنْ يؤدّيا التحيّة العسكرية قبل طلب المساعدة من دون تحديد المبلغ.

إنطلقا للعمل في صباح ربيعي صافي الجوّ، وأقمنا ننتظرهما في بيت الأشرفية، بشير، وجان ناضر، وساسين كرم وأنا. فأخذا يتّصلان بنا مبشّرَين بالخير كلّما حصلا على «رزمة حرزانة». وفي غضون نصف ساعة، أبلغانا تلفونيًا أن ما جمعاه بلغ خمسة وثلاثين ألف ليرة، وأن كل شيء يجري على ما يرام. وبعد نصف ساعة آخر، اتصلا بنا من جديد ليقولا لنا كلامًا مبهمًا أشبه بالأحاجي والألغاز، ما استطاع أن يحلّ رموزه إلاّ بشير، فصاح بنا: «الهريبة يا شباب! واصل الشيخ بيار!...»

سألته: «لِمَ الهرب، يا بشير؟» فأجاب، وهو يعدو مسرعًا: «هلّق هربوا، بعدين بخبّركم...» فهربنا تلقائيًا إلى خارج البيت، ولجأنا إلى غرفة في منزل قريب مطلّ على الطريق. وما هي برهة حتى وصل الشيخ بيار وترجّل من سيارته قبل أن تتوقف عجلاتها عن الدوران كليًا، ودخل بيت المنطقة وهو ينادي بصوت مرتفع: «وين جان؟ وين بشير، وين الشباب؟ شو ما في حدا؟ وين راحوا؟ كيف بيتركوا البيت فاضي».

وبعد انتظار قصير من دون جدوى، غادر الشيخ بيار بيت المنطقة، ثم وصل جورج برنس وجوزيف كفوري، وعلمنا منهما أنهما دخلا أحد المصارف قرب مستشفى الروم والتمسا المساعدة من المدير، وهو كتائبي لا يعرفانه، فوعدهما خيراً، ولكنه اتّصل هاتفيًا بالبيت المركزي، وتحدّث مع طانيوس سابا وأخبره بما جرى، فردّ الأخير مستهجنًا إقدام الميليشيات على جمع التبرّعات من دون إذن الحزب، وطلب إلى المدير أن يمرّر سماعة الهاتف إلى الشابين ليكلّمهما ويطلب منهما التوقّف عما يقومان به. ولمّا عرف أنهما من الأشرفية، نقل الخبر إلى الشيخ بيار، فكان ما كان. وبعد هذه الحادثة توقفت عملية جمع المال من المؤسّسات.

مالية القوات اللبنانية

ما حصل في الأشرفية بشأن المال حصل أيضًا في القوات اللبنانية. لم يكن بشير إداريًا، إذ كان متفوّقًا ببثّ النشاط في النفوس وحمل الناس على العمل، ولكن من غير تنظيم. فهو نفسه لم يكن منظّمًا ولا منتظمًا، إنْ في طبعه أو في تصرفه. وكان مترفّعًا عن المال أبيًا، يرفض الغوص في المشكلات المادية، ويريد أن يقتدي به أعزّ الناس عليه، وأقربهم إليه. وعندما تسلّمت القوات اللبنانية في العام ١٩٧٧ مرفأ جونية، رفض أن أتعاطى في شؤون هذا المرفأ، أو أن أتدخّل في إدارته كي لا «تطلع ريحتك بنزين»، على حد قوله، وأسند مسألة الاهتمام بإفراغ حمولات بواخر الوقود في جونية إلى نسيب آخر.

وقد أدّى ترفعّه هذا إلى كارثة حقيقية في إدارة ماليته، ولا ريب أنه كان قادرًا على تفادي هذا الخلل، لكنه لم يفعل. ولو أنه اهتم، ولو قليلًا، بهذا الشطر الحيوي والحسّاس في مسيرته التاريخية لتوافر دخل المقاومة وفاض عن حاجتها.

ما حدث للأسف هو نقيض ذلك. تفرّقت المسؤوليات وتشرذمت الصلاحيّات، فصارت هناك أربعة صناديق، أو خمسة، أو ستة، ولكلّ واحد منها مسؤول. وما برهن واحد من هؤلاء المسؤولين عن كفاءة تُشكر في الشؤون المالية، أو عن خبرة في ضبط المحاسبة والحرص على المصلحة العامة، أو عن رغبة في ضمان

المستقبل بالتخطيط له، والتطلّع المخلص إلى أبعاده. كانت الأعمال المتعلّقة بالأموال فوضويّة، فقد تدفّق الخير، وامتلأت الصناديق، فكثر الإنفاق حتى بلغ أقصى حدود التبذير من دون مراقبة أو محاسبة، ومن غير أن يكون هناك ضبط علمي أو رادع وجداني، أو عاقل يهتدي بالحكمة والرشاد.

نبّهت بشير إلى هذه الأخطاء، وإلى نتائجها الوخيمة العواقب، فاقتنع بعد مدة وعمد إلى تأليف لجنة مكلّفة بأن تضع نظامًا مدروسًا لما يجب أن تكون عليه مالية القوات اللبنانية، بحسب الأصول العلميّة.

تألّفت هذه اللجنة من نبيل أبي اللمع، وجو حاتم، وطوني سعد، وجميل إسكندر، ولورنس شدياق، وجان عساف، وألبير فريحه، وكميل قبع، وتوليت أنا رئاسة الاجتماعات. فوضعنا نظامًا متقنًا على أثبت الأصول وأفضلها، يلحظ مختلف الأعمال المالية في القوات، ويخطط لسياسة فعّالة في جمع الأموال وضبطها وتقنين صرفها في السبل المؤدّية إلى أفضل النتائج وأوفرها فائدة للقضية التي نناضل من أجلها.

الكازينوهات والفليبرز

على رغم كلّ الإجراءات والموارد والتبرعات والرسوم المستوفاة من المعابر من وإلى المنطقة الشرقية، كان حاجة بشير إلى المال تزداد باطّراد لمتابعة مقاومته وزيادة إمكاناتها. فقد كانت تطلعاته البعيدة المدى ترمي إلى بناء هيكلية عسكرية وأخرى مدنية، تكونان متناسقتين وقادرتين على أن تحلّا محل هيكليات الدولة. ورسخ في يقينه أن المقاومة لن تكون ثابتة، وصامدة، وطويلة النفس ما لم تقم على جسم منظّم، وهيكليات بشرية لها صلاحيات وأدوار معيّنة. وهذا كلّه يتطلّب نفقات وفيرة، فمن أين المال اللازم لهذه النفقات؟

التبرعات تُبذل مرةً، أو مرتين، أو ثلاثًا ثم تشحّ تدريجيًا، ولا يلبث المتبرّع أن يستثقل العبء الذي يلقيه عليه صاحب الحاجة، فكيف السبيل إلى تفادي النفور وفقدان التجاوب بين الجانبين؟

طُرحت أفكار عديدة، ووُضعت مشاريع مختلفة الأبعاد والمرامي لبلوغ هدف تمويل حركة المقاومة، إلا أنها كانت كلّها عديمة الجدوى، أو محدودة النتائج. فكما أسلفنا فُرضت مثلًا رسوم على المركبات العابرة لخطوط التماس. وبعدما كانت الواردات إلى بيت منطقة الأشرفية ألوفًا تسد الحاجات الأولية، أخذنا نشعر بالحاجة إلى ضرورة تكوين اعتمادات مالية ضخمة من أجل الشروع في الانطلاقة التنظيمية التي كان يحلم بها بشير.

إذًا، لا بد من مورد آخر كبير، وثابت، ومضمون.

بعد حيرة مريرة، وارتباك مرهق، انبثقت الفكرة الذهنية المنشودة من ذهن زاهي البستاني. كان زاهي أحد المسؤولين البارزين في المديرية العامة للأمن العام ويساعد بشير بمعلومات قيّمة وقام في لحظات حرجة بتسهيل استلام أسلحة الأمن العام في شارع عبد الوهاب، بعدما سدّت السبل أمامنا للحصول على بنادق وغيرها من الأسلحة الخفيفة.

كان هذا الشاب متحمّسًا لبشير، شديد الغيرة عليه، متوثّب الذهن لاستنباط كل ما يؤدّي إلى إنجاحه. وكان، فضلًا عن ذلك، حاد الذكاء، ذا فكرٍ خلّاق ومبدع. رأيته للمرة الأولى لمّا أرسله بشير لإبداء رأيه في إيجاد مورد وفير وثابت من كازينو لبنان، بعد أن جرى تعيين مدير جديد له هو أنطوان سعد من الأشرفية، وكان من المستعدّين للتعاون مع بشير، ولمساعدته ماليًا. فتمّ الاتفاق على أن يقتطع مبلغ من واردات هذا الكازينو قدره ٣٠٠ ألف ليرة شهريًا، في مقابل خدمات معينة منها الحماية، والمراقبة، وتسهيل العمل على يد شباب من القوات اللبنانية.

أخفقت هذه العملية، لأن الدولة رفضت الموافقة عليها. وكان نصيب أنطوان سعد على أثر هذا التقاعس جولة في صندوق السيارة، أشرنا إليها في معرض الحديث مع الدكتور بطرس ديب عن إنشاء فروع للجامعة اللبنانية في المنطقة الشرقية. وعلمنا فيما بعد أن المبلغ الشهري قد تأمّن لبشير.

وهنا طُرح سؤال آخر: إذا كان تفاهمنا مع «الكازينو الشرعي» غير ثابت، فلمَ لا نُنشئ كازينو غير شرعي أو كازينوهات؟

جاء هذا السؤال بمثابة فكرة مطروحة للدرس، ومرشّحة للتنفيذ. وكان بشير، كلّما اجتاز مرحلة من البحث تُقرّبه من الاقتناع بوجهة نظر فكرة معيّنة، استدعى أصدقاءه، وأنا منهم، وتداول معهم في الأمر على سبيل الاستئناس بآرائهم، فضلًا عن رغبته في إراحة ضميره وإشراك الذين يثق بهم في المسؤولية. وكان بعضنا متشدّدًا، حتى ذلك الحين في رفض هذا المشروع، يطالب بنبذه، لأن كلّ عمل غير شرعي يتخذ طابع «المافيا». وعزّز القائلون بهذا الرأي وجهة نظرهم بقولهم إن المقاومة اللبنانية بدأت شريفة، وهكذا يجب أن تبقى. ورجّحت هذه الكفة، فطُوِتْ صفحة فتح الكازينوهات، ولكن إلى حين.

فقد راحت الحرب تتّسع وتشتدّ، والتهمت كلّ ما كان متوفرًا أو مدّخرًا من المال، وازدادت نفقاتنا. وألحّت علينا الحاجة مطالبةً بإيجاد مخرج لهذا المأزق في أقرب وقت ممكن.

وفي ليلة هادئة نسبيًا، لا يعكّرها أصوات الكثير من سقوط القنابل وتوالي الانفجارات، استدعاني بشير وقال لي بلهجة المغلوب على أمره، والتائق إلى التخلّص من الكابوس: «قرّرت أن أفتح «كرخانة» لأحصل على المال، وأردّ على هذه النيران المنهمرة علينا بنيران مثلها أو أشدّ. إننا لا نملك إلا القليل القليل من الأسلحة والذخائر، ولا نستطيع أن نردّ إلا بقذيفة واحدة على عشرين تنشر في مناطقنا الموت والدمار. نريد مالًا. لا بد من المال. إننا في موقف حرج. علينا أن نختار بين الحياة والموت، بين الصمود والانهيار. فافتحوا كازينوهات، دكاكين فليبرز، إفعلوا ما تشاءون لنثبت في مقاومتنا، لنردّ إلى خصومنا الصاع صاعين، والكيل أكثر من كيلين...»

وتحت الضغط المتزايد، والقصف الشرس الذي لا يرحم، اقتنعنا بقول بشير. أذعنّا بمنطق الأمر الواقع. سلّمنا بضرورة الدفاع عن النفس والكرامة مهما يكن الثمن، ففُتحت الكازينوهات، وكان الأول منها في الأشرفية، وكرّت حبات السبحة، فتدفقت علينا الأموال، وتوافرت لدينا الذخائر والمعدّات الحربية، وبدأت الثكنات تعجّ بالمقاتلين من متطوعين ومعوزين يحتاجون إلى رواتب يعالجون بها شؤون الحياة ومتطلّباتها.

كما وفّرت لنا الأموال إمكانية استحداث العديد من الأجهزة الإعلامية وتعزيزها، ومن إنشاء مكاتب تمثيلية لنا في عواصم الدول الكبرى، من أجل القيام بدعاية مضادة لتلك التي سبق للفلسطينيين والقوى اليسارية أن شنّوها علينا أمام الرأي العام العالمي وحتى في دول أوروبا الغربية المعتبرة في حينه أنها المدافعة عن الفكر الحر والديمقراطية. ولا بد في هذا الإطار من الإشارة إلى أن هذه الجهود قد أثمرت، إذ تمكّنا مع مرور الوقت والعمل الهادف من أن نغيّر نظرة العالم الغربي إلينا وأن نوضّح الحقائق المشوّهة عما كان يجري على أرض لبنان من محاولات لسيطرة الغرباء عليه.

الفصل الثامن:

في خضم القتال والاقتتال

أقبل صيف ١٩٧٦ ونحن في بكفيا. وذات يوم، وفيما كنا جالسين على سطحية منزل الشيخ موريس الجميّل. إذا ببشير يدخل كالعاصفة الهوجاء، ينتفض غضبًا، ويرسل المسبّات والشتائم من كلّ نوع، وكلّ شكل ولون وعيار.

بشير!... ما بك؟ ما القصة؟

فجاء جوابه كلمات أشدّ وقعًا من القذائف، وأسرع تلاحقًا من رشق الرشاش ومفادها أن أباه الشيخ بيار سمح للسوريين بأن يدخلوا مناطقنا، كما دخلوا المناطق الأخرى.

أقدم الشيخ بيار على هذه «البادرة» بعد زيارة قام بها محمد الخولي مع بعض الضباط السوريين، في الصباح الباكر من ذلك اليوم إلى بكفيا. وبعد جلسة استغرقت ساعات، اقتنع الشيخ بيار بضرورة دخول السوريين إلى مناطقنا فوافق عليها، بل رضي بأن تنتشر القوات السورية في بكفيا قبل أن تذهب إلى البسطة. وما أراد بذلك إلا التعبير عن ارتياحه إلى قدوم أخوة أحباء ومنقذين أبرار!...

فجّر هذا القرار في نفس بشير إعصارًا من الغضب، فجنّ جنونه، وراح يخاطب أباه بلغة الرجاء والاقتناع والتوسّل، ولكن من دون جدوى.

خرج من منزله هائجًا، ساخطًا، مضعضع الصواب وتوجّه إلى بيروت حيث حاول اجتذاب بعض أركان الحزب إلى وجهة نظره، ولكن من غير جدوى أيضًا. فصعد إلى بكفيا وهو يُرغي ويزبد.

أقنعته، بأن يذهب معي إلى نزهة في خارج البلدة. وتوجّهنا بسيارة والدته إلى كسروان. عرّجنا على منزل آل الخويري وعزّينا بالشاب إيلي خويري، شقيق سامي وجوسلين خويري. وعلى الطريق، حاولنا إقناع بشير بأنّ قرار إدخال السوريين هو قرار عاقل. وكنّا مقتنعين آنذاك كلّ الاقتناع، خصوصًا بعد خطبة حافظ الأسد الشهيرة عن لبنان واللبنانيين، أنّ السوري أصبح صديقنا الصدوق، بل الحميم، لا

يريد غير حمايتنا وخيرنا وإنقاذنا من الأزمة الخطيرة التي نتخبّط فيها. ولكن بشير أبى أن يقتنع. وما كان كلامنا إلا يزيده إصرارًا على التأكيد أن السوري لن يكون أبدًا صديقنا، وأنه يدخل بلدنا متوسّلًا الحيلة، ليحتلّ أرضنا احتلالًا يتّسم بلون الشرعية، فلا يستطيع أحد إخراجه من عندنا فيما بعد. وردّد قوله مرات عديدة: «سيأتي يوم نترحّم على الفلسطيني والجنبلاطي والشيوعي!...»

عدنا إلى بكفيا، ونمنا «طبًّا على وجهنا»، كما يقال، ينتابنا القلق وتعصف بنا الهواجس، من غير أن يتمكن بعضنا من إقناع البعض الآخر.

الجيش السوري يتمركز في برج رزق

مرّت الأيام، وأخذ الجيش السوري يتمركز في مختلف المناطق المحرّرة، حتى دخل الأشرفية، وانتشر جنوده في الساحات العامة. وكان يومًا مشهودًا آخر، لمّا سمح الشيخ بيار بأن يحتلّ السوريون برج رزق وهو أعلى برج في بيروت آنذاك. وهذه المرة أيضًا كاد بشير يخرج من ثيابه، وانتابه غضب شديد كاد يقضي على ما تبقّى فيه من صبر وصواب. وعبثًا حاول إقناع أبيه بأن تمركز السوريين في هذا البرج سيكلّفنا غاليًا في الأيام الآتية. وأعاد عليه مرارًا عبارته المعروفة: «أرجوك ألا تدع أحدًا يصعد إلى برج رزق، حتى لو كان حليفًا لنا كالأحرار، لأن من يأخذ هذا البرج، لا يشعر بالارتفاع والتفوّق فحسب، بل يرتفع ويتفوّق فعلًا». وللحقيقة إن برج رزق كان يُشرف، لا على الأشرفية وحدها، بل على معظم أحياء البيروتَين الشرقية والغربية. ولم يستطع بشير أن يتساهل يومًا، أو أن «يهضم» ولو ساعة واحدة وجود السوريين في مناطقنا عامةً، فكيف بالمراكز الحسّاسة الاستراتيجية التي يمكن اعتبارها بالغة التأثير في التحرّكات والمواصلات على اختلاف أنواعها، أكانت عادية عابرة، أو استثنائية حاسمة؟

وكلّما كان بشير يلتقي السوريين، كانت تهبّ فيه حساسية طاغية لا يقوى على كبتها، فيتحدّاهم أحيانًا كأنه يسعى إلى توتير الجو أو إلى التصادم. ولن أنسى حادثة بليغة التعبير عن حالته النفسية، خلاصتها أننا فيما كنّا عائدين على طريق كازينو لبنان في كسروان، أوقفنا حاجز سوري، وسأل بشير عن الآلة التي

بين يديه، وكانت جهاز تلفون، فأجاب: «هذا مسجّل موسيقي». تعجّب الجندي السوري، وأصرّ على أن يعرف الحقيقة، وأن يسمعها من فم بشير، فأعاد الأخير قوله، ولكنه تكلّم هذه المرّة باللهجة السورية: «قلتلك مسجّلة مَزّيكا أخي!» فنادى الجندي أحد زملائه: «حسين، يا حسين، في شي هون مو عاجبني، عم يضحكوا علينا...»

أسرع حسين وقال بلهجة الآمر: «هويّاتكم!» فراح بشير يتمهّل في تلبية الطلب ما طاب له التمهّل!... بحث في جيوب سترته، ثم بنطلونه، ثم في صندوق السيارة، وعاد مرة أخرى إلى سترته وبنطلونه، ثم إلى الصندوق، وهو مرتاح، غير مستعجل، بل غير مكترث، وأنا أتصبّب عرقًا!

أعطيتُ الرتيب حسين بطاقة هويّتي، فما حفل بها، بل ظلّ يحدّق ببشير والغيظ يتأجّج نارًا في عينيه، ويتجسّد غضبًا في ملامح وجهه. وبعد طول انتظار، أعطاه بشير بطاقته، فما كاد يلقي نظره عليها حتى سأله وعلى وجهه كل معالم الدهشة: «هل أنت هو؟» حرّك بشير رأسه إيجابًا، فأعاد حسين عليه السؤال: «بالله عليك، هل أنت هو؟» فهزّ بشير رأسه ثانيةً من دون أن ينبس ببنت شفة. فصاح السوري، ولكن صوته هذه المرة كان يعبّر عن مزيج من السرور والإعجاب، وقال: «يا أخ بشير، ليش ما بتحكي من الأول؟ عذرًا أخي، عذرًا... مع السلامة».

إنقطع نصف عمري في هذه الحادثة. وأصبحت عبارة «هل أنت هو؟» كلمة سر بيننا مدّة طويلة، نعني بها الرتيب السوري كلّما تحدثنا عنه من غير أن نذكر اسمه.

وفي الأشرفية وقعت حادثة أخرى مفادها أن جنديًا سوريًا طلب إلى الشيخ بشير على أحد الحواجز -وكنت معه- أن يشعل ضوء السيارة في داخلها. فاعتذر بشير قائلًا إن الضوء محروق. فدعانا الجندي إلى النزول من السيارة، فأجابه بشير: «هيك، دفعة واحدة؟» قال السوري: «لا تجادلني، إنزل». تدخّلت وقلت للجندي: «يا أفندي، هذا الشيخ بشير»، فأجابني مستغربًا قولي: «روح وَلا، خيّط بغير هالمسلّة». ولما ألححت عليه، وأدرك أني صادق في قولي راح يحدّق في وجه بشير، ثم صاح: «إيه والله! أنت الشيخ بشير وضوّك مضوّي كمان...» ومعنى هذا الكلام أن بشير كان قد فتح باب السيارة فاشتعل الضوء الذي كان زعم في أول اللقاء أنه

محروق، فرضي السوري إذ اعتبر أن طلبه قد قوبل بالتلبية.

تعكس هذه الحوادث-الطرائف العديدة التي اتصفت بها علاقات بشير بالسوريين حساسيته تجاههم التي ما برحت تشتدّ وتتفاقم مع مرور الأيام، بقدر ما كانت سيطرة القوات السورية تبسط ظلّها الضاغط على الأشرفية حتى بلغت فيما بعد درجة عالية من العنف.

تفاقم التوتر في العلاقة بين بشير والسوريين

أخذ السوريون يكثّفون وجودهم على المفارق وفي الساحات العامة، ويرسلون دورياتهم تجوب الأحياء، ويدخلون الأندية والأماكن العامة من غير استئذان، فيتصدّرون المجالس، ويتدخّلون في أمور خاصة لا تعنيهم، فضاعف هذا التصرّف الحساسية والنفور بينهم وبين بشير ومحبّيه ومؤيديه والقائلين قوله.

ذات يوم، كان يجتاز ساحة ساسين بالقرب من مطعم «التشايز»، فأوقفه الحاجز السوري المتمركز هناك، وطلب إليه الترجّل من السيارة للتفتيش. فعرّف بشير عن نفسه، ولكن السوري لم يكترث، وأصرّ على تلبية طلبه فرفض بشير الانصياع، وامتنع عن النزول من السيارة، فتأزّمت الحال، وتوتّر الجو، وانتشر الخبر بسرعة البرق حتى بلغ بيت الكتائب في المنطقة حيث وصل الخبر بأن بشير محاصر في ساحة ساسين. فهبّ الشبان بأسلحتهم وكلّهم حماسة وثورة غضب. طوّقوا المركز السوري، وتمترسوا وراء الجدران، واحتلوا سطوح الأبنية. وردّ السوريون بطلب نجدة، فجاءت قوّة كبيرة وتمركزت على المفارق من برج رزق إلى السوديكو، فباب إدريس. وبلغ التوتّر ذروته...

كنت في تلك الأثناء مع جان ناضر نزور إبراهيم نجار في منزله الواقع في أول شارع عبد الوهاب الإنكليزي. فتلقّينا مخابرة تلفونية هرعنا بعدها إلى مكان الحادث. وكان جان يرغي ويزبد، فاقتحم الصفوف المحيطة بنقطة وجود بشير، وتوجّهت أنا إلى بيت الكتائب في الأشرفية تلبية لطلب المرحوم فؤاد أبي نجم الذي كان أمين المنطقة.

كانت الطرق تعجّ بالمسلحين الهائجين، وقلوبنا جميعًا ترتعد خوفًا على بشير، بل كانت معه في نطاق الحديد والنار، ومع جان ناضر الذي ذهب إليه مختارًا، بل راغبًا. ولا ريب في أن ذلك الحصار كان أول حزام سوري مسلّح عرفته الأشرفية منذ وصول القوات السورية إليها.

تدخّل المخلصون فورًا. وأجريت اتصالات على أرفع المستويات بين الحزب والقيادة السورية، فبدأت الأحزمة الأمنية المسلّحة السورية والكتائبية تنفك الواحد بعد الآخر، حتى أتيح لنا أن نسحب بشير وناضر ونوصلهما إلى بيت المنطقة.

قطوع ومرّ بسلام، والحمد لله!

فلو أطلقت رصاصة واحدة أو «فتّيشة» لوقعت مجزرة رهيبة سقط فيها ما لا يحصى من الضحايا، فضلًا عن حياة بشير التي كانت مهدّدة بصورة مباشرة.

مأساة إهدن

في هذه الفترة من الحرب، وبعد أكثر من ثلاث سنوات من التعاون بين مختلف التنظيمات العسكرية في القتال ضد الفلسطينيين واليساريين، في إطار الجبهة اللبنانية، تكاثرت الحزازات فيما بينها. وصرنا نسمع باشتباكات ووقوع قتلى وجرحى بين الكتائب والأحرار وحراس الأرز والمردة وسواهم من المقاتلين اللبنانيين. وفي ربيع ١٩٧٨، تفاقمت الصدامات خصوصًا بين شباب الكتائب وشباب المردة. ووصلت إلى ذروتها إثر مقتل رئيس إقليم زغرتا-الزاوية الكتائبي جود البايع في شكا.

طلب بشير مرارًا تسليم القتلة، فامتنع آل فرنجية عن ذلك مما جعل بشير يثأر للبايع بإرسال فرقة في ١٣ حزيران ١٩٧٨ برئاسة سمير جعجع ومساعده نادر سكر لجلب القتلة بالقوة. مرّ الكتائبيون على عدة حواجز للسوريين، فكان مرورهم سهلًا.

ووفق ما علمت في حينه، إن بشير قرّر إرسال الفرقة إلى إهدن بعد أن وردته معلومات مفادها أن طوني فرنجية وعائلته لن يكونوا هناك، وإنما في الرابية بعد

انتهاء عطلة نهاية الأسبوع. حصلت مجابهات عسكرية قبل الوصول إلى قصر آل فرنجية في إهدن أصيب فيها سمير جعجع ونقل فورًا إلى مستشفى اوتيل ديو، لكن المجموعة الكتائبية تابعت الهجوم ودخلت القصر، مما أدّى إلى نتائج مأسوية مريعة ومقتل نحو أربعين شخصًا بينهم طوني فرنجية وزوجته وابنته.

جُنّ بشير لدى تبلّغه ما جرى خلال العملية العسكرية، واتصل مرارًا بإبنة الرئيس فرنجية لميا ليقول لها إنه لم يعطِ هكذا أوامر، لكنها لم تردّ عليه. ويمكنني أن أؤكد أن الندامة والحسرة بقيتا تكتنفانه حتى استشهاده.

الواقعة مع السوريين

صحت مخاوف بشير، في صيف ١٩٧٨، إذ انقلب «الصديق» السوري علينا بعد تحقيق السلام المصري-الإسرائيلي وقرار الرئيس السوري حافظ الأسد النفاذ إلى قلب الساحة العربية والإسلامية ومحاولة تصدّر قيادة المواجهة العربية لإسرائيل. فتقرّب مجدّدًا من الحركة الوطنية ومنظّمة التحرير الفلسطينية، وقدّم إليهم التسهيلات في لبنان لاستعادة نفوذهم السابق الذي أدخل جيشه إليه قبل عامين، بهدف ضبطه والحد منه ومساعدة الدولة اللبنانية على استعادة سيطرتها على أراضيها، وفق التبريرات التي قدّمها في حينه.

إنعكس تقاربه مع خصومنا تباعدًا معنا، إذ سرعان ما لاحظنا تضييقًا على حركة شبابنا في الأشرفية وسائر المناطق المشتركة بيننا وبين السوريين. فتكاثرت المضايقات على الحواجز وأثناء الدوريات السورية، إلى أن اندلعت المواجهات ووقع ما سمي «بحرب المئة يوم» التي شهدت قصفًا عنيفًا لم يعرف لبنان مثيلًا له حتى تلك السنة. وانهمرت القذائف من مختلف العيارات وأثقلها وقتلت ودمرت وشردت الآلاف من السكان الآمنين. وانطلقت الحرب التي انتهت بإخراج القوات السورية من المناطق الشرقية أو مما أسميناه بالمناطق المحرَّرة، بعدما دفع شبابنا الأبطال ثمنًا كبيرًا من الدم والعرق والجهد.

أظهرت المعارك العنيفة مع السوريين والخسائر التي تكبّدناها أن بشيرًا كان مصيبًا في رفضه القاطع لتمركز القوات السورية في المواقع الاستراتيجية المتحكّمة بمفاصل المواصلات في الأشرفية وسواها من أحياء المناطق الشرقية. وقد كلّفتنا الكثير من الشباب الشجعان الذين لم يرضوا بأن تبقى أرضنا محتلّة وتحت سيطرة مَن باتوا يمالقون أعداءنا ويسعون إلى اجتذابهم إليهم، ولو على حساب سيادة البلد واستقلاله واستقراره.

لست بحاجة إلى التذكير بأن الأشرفية كانت حزينة في تلك الأيام، إذ كانت تقدّم على مذبح المقاومة اللبنانية شهيدًا أو أكثر كل يوم، ولكنها كانت كذلك فخورة وعلى ثقة كبيرة بنفسها وببشير الذي صوّر لها إمكانية الانتصار وجعلها تتأكد أنها بقيادته سوف تتمكن من بلوغه. وكان بيت المنطقة أول من يتلقّى نبأ استشهاد الرفاق الموجع، ويترتّب عليه أن ينقله إلى أهل الشهيد. ولم تكن عملية النقل هذه سهلة، بل من الصعوبة بحيث يرفض القيام بها مَن في نفسه ذرّة من الشعور بالتضامن الاجتماعي. فمن يجرؤ مختارًا على نشر هكذا خبر؟ من يجرؤ على مصارحة الأهل بالكارثة؟ وكانت النكبات تتوالى كلّ يوم، ويهرب الجميع من مسؤولية إطلاع الأهل على ما حلّ بالشهيد.

المهمة الصعبة

حيال هذا الأمر، قرّر بشير أن يتولّى جورج باخوس، أمين سر منطقة الأشرفية هذه المهمة الصعبة. فتردّد جورج كثيرًا في قبول القيام بها، ولكنّه نزولًا عند إصرار بشير، أذعن في النهاية لإصرار بشير. فكان يذهب كلّ يوم إلى الأحياء والزواريب والمساكن، وخاصةً منطقة «كرم الزيتون» في الأشرفية حاملًا إليها ما يُدمي القلوب وينشر اللوعة والأسى. وقد حرص على أن يتمرّن قبل القيام بجولاته العسيرة، فإذا دخل أحد الأحياء راح يُوَلْوِل ويصفّر ويرسل النحيب والعويل، ملوّحًا بمحرمته فوق رأسه تلويح النادبات المحترفات، ثم يرقص حينًا ويندب أو يرثي حينًا آخر: «يا حرقة قلبي عليك!... يا لوعتي على الجمال والكرم! يا ضيعان الشباب... ما حدا خسرو قدّي، أنا يلّي خسرتو! أنا يلّي يتّمني! أنا يلّي ربيّتو!...»

وعلى هذا المنوال يذرف الدموع، ويرسل الآهات، ويزعق متأوهًا.

تطلّ النساء من النوافذ وقد استولى عليهن خليط من الذعر والذهول. ينتظرن النبأ. يتساءلن عن الفقيد. يتبادلن نظرات الاستفهام: من هي المنكوبة؟ من هي الأم الثكلى، أو الأخت، أو الزوجة، أو النسيبة؟

هذه تدخل بيتها وتتوارى كأن الهرب من النبأ يُبعد عنها المصيبة. وهذه تتجاهل، كأنها لا تريد أن تسمع أو أن تصدّق، ومنهنّ من يصرخن باكيات حين يتجاوزهن باخس متوغّلًا في الحيّ، ويُسمع صوت إحداهن: «نشكر الله، زمطنا!»

وفي نهاية المطاف، يقف باخوس على باب بيت الشهيد ويصيح: «وينك يا فلان تشوف أمك! وينك يا أسد لا تعود إلى عرينك!»

فتعرف الأم، ويعرف الأب، وتعرف العائلة، وتنقضّ الفاجعة انقضاض الصاعقة.

أحيانًا، كان باخوس يتظاهر بالإغماء فيرشه الحاضرون بالكولونيا وماء الزهر. وأحيانًا كان عويله يرتفع فوق عويل ذوي الشهيد، فيبادرون إلى مؤاساته.

أخطأ باخوس، ذات مرّة، ودخل حيًا لينبئ عن استشهاد بطل، فبكى، كعادته، وصرخ وولول وانتحب، ولكنه لم يجد صدىً لصياحه. ذكر اسم الشهيد على باب منزله المفترض، فما تأثّر أحد. وتقدّم إلى منزل آخر، فما أعاره أحد اهتمامًا. عندئذٍ، استعاد روعه، وهدّأ أعصابه، وتمالك نفسه، ثم قال: «أعتذر! بيت الشهيد في غير هذا الحيّ!»

مهمّة جورج باخوس كانت أكثر من صعبة، وقد سبّبت له ورمًا في عنقه. نصحه الأطباء باستئصاله، فرفض خوفًا من تعذّر العثور على من يحلّ محلّه للقيام بعمله الاستثنائي.

صحيح أن خسارة الشباب في القتال، وغير القتال، مؤلمة، غير أنها أكثر إيلامًا في معارك الاقتتال الداخلي. وبعد الجولات المشرّفة التي انتهت بإخراج القوات السوريّة من المناطق المحرّرة، تأزّمت العلاقات بين القوى المكوّنة للقوات اللبنانية، وبخاصة بين القوتين الأساسيتين: الكتائب اللبنانية ونمور الأحرار. وسرعان ما تلبّدت الأجواء بين بشير الجميّل وداني شمعون، إذ إن حزب الكتائب وحزب الوطنيين الأحرار لم يرضيا بتسليم أحدهما الزعامة للآخر، مما انعكس تدهورًا في العلاقة بينهما تحوّلت بداية إلى مناوشات خفيفة تطوّرت مع الوقع إلى اصطدامات مسلّحة أدّت إلى سقوط قتلى من الطرفين.

إنتدبني بشير مع سليم الجاهل وأنطوان نجم للاجتماع بداني شمعون وإقناعه بالتواصل مع بشير لحلّ الأزمة وكان من جهته أبو أرز (إتيان صقر) يعمل جاهدًا للغرض عينه وبخاصة لجمعهما في مركزه في بيت مري. لم يلبِّ داني شمعون دعوتنا إلى الاجتماع به مدّعيًا أن همّنا ينحصر بإيصال بشير إلى رئاسة الجمهورية، وأخذ يسمينا بالإنكليزيةPresident Makers ، أي صانعي الرئيس. وتسارعت للأسف الاصطدامات وأصبحت شبه يومية وبنتائج وخيمة مما جعل بشير يردّد علنًا أن علينا توحيد البندقية. وصباح ٨ تموز ١٩٨٠، زارني الأباتي بولس نعمان، في مقر إقامتي في الهوليداي بيتش، بوجهٍ مكفهر وحزين وكثير من الاستياء والغضب، وقال لي: «حصلت مذبحة صباح اليوم، إذ قضى بشير على حزب الوطنيين الأحرار بكامل عناصره المسلّحة، مما أنتج مئات القتلى والجرحى».

في اليوم التالي، ذهبنا سليم الجاهل وأنطوان نجم وأنا للاجتماع ببشير في المجلس الحربي والاستفسار عن عملية تصفية نمور الأحرار. بدأ كلامه معتذرًا عما حصل، لكنه كرّر أمامنا مقولته التي كان يردّدها في تلك الفترة: «يجب خلق مجنون يجمع السلاح بين الأحرار والكتائب ليوقف النزيف المتواصل بين مقاتلي الحزبين». وبينما كان مستطردًا في الحديث دخل علينا فؤاد روكز، أمين سر بشير، لينبئه بأن الرئيس كميل شمعون في طريقه إلى المجلس الحربي للاجتماع به. إستأذن منا بشير على الفور، وطلب تحضير ثلّة من عسكر القوات اللبنانية تقف على جانبي المدخل لتأدية التحية للرئيس شمعون عند دخوله المبنى. غير أن الرئيس

شـمعون اختـار أن يمـرّ خلـف الصفـين متجاهـلًا التحيـة، ودخـل مـع بشـير إلى غرفـة مغلقـة.

بعـد نصـف سـاعة، غـادر الرئيـس شـمعون كـما دخـل، أي متجنّبًـا المـرور بـين صفَي الثُلّـة العسـكرية والتحيـة العسـكرية المخصصـة لـه. أمـا بشـير الـذي كانـت الدمـوع تترقـرق في عينيـه، فقـد طلبنـا منـه إطلاعنـا عـلى تفاصيـل اللقـاء، فأجابنـا باختصـار: «إنحنيـت لتقبيـل يـد الرئيـس شـمعون، فرفـض ذلـك قائـلًا: إنتـصرت يـا... مـاذا سـتفعل بعـد؟ ومـاذا سـيحصل بـداني ودوري؟ فأجبتـه بـأن ليـس عليـه أن يقلـق عليهـما، فـداني في فقـرا يسـتعد للسـفر إلى الخـارج ودوري هـو في منزلـه في منطقـة عبريـن في الأشرفيـة تحـت الحراسـة». ثـم أضـاف بشـير بأنـه طلـب مـن الرئيـس شـمعون أن يبقيـه تحـت جناحيـه، فلـم يجبـه وغـادر. وللتاريـخ يجـب التذكـير بـأن الرئيـس شـمعون بعـد سـنتين مـن هـذه الحادثـة المأسـوية، أيّـد بشـير في انتخابـات رئاسـة الجمهوريـة وعمـل بجـد وجهـد في سـبيل ذلـك، بعـد أن رشـحّه الأبـاتي نعـمان في أحـد اجتماعـات «الجبهـة اللبنانيـة»، إثـر قيـام الشـيخ بيـار بترشـيح الرئيـس شـمعون في الاجتـماع نفسـه.

الفصل التاسع:

بشير والولايات المتحـــدة

كان من الطبيعي أن يهتم بشير والفريق المحيط به بإقامة علاقة مباشرة ومتينة مع الدولة الأميركية، زعيمة العالم الحر كما كانت تسمى في تلك الفترة. وكنا مقتنعين في حينه أنه لا بد من مثل هذه العلاقة لشرح وجهة نظرنا وهواجسنا وتأمين أفضل فهم لها في زمن الحرب الباردة الدائرة بين الجبّارين السوفياتي والأميركي، وفي ظل الدعم الهائل الذي كان يوفّره الاتحاد السوفياتي للفلسطينيين وسوريا والتنظيمات اليسارية في لبنان، وحاجتنا بالتالي إلى تأمين دعمٍ دولي موازٍ لقضيتنا.

لهذا اهتم بشير كثيراً بإنشاء مكتب تمثيلي للقوات اللبنانية في واشنطن، بإدارة ألفرد ماضي، وتأمين كلّ ما يلزم له من مقومات لكي ينجح في مهمته، وفي الوقت نفسه، حاول، ولكن من نجاحٍ كبير، إرساء علاقة مع السفارة الأميركية في لبنان.

تمكّن قائد القوات اللبنانية، في نهاية المطاف، من إرساء العلاقات التي يصبو إليها مع الإدارة الأميركية، ولكن بعد جهد جهيد. ونجح في الانتقال بنظر الأميركيين -كما في نظر الكثير من اللبنانيين- من مجرّد قائد عسكري لتنظيم مسلّح لبناني متقاتل مع سائر التنظيمات اللبنانية، إلى زعيم سياسي شديد التأثير على مجريات الأحداث السياسية والعسكرية في لبنان. غير أن ذلك لم يتحقق في ليلةٍ وضحاها بل مرّ بحقبات متعددة، تخلّلها العديد من المناورات والمساعي.

بعد التحاق بشير بمكتب الأستاذ ألبير لحام للمحاماة في بيروت لمدة سنتين (١٩٧١-١٩٧٢)، بعد تخرّجه من كلية الحقوق في الجامعة اليسوعية، سافر سنة ١٩٧٢ إلى الولايات المتحدة والتحاق بجامعة South Western Methodist في دالاس للتخصص في القانون الدولي. غير أنه لم يستسغ الجوّ الأكاديمي الصرف في هذه الجامعة، وهو الذي انغمس في السياسة منذ نشأته في كنف والده، ونشط على الصعيد الطلابي الصاخب، فقفل راجعًا إلى لبنان.

مع بدء الحرب اللبنانية، قرر كما أشرنا أعلاه تحقيق التواصل مع الإدارة الأميركية. وقد ساهمت اجتماعاته المتواصلة مع شارل مالك، وبعدها مع بوب بايزل رئيس الرابطة الأميركية اللبنانية (ALL) في تعزيز فهمه لطريقة تفكير الأميركيين وسير الأمور في دوائر القرار في واشنطن. وقد قام بشير بأربع زيارات للولايات المتحدة: الأولى من ١٨ تشرين الثاني لغاية ١٠ كانون الأول ١٩٧٧، والثانية من ٢٤ أيلول لغاية ٧ تشرين الأول ١٩٧٩، والثالثة في ربيع العام ١٩٧٨، والرابعة من ٣ تموز لغاية ١٥ آب ١٩٨١، وهي الزيارة التي فتحت أمامه جميع الطرق التي كانت مقفلة في وجهه في السابق.

جرى الإعداد جيدًا لهذه الزيارة وعلى مراحل في لبنان وفي العاصمة الأميركية، وقد ساهم في إنجاحها تضافر جهود العديدين وتلاقيها عند الفكرة القائلة بأن بشير الجميّل هو الشخصية المحورية في الحياة السياسية اللبنانية القادرة على الإيفاء بالتزاماتها وتعهداتها وعلى صوغ مشروع وطني جامع من شأنه أن يضع حدًا للأزمة اللبنانية الممتدة فصولًا وحروبًا منذ العام ١٩٧٥.

بدأت المساعي مع قيام جوني عبده بجمع بشير بالسفير الأميركي في لبنان جون غونتردين وباجتماع آخر مع السفير الأميركي الذي تلا الأخير في بيروت، روبرت ديلون، طالبًا منهما تحضير اجتماعات مع كبار المسؤولين الأميركيين ومع نائب الرئيس الأميركي جورج بوش أو مع وزير الخارجية ألكسندر هايغ، إذا أمكن. وعد السفير ديلون من جهته بمحاولة تأمين اجتماع مع هايغ ومع وليم كايسي عن CIA.

بشير والرئيس ريغان

فجأةً، تبدّل كلّ المشهد، وأخذت ثمرة الجهود تظهر في شكل مطّرد. ففي ٩ آذار ١٩٨١، استلم بشير رسالة من الرئيس رونالد ريغان موجّهة إليه بالاسم على الشكل الآتي:

To Mr. Bachir Gemayel Commandor in Chief of the Lebanese Forces

السيد بشير الجميّل – قائد القوات اللبنانية.

جُن جنون بشير لاستلامه هذه الرسالة التي بموجبها تعترف الولايات المتحدة للمرة الأولى رسميًا برئاسة بشير الجميّل لمؤسسة القوات اللبنانية التي كانت في نظرها سابقًا مجموعة مسلّحة من الميليشيات الكتائبية. طلب مني بشير على الفور جمع الدائرة الأميركية (American Desk) برئاسة الدكتور شارل مالك والأعضاء إيلي سالم، عبد الله أبو حبيب، ألفرد ماضي، فؤاد حداد للردّ على الرسالة المهمة. إجتمع الأعضاء في منزلي وعملوا لمدة ساعتين لتحضير ردّ يتضمّن جميع الأفكار التي تعبّر عن وجهة نظرنا وتشرح قضيتنا ولا تتعدى الصفحة ونصف الصفحة التي جاءت فيها رسالة الرئيس الأميركي. وبعد ساعتين من المداولات لم يقتنع الدكتور مالك ولا الحاضرون بالمسودة التي أعددناها، فقد كنا نريد أن تكون رسالتنا الجوابية على مستوى عالٍ من البلاغة لكي تترك الانطباع الذي نريده لدى الإدارة الأميركية.

فما كان مني إلا أن اقترحت على بشير استدعاء صديقًا لي هو الدكتور سيسيل حوراني العلاّمة في اللغة الانكليزية والذي خدم الرئيس الحبيب بو رقيبة كمستشار لمدة ٢٥ سنة في تونس. وكان البروفسور حوراني مقرّبًا من الدكتور مالك يساعده في بعض الأحيان على صياغة خطاباته عندما ترأس الجمعية العمومية للأمم المتحدة. وكانت تربطني بالبروفسور حوراني صداقة حميمة أسسها لنا ابن اخته الدكتور رجا خوري عميد كلّية الطب في الجامعة الأميركية آنذاك، ووالد فضلو خوري رئيس الجامعة الأميركية المنتخب حديثًا.

كان البروفسور حوراني يقطن في المنطقة الغربية قرب منطقة «البطريركية»، لكن ذلك لم يمنع بشير من تأمين انتقال آمن له، فوصل إلى منزلي في الساعة الحادية عشرة ليلًا. وعند دخوله صرخ شارل مالك قائلًا: «أهلا بمعلّمنا». أخذ حوراني ورقة وصاغ الردّ بنفس المعنى الذي تمادت في وصفه الجماعة، لكن باقتضاب أي بصفحة ونصف، مما أعجب الجميع وحمل بشير على التقرّب منه وتعيينه مستشارًا له. وقد خدمه سيسيل في علاقاته مع مصر والعراق وإسرائيل ودول أخرى. وقد نشر نص رسالة ريغان بين الصفحتين ٧٦ و٧٩ من الجزء الثاني من كتاب سيسيل حوراني وعنوانه: «An Unfinished Odyssey».

وأهم ما جاء في رسالة ريغان:

- الولايات المتحدة تدعم الاستقلال والسيادة وسلامة الأراضي والوحدة الوطنية للبنان، وهي ظلّت ولا تزال معارضة للتقسيم.

- تدعم الولايات المتحدة الحكومة الشرعية والدستورية المركزية ومؤسسات لبنان الوطنية. من المهم الحفاظ على الشرعية.

- تقرّ الولايات المتحدة بأن هناك مؤيدين لهيكلية حكومية ودستورية معترف بها.

- ليس لدى الولايات أي رؤى حول تغييرات خاصة. ويعود للّبنانيين التقرير، لكن مثل هذه التغييرات في نظرها يجب أن تتم عبر وسائل سياسية سلمية.

- قد ترحب الولايات المتحدة بحرارة بتطوير إجماعي سياسي حول شكل لبنان الجديد، يعكس رؤى جميع المجموعات العديدة اللبنانية.

- تقلق الولايات المتحدة بشدة بالنسبة إلى سلامة وأمن وخير الطوائف اللبنانية المسيحية.

- تعتبر الولايات المتحدة أن المجموعة الفلسطينية الكبيرة في لبنان تشكّل مشكلة اللبنانيين. وهي تؤمن بالتصدي للمشكلة الفلسطينية بما في ذلك البعد اللبناني، رغم سلام عربي إسرائيلي شامل.

- تُعلن الولايات المتحدة بأنه يجب أن لا يضر أي قرار شامل للمشكلة الفلسطينية بمصالح لبنان الوطنية.

- تستهجن الولايات المتحدة العنف في لبنان حيثما يجري.

- تعارض الولايات بشدة اللجوء إلى الإرهاب، كما تعارض بقوة الجهود الهادفة إلى الاعتداء على إسرائيل من الأراضي اللبنانية. هذا ينشئ دورة من العنف اللامتناهي تقريبًا يضاف إلى معاناة الشعب البريء في إسرائيل ولبنان على السواء.

- تدعم الولايات المتحدة انسحاب، على مراحل، للقوات السورية مما يؤدي إلى إنهاء تامٍ لأي وجود عسكري سوري في لبنان. هذا يقتضي أن يستكمل عبر

مراقبة موسّعة ثابتة ومستمرة لجيش وشرطة الحكومة اللبنانية في مناطق التوتر التي يراقبها الآن السوريون.

- يجب أن تجري انسحابات السوريين بطرق لا تؤدي إلى صراع مدني متجدد أو حرب كبرى بين مختلف الميليشيات ومجموعات الفدائيين الفلسطينيين.

- نأمل من القوات اللبنانية أن تمارس التحفّظ والصبر. حتى في مواجهة التحريضات والتحديات التي قد تأتي من السوريين والمجموعات الفلسطينية.

- إننا نشجع أي جهود للحوار بين القيادة المسيحية والطوائف الإسلامية والدرزية في لبنان.

- نعتقد أن القوات اللبنانية والمنظّمات المسيحية الأخرى هي في وضع يؤثّر على مجرى مستقبل التاريخ اللبناني، ونأمل أن تتابع أهدافها عبر طرق سياسية سلمية وأن تتعاون عوضًا عن التحدّي، مع الحكومة المركزية والجيش الوطني.

بعد نشره رسالة ريغان، استطرد الدكتور حوراني في كتابه قائلًا:

لقد أثارتني ظاهرة بشير في بعض الوقت. شاب يتجرأ على تحدّي الوجود العسكري والسياسي السوري في لبنان. كيف كانت أهدافه واستراتيجياته؟ أتابعة لسعد حداد في الجنوب؟ وماذا كانت أو يمكن أن تكون العلاقة بين الرجلين؟ كانت أسئلة أملت الحصول على إجابات عنها. لم يخب ظني بالاجتماع. فقد وجدت بشير صريحًا، قويًا، وطبعًا ساحرًا للجماهير (كاريزماتك). لقد تفهّمت باهتمام اعتقاده بأن الوقت مناسب لمحاولة استخدام الدعم الأميركي لحملته من أجل تحرير لبنان من قبضة السوريين.

لقد طلب صياغة رسالة للإجابة على الرسالة الأميركية بهذا الخصوص. كان حزب القوات اللبنانية يمثّل لسنوات عديدة، وبصورة غير منصفة، في نظر وسائل الإعلام الدولية منظّمة مسيحية فاشية. وكان مصطلح «الجناح اليميني» يُستخدم عادةً من قبل بعض الصحافيين وخبراء الشرق الأوسط لتمييزه عن مزيج الاشتراكيين والرادكاليين ومجموعات المقاومة الفلسطينية ومؤيديهم الأجانب، الذين رغبوا في أن

يسمّوا أنفسهم «قوميين». كانت تسمية «الجناح اليميني» لاصقة أيضًا بالسياسيين والمثقفين المسيحيين الذين ألّفوا «الجبهة اللبنانية» والذين دعموا الجهود التي بدأت عام ١٩٧٥ لمقاومة ما لحظوه من محاولة فلسطينية للسيطرة على لبنان كقاعدة لانطلاق عمليات يقومون بها ضد إسرائيل بعد أن فقدوا قاعدتهم في الاردن عام ١٩٧٠. فيما اتهمت «الحركة الوطنية» تكرارًا أعضاء المقاومة اللبنانية بسعيهم إلى تقسيم لبنان إلى مربّعات طائفية واعتمادهم على إسرائيل لتحقيق هدفهم.

رغم كتابة الرسالة بلغةٍ غامضة نموذجية لدواوينية واشنطن، استطعت قراءة فيها بعضًا من هذه الأفكار الخاطئة لواقع الصراع في لبنان. كنت مدركًا مسبقًا أنه، بين المقاومة اللبنانية لتسلّل الفلسطينيين والنضال المسلّح الفلسطيني ضد إسرائيل، هناك تفاوت ملائم للقضية الفلسطينية يطغى ليس فقط على معظم الصحافيين الأجانب المتمركزين في بيروت، بل أيضًا على بعض الدبلوماسيين، والمسؤولين الرسميين الأميركيين في واشنطن. في الكتاب الذي طلب مني بشير صياغته للرد على الرسالة السرية، حاولتُ تبديد بعض الأفكار الخاطئة وتقديم صورة حقيقية عما كان يسعى الجميّل في الشمال و(سعد) حداد في الجنوب إلى تحقيقه، كلٌّ في مجموعته الخاصة التي تختلف ظروفها عن الأخرى.

في الواقع، كنت إلى حدٍّ ما متفاجئًا وخائب الظن بما ظهر من بشير من تحفظات حول بعض القيادات الفاعلة والوضع في الجنوب. لم أعلم في حينه أنه أرسل بعض الأعضاء من القوات اللبنانية إلى هناك، في مهمة لمساعدة جيش سعد حداد، وأنهم لم يتصرّفوا جيدًا، ولذلك أعادهم حداد. لقد رمى أيضًا الشك على انتماءات بعض الفئات من السكان اللبنانيين، واصفًا إياهم بالأقرب إلى فلسطين منهم إلى لبنان. هذا كان حقيقيًا جغرافيًا، إذ كان لبنان تاريخيًا محصورًا بجبل لبنان والمنطقة الداخلية المارونية، ولكن كان حكمه غير منصف على حداد والجنود والمدنيين الذين كانوا يدعمونه. لقد بذلت جهودي لتصحيح رؤيته وإعطائه نسخة عن كتاب حداد إلى ريغان الذي كان يربط بموجبه أفعاله في الجنوب بما كان يقوم به بشير في الشمال.

وبعد التعبير عن العرفان بالجميل لتكرار الرسالة السرية التعبير عن الدعم الأميركي لاستقلال لبنان وسيادته وسلامة أراضيه ووحدته الوطنية، كتبتُ صياغتي:

- تكرّر القوات اللبنانية للإدارة الأميركية إحدى الفرضيات المركزية لفلسفتها وبرنامجها، وهي أن لبنان ينتمي إلى جميع طوائفه التي تعطي ولاءها الأساسي والوحيد للدولة اللبنانية. وهي دائمًا حاضرة من أجل عقد حوار مع السنة والشيعة والدروز وأي طائفة لبنانية أخرى تتقاسم رغبة القيادة المسيحية في إنشاء إجماع لبناني واسع، في إطار سيادة لبنان واستقلاله.

- علاوة على ذلك إنها تدعم القوات الوطنية التي تحافظ على السلطة الشرعية للبلد، وهي دائمًا جاهزة للتعاون ولا تتحدّى الحكومة المركزية والجيش الوطني في متابعة السياسات والمصالح الوطنية بصورة حقيقية وبإخلاص.

- تعتقد القوات اللبنانية أن تقوية الجيش والحكومة المركزية وتسوية وضع الفلسطينيين ومنع استخدام أي جزء من الأراضي اللبنانية لنشاطات إرهابية دولية ومحلية، وحلّ مشكلة جنوب لبنان، ممكن فقط في سياق انسحاب سوري مبكر وكامل.

- يقتضي أن يكون انسحاب القوات السورية، برأي القوات اللبنانية، غير مشروط بتحقيق مسبق لأي من هذه الأهداف، وإن خشية إدارة الولايات المتحدة أن يؤدي هذا الانسحاب إلى تجدّد النزاعات في لبنان غير مبررة. إذ إن وجود القوات السورية هو السبب الأساسي لغياب القانون وعدم الاستقرار السائدين في لبنان، وهو العائق الأساسي لتحقيق الإجماع السياسي الواسع بين اللبنانيين.

- تعتقد القوات اللبنانية أن الانسحاب المبكر والكامل للسوريين قد يؤدّي بسرعة إلى المصالحة والاتفاق بين اللبنانيين وأن الحكومة التي يمكن أن تعكس هذا الإجماع الجديد ستكون قادرة على التعاطي بفعالية مع مشكلة الوجود الفلسطيني المسلّح، وعلى إعادة توطيد السيادة اللبنانية فوق جميع المناطق التي هي حاليًا تحت السيطرة الفلسطينية. وقد يصبح وجود اليونيفل في جنوب لبنان بالتالي غير ضروري.

- في غضون ذلك تشعر القوات اللبنانية بقلق عميق حيال الجهود التي تبذلها أمانة الأمم المتحدة، بدعم واضح وتشجيع من إدارة الولايات المتحدة، لإشراك اليونيفل والجيش اللبناني غير الجاهز، بعمليات في الجنوب. وقد يكون لذلك أثر على مستوى زعزعة استقرار الجنوب وسائر البلد.

- تعتقد القوات اللبنانية أن استعادة السيادة اللبنانية على كامل البلد لا يمكن أن تبدأ على الحدود مع إسرائيل، بل في العاصمة بيروت، ويتم بسطها من هناك على كامل المناطق التي ليست حاليًا تحت سيطرة الحكومة المركزية.

- تتعاون القوات اللبنانية مع الجيش اللبناني في المناطق التي حافظت على الوجود اللبناني فيها، وهي مستعدة لمؤازرة الجيش في عملية توسيع انتشاره في المناطق الأخرى، حالما تزول العوائق الكبرى أمام هذا الانتشار.

- أخيرًا تعتقد القوات اللبنانية أن استعادة لبنان استقلاله وسيادته بصورة حقيقية، الناتجة عن انسحاب القوات السورية وتسوية وضع الفلسطينيين، لا تصبّ فقط في مصلحة اللبنانيين، بل أيضًا في مصلحة الولايات المتحدة الأميركية التي ستجد مجددًا في لبنان شعبًا يتمسّك بالحرية، كما تتمسّك بها أميركا».

واستطرد البروفسور حوراني:

كان بشير سعيدًا بكتابي وطلب مني المجيء مجددًا والعمل معه والبحث في جهوده من أجل تحرير لبنان من القبضة السورية. قبلت عرضه وذهبت إلى واشنطن ونيويورك وأسديتُ إليه النصائح المتعلّقة بما عليه توقعه من هناك، واكتشاف كيفية مساعدة القضية التي يحملها. وصلتُ إلى واشنطن في أوج الاصطدام الخطير بين القوات اللبنانية والجيش السوري في مدينة زحلة في وادي البقاع. كان الوضع مقلقًا جدًا في واشنطن بسبب دخول الصواريخ الروسية إلى المنطقة الخاضعة لسيطرة السوريين وإمكانية حدوث ما من شأنه توسيع دائرة الصراع واستدراج إسرائيل إليه.

تحرّكت الإدارة الأميركية لتطويق أزمة الصواريخ المتفاقمة. وأرسل الرئيس الأميركي رونالد ريغان فيليب حبيب، الدبلوماسي الأميركي من أصل لبناني، كمبعوث رئاسي مكلّف بالتواصل مع الأطراف المعنية من أجل إيجاد حل لأزمة الصواريخ. وبغض النظر عما آلت إليه المبادرة الأميركية، شكّلت سلسلة لقاءات فيليب حبيب مع بشير محطة رئيسية في توطيد العلاقة بين قائد القوات اللبنانية والولايات المتحدة، إذ كوّن المبعوث الرئاسي الأميركي انطباعًا جيدًا جدًا عن بشير، حتى أنه وصفه بأنه «الرجل السياسي الأقوى». وقد لعب فيليب حبيب دورًا مهمًا في واشنطن على مستوى إقناع ألكسندر هايغ وزير الخارجية الأميركية بجدوى المراهنة على بشير، وبخاصة إشارته إلى أن بشير يصلح لقيادة لبنان كرئيس جمهورية.

بناءً على هذه التطورات، جاءت الزيارة الرابعة لبشير الجميّل إلى الولايات المتحدة في تموز ١٩٨١ مختلفةً تمامًا عن الزيارات التي سبقتها والتي أقصى ما تخللها بعض الاجتماعات غير المهمة والنصائح بدعم الرئيس الياس سركيس. وبعدما جرى ترتيب اجتماعات له مع عدد من المسؤولين في وزارة الخارجية ووكالة الاستخبارات المركزية الأميركية من بينهم نيكولا فيليوتس. وبعدما أصر بشير على الاجتماع مع شخصيات أرفع، تحرّك من جديد ألفرد ماضي، رئيس مكتب القوات اللبنانية في واشنطن، وبوب بايزل رئيس الرابطة اللبنانية-الأميركية وأمّنا اجتماعًا مهمًا مع موريس درايبر، نائب وزير خارجية الولايات المتحدة لشؤون الشرق الأوسط الذي جزم بأن لا مجال لترتيب اجتماع لقائد القوات اللبنانية مع الوزير ألكسندر هايغ.

في هذه الأثناء، التقى بشير المدير المساعد لوكالة الاستخبارات المركزية بوبي راي ايتمان الذي فتح له بابًا للقاء المسؤولين عن مكتب لبنان في الـ CIA تشاك كورغن وجاي روجيرز، حيث جرى الاتفاق على تبادل المعلومات بشكل متواصل مع القوات اللبنانية. وقد طلب أيضًا منهما بشير السعي لاستصدار بيانات من البيت الأبيض مطالبة بإخراج الجيش السوري من لبنان. وتوالت الاجتماعات مع أركان الاستخبارات الأميركية، وكان أهمها مع وليم كلارك المسؤول عن قسم العلاقات، ومن بعدها مع رئيسها وليم كايسي. واعتبر بشير في حينه أن هذا

الاجتماع كان مفيدًا جدًا لأن كايسي بدا حريصًا على حسن العلاقات بين الطرفين مستقبلًا، باعتباره كاثوليكيًا متدينًا ويحبّ الموارنة.

بعد عودة بشير إلى لبنان، أخذت العلاقات بين الإدارة الأميركية والقوات اللبنانية منعطفًا جديدًا. إذ على مستوى التعاون الأمني، أرسل إيلي حبيقة وزاهي بستاني للتنسيق في العمل المشترك الاستخباراتي لمساعدة لبنان. أما على المستوى السياسي، فقد انفتحت الطرق والآفاق أمام الفريق اللبناني المكلّف من بشير الدفاع عن المصالح اللبنانية وشرح وجهة نظرنا من مجرى الأحداث. وأخذ هذا الفريق يشعر بالتفهّم والتجاوب مع طروحاتنا، الأمر الذي انعكس إيجابًا على مشروع ترشيح بشير الجميّل لرئاسة الجمهورية اللبنانية. وقد أشار البروفسور روحاني في كتابه المشار إليه أعلاه «An Unfinished Odyssey» بوضوح إلى ما تحقق على هذا الصعيد لا سيما لجهة مبادرة الإدارة الأميركية إلى لعب دور مباشر في فتح طريق المملكة العربية السعودية أمام بشير المرشح لرئاسة الجمهورية في تموز ١٩٨٢:

في واشنطن، التقيتُ بدافيد تانتر في مجلس الأمن القومي، وبوب بايزل ممثل بشير في الولايات المتحدة الأميركية، وأصدقاء قدامى لهم ارتباطات شرق أوسطية تعرّفت إليهم خلال زيارات سابقة. وفي ضوء ما اكتشفت، قمت بصياغة مذكرة وعددًا من المقالات الصحافية وضعت فيها الأزمة اللبنانية في إطار البُعد الإقليمي الواسع الذي كان لا يزال في ذلك الوقت تحت تأثير الحرب الباردة. تمّ إرسال المذكرة إلى وزير الخارجية السعودية الأمير سعود الفيصل الذي كان قلقًا من تدهور الأمن في لبنان. فما كان منه إلا أن سعى لعقد اجتماع لوزراء الخارجية العرب في الطائف مع بشير للتعرّف إليه وسماع كلامه المنطقي عن التدخّل السوري في لبنان. حصل الاجتماع في ٢ تموز ١٩٨٢، وكان ناجحًا من حيث تأثير بشير على الوزراء العرب. وقد حضر ذلك الاجتماع الوزيران السعودي سعود الفيصل، والكويتي عبد العزيز حسين، والأمين العام لجامعة الدول العربية الشاذلي قليبي، وسفير السعودية في لبنان علي الشاعر.

زرع ١٠٠ نصبة أرز وشربين وخروب، على صخرة الصمود في نهر الكلب ١٩٨٩.



الشيخ موريس الجميل وابنته.



حفلة في تياتر الإيليزي الاشرفية لروميو لحّود عام ١٩٧٧



قدّاس الرابطة الارثوذكسية في كنيسة السيدة الاشرفية ١٩٨٦



قدّاس تأبين الشهيد مالكوم كير رئيس الجامعة الأميركية ١٩٨٣



في حفلة تعارف فرع الجامعة بالجامعة الأم عام ١٩٨١. الدكتور سمير تابت نائب رئيس الجامعة الأميركية محاطًا بالدكتور رجا خوري والدكتور فؤاد حداد والدكتور فريحة وعقيلته.



رئيس مجلس أمناء الجامعة الأميريكية كالفين بلمتون في زيارة للدكتور جورج فريحه ١٩٨٧.



حفلة تعارف رؤساء وعمداء الجامعة في منزلي. يبدو في الصورة سجعان القزّي وإيفون الجميّل عام ١٩٧٤.



الرئيس شمعون والشيخ بيار الجميّل يتحدّثان مع الرئيس هولشر ونائبه سمير تابت ١٩٨٠.



بشير الجميّل مع رئيس الجامعة هارولد هولشر في حفلة تعارف في الجامعة ١٩٨٠.



رابطة الأساتذة الجامعيين في منزل الرئيس صائب سلام ١٩٧٣.



كميل شمعون وشارل مالك وبيار الجميّل في حفلة تعارف في الجامعة والفرع عام ١٩٨٠.



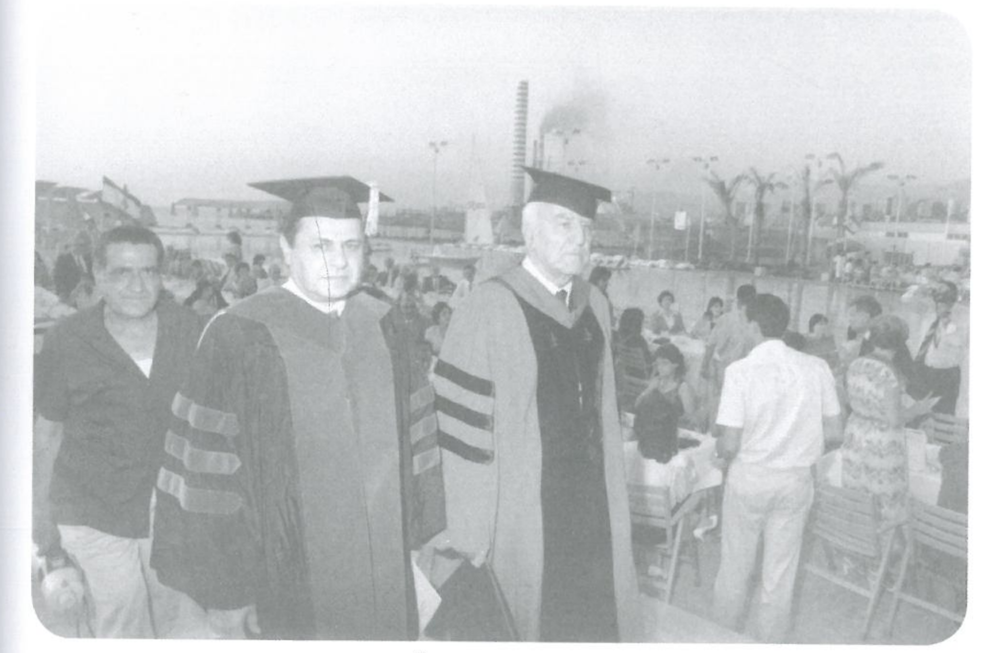
إتيان صقر (أبو أرز) في حفلة تعارف الجامعة والفرع ١٩٨٠.



الأباتي بولس نعمان في حفلة تعارف في الجامعة مع الفرع ١٩٨٠.



أمين الجميّل في حفلة تعارف في الجامعة الاميريكية والفرع ١٩٨٠.



الدكتور شارل مالك في حفلة تخرّج طلّاب الOCP عام ١٩٨٤.



قدّاس تأبين الرئيس الشهيد ملكوم كير غام ١٩٨٣.



الرئيس كميل شمعون في حفلة تعارف الجامعة والفرع ١٩٨٠.



سفير بريطانيا جون غراي في زيارة فرع الجامعة الأميريكية وإلى يمينه الدكتور سليم الضاهر ١٩٨٦.



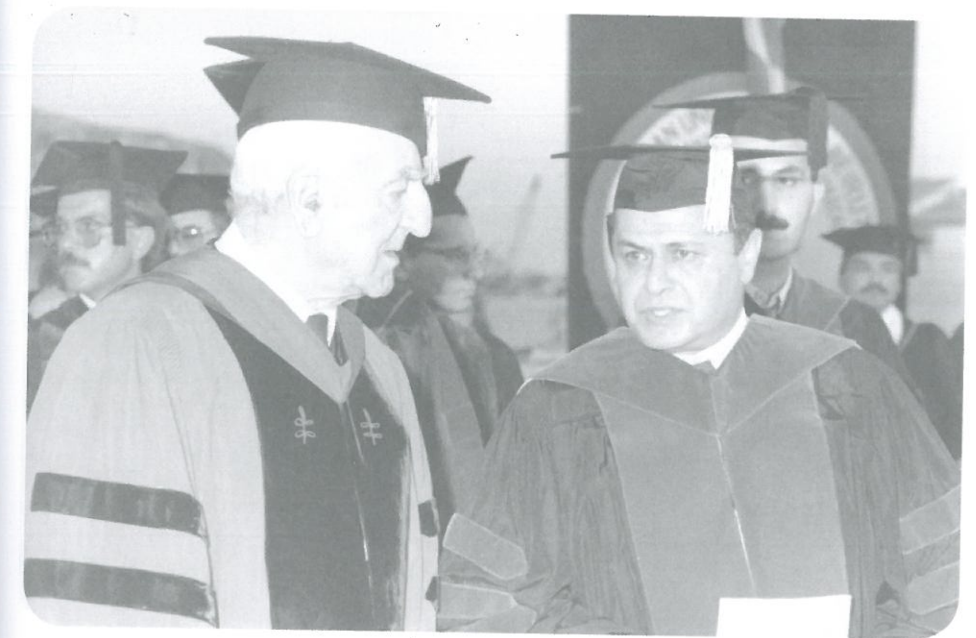
إجتماع رؤساء وعمداء الجامعة للتعارف إلى بشير في منزلي ١٩٧٤.



حفلة تخرّج طلّاب الـOCP ١٩٨٦.



المكتب المركزي للهيئة الشعبية ١٩٨٦.



الدكتور شارل مالك في حفلة تخرّج طلّاب الـOCP عام ١٩٨٤.



قدّامَ الرابطة الأرثوذكسية في كنيسة السيدة الأشرفية ويبدو في الصورة: فؤاد بطرس وميشال عمن وجورج فريحه عام ١٩٨٤.



وضع الحجر الأساس لافتتاح المكتب المركزي للهيئة الشعبية ١٩٨٢.



إفتتاح المكتب المركزي للهيئة الشعبية. وضع الحجر الأساس ١٩٨١.



إفتتاح للسوق الشعبية بحضور إيلي حبيقة ١٩٨٥.



إفتتاح EXPO للهيئة في نهر الكلب ١٩٨٥.

الفصل العاشر:

دخول إسرائيل إلى لبنان

لم يكـن خيـار بشـير الجميّـل بالدخـول في علاقـة مبـاشرة مـع إسرائيـل موجهًـا ضـد أحـد مـن اللبنانيـين. ومـا لجـأ إليـه إلّا بعدمـا سـدّت السـبل وأحكـم أعـداء لبنـان الخنـاق عليـه وعـلى المقاومـة اللبنانيـة للمـشروع الفلسـطيني - السـوري - السـوفياتي، ومنعـوا وصـول السـلاح للدفـاع عـن النفـس. إذ بعـد نحـو عـام مـن بـدء الحـرب وتواصـل الاعتـداءات في لبنـان مـن فلسـطينيين وسـوريين مـن دون توّقـف واستشـهاد آلاف المقاومـين اللبنانيـين مـن كتائـب وأحـرار وقـوات لبنانيـة قـال بشـير: «إذا أتتنـا مسـاعدة مـن الشـياطين فسـنقبلها لربمـا تغـيّر معادلـة الحـرب».

مطلـع ١٩٨٢، وبعـد اتصـالات عديـدة مـع الإسرائيليـين، وخاصـة مـع وزيـر الدفـاع آرييـل شـارون، أنبأنـا بشـير بـأن إسرائيـل عازمـة عـلى دخـول لبنـان لتـضرب السـوريين والفلسـطينيين ولتؤمّـن حدودهـا الشـمالية. فقـد جمعنـا بتاريـخ ١١ كانـون الثـاني ١٩٨٢، وصرّح بـأن دخـول الإسرائيـلي أصبـح حتميًّـا، وأخبرنـا أنـه قـرر إعـلام رئيـس الجمهوريـة اليـاس سركيـس بهـذا الأمـر التاريخـي. وحصـل اجتـماع في القـصر الجمهـوري في ١٣ كانـون الثـاني ١٩٨٢ ضـمّ إليـه وإلى الرئيـس سركيـس، وزيـر الخارجيـة فـؤاد بطـرس ومديـر المخابـرات جـوني عبـده، والوزيـر سـليم الجاهـل وزاهـي بسـتاني. أعلمهـم بشـير بقـرار الإسرائيـلي بالدخـول إلى لبنـان وضرب السـوريين والفلسـطينيين بشـكل واسـع. فصفّـق بعـض الحاضريـن قائـلًا: «أتانـا الفـرج»، وبـدا السـرور عـلى الرئيـس سركيـس مشـيرًا عـلى جـوني عبـده بالتنسـيق مـع بشـير.

وفي ٦ حزيـران ١٩٨٢ دخـل الجيـش الاسرائيـلي إلى لبنـان بشـكل واسـع وصـولًا إلى بـيروت. وتفاصيـل الاحتـلال ذكـرت عـلى لسـان مناحيـم بيغـن في الاجتـماع المغلـق في نهاريـا الـذي سـنأتي عـلى نـشره بالتفصيـل في الصفحـات التاليـة.

ترحيل طلاب الجامعة من جونيه

وصل الاجتياح الإسرائيلي إلى مشارف بيروت وحاصرها وشرع بقصفها قصفًا كثيفًا، وفي منتهى الشدّة. فاتصل بي دافيد دودج، رئيس الجامعة الأميركيّة بالوكالة طالبًا المساعدة على إخراج بعض الطلاب الأجانب من حرم الجامعة، ليتمكّنوا من مغادرة لبنان عبر ميناء جونية، وهو المخرج الوحيد الباقي بعد تعطيل مطار بيروت وإقفال طريق الشام.

إستمهلت دودج ريثما أفاوض القوات اللبنانية قبل بدء عمليّة نقل الطلاب. وبعد نصف ساعة، اتصل بي رئيس الجامعة من جديد ليخبرني أن الطلاب المعنيين توجّهوا شرقًا على متن مركبات، ولم يتمكّن أحد من ردعهم لأنهم كانوا مذعورين، فتحرّكوا مغامرين وعلى مسؤوليتهم، ركبوا ما تيسّر لهم من السيارات.

إتصلت فورًا ببشير طالبًا تسهيل انتقالهم وعبورهم طريق المتحف. فلبّاني فورًا وأرسل مجموعة مقاتلين واكبتهم من المتحف إلى الهوليداي بيتش حيث كنت مقيمًا. وما كادوا يصلون حتى علمنا أن القوات الإسرائيلية أغلقت طريق البحر، فاضطررنا إلى إبقاء الطلاب في ضيافتنا.

كانوا حوالي ١٦٠ طالبًا من مختلف الجنسيات، وأكثرهم من الفلسطينيين والأردنيين. وفي المرتبة الثانية، من حيث العدد، الباكستانيون والصوماليون.

حلّوا ضيوفًا علينا معزّزين مكرّمين في حماية القوات اللبنانية طوال ثلاثة أيام. وكم كان أسفي شديدًا لما تبيّن لي أن بعضهم قابل ضيافتنا السخيّة بأحطّ ما يمكن أن يصدر عن الرعاع والسفلة. إذ عمد هذا البعض، بدافع حقد وخساسة لا ندري لهما سببًا، إلى تمزيق أثاث ردهات الاستقبال، وتحطيم ما يمكن تحطيمه من الأوعية والمقاعد والأسرّة وأدوات الزينة التي وُضعت في تصرفهم للترفيه عنهم.

وكان العميد إيلي سالم، وعبد الله صفير، وكريم هيكل، وألكس عبد النور يتناوبون على الاتصال بهم، فلوحظ أن أحد الطلاب استأثر بالزعامة على رفقائه، فراح يرسل برقيات إلى واشنطن ويتسلّم ردودًا عليها، لكون والده من أصحاب النفوذ هناك، أو على علاقة بوزارة الخارجية الأميركية، مما جعل هذا الطالب رقيبًا على رفقائه، ومسؤولًا عنهم، ومتحدثًا باسمهم.

جاء الفرج بعد ثلاثة أيام، فغادر ضيوفنا جونية بفضل ما وفّرنا لهم من تسهيلات في مختلف مراحل انتقالهم. وما كادوا يبتعدون عن البرّ حتى اعترضتهم سفن حربية إسرائيلية واقتادتهم إلى إسرائيل، لعلمها أن بينهم مقاتلين فلسطينيين، وأن الطالب صاحب النفوذ مستشار خطير الشأن في منظمة فتح، خصوصًا في الفئة المنتمية إلى المسؤول الفلسطيني أبو جهاد.

إستشاط بشير غضبًا لمّا علم بهذا الأمر، إذ اعتبر ما حدث اعتداءً عليه، وإهانة مقصودة وموجهة إليه، فأتاني كالعاصفة يرغي ويزبد ويرسل الشتائم من كلّ وزن وعيار. وهاله أن تضمّ مجموعة من الطلاب الأبرياء المظهر أربعين مقاتلًا استغلّوا ثقة الناس وغفلة الغافلين، ليتسلّلوا، ويخرّبوا، ويلوذوا بالفرار متوسّلين حسن نيتنا، بل بلاهتنا.

هدّأته مقسمًا بأني لم أكن أعرف شيئًا عنهم، وبأن بادرتي لم تكن إلا وليدة غيرتي على الجامعة الأميركية، وحرصي على سمعتها انطلاقًا من اعتقادي أن الطلّاب يؤلّفون أسرة واحدة متينة الأواصر، سليمة العلاقات، بغضّ النظر عن الميول السياسية والحزبية والمذهبية، وعلى هذا الأساس تصرّفت، فكانت النتيجة نقيض ما أردت.

هدأ بشير، لكنه حذّر من تكرار هذه العملية كيلا يتاح لليهود أن «يمرّكوا علينا» بعد اليوم.

خطف دايفيد دودج

في ١٩ تموز سنة ١٩٨٢، خُطف دايفيد دودج من داخل حرم الجامعة الأميركية وكنت في تلك الأثناء مستاءً من بشير ومنقطعًا عنه، لاعتراضي على أسلوب العمل المتبع في «غاما»، وامتناعي عن تأييد ترشيحه لرئاسة الجمهورية.

في اليوم التالي، اتصل بشير بي يسألني عنه. أجبته بأني أجهل مصيره، وأضفتُ: «أعلم من الجامعة أنها ترحّب بتدخلك في هذا الأمر، وتشكرك سلفًا على كلّ جهد تبذله للاهتداء إلى مكان رئيسها، وللعمل على إنقاذه».

وعدني خيرًا. وفي اليوم الثاني، اتصل بي من جديد، وسألني عن دودج، وهل من جديد بشأنه. أجبته بالنفي، متمنّيًا عليه أن يساعدنا على تحريره. وفي اليوم الثالث اتصل أيضًا يسأل، فتلقّى الجواب نفسه، ثم سألني: «ألا تنوي أن تتخلّى عن الرضّاعة (سماها البيبرونة) لتعود إلى عملك معي؟»

فاجأني بهذا السؤال، بهذا الانتقال الفوري من موضوع إلى آخر بعيد كلّ البعد، هكذا بلا تردّد، وبلا تمهيد، فأجبته عفويًا كأن لساني يسبق فكري: «لا أريد أن أنزل!» فرد بسرعة: «يجب أن تنزل».

ومرّت ثلاثة أيام، فعاد إلى مخاطبتي تلفونيًا كأن شيئًا لم يكن.

– كيف دودج؟

– لا أعلم شيئًا عنه.

– متى ستنزل لاستئناف العمل؟

– لا أريد.

– يجب أن تنزل.

بعد أسبوع، اتصل في الصباح الباكر وبادرني جازمًا: «رح تنزل أو ببعت حدا يصادرك وينزّلك بالقوة؟ إما ريمون أسايان أو ديب أنستاز».

أجبته: «هيدا حكي! هيك كان لازم تحكي من الأول... يّلاَ أنا نازل...» وعدنا إلى ما كنّا عليه تعاونًا، وتفاهمًا، وكدحًا، ليل نهار، ورغبةً في تحدّي الصعاب، رغبة نابعة من الثقة بالنفس، من الإيمان بالقيم المتجسّدة بهذا البلد الصغير لبنان، من الطموح إلى مستقبل لن يكون إلا كما نريد، وكما نستحق ما دمنا مخلصين لقضيتنا، صادقين مع نفوسنا، مع جيراننا الأقربين والأبعدين، ومع العالم أجمع.

وبعد انتخابه رئيسًا للجمهورية، سلّمني الصليب الأحمر الدولي رسالة موجّهة إليه من دايفيد دودج المخطوف. وقد كتبت بخط يده، وفيها يطلب المساعدة عن طريق المقايضة: إخلاء سبيل الموقوفين لدى القوات اللبنانية في مقابل الإفراج عن دودج.

كلفّني بشير الرد على هذه الرسالة عن طريق الصليب الأحمر الدولي أيضًا. كتبنا رسالة إلى دودج هذا نصها مترجمًا:

عزيزي السيد دافيد دودج،

إستلمت رسالتك بواسطة الصليب الأحمر والتي كانت مرميّة أمام مطعم عقل في شتورة. طلبنا من الدكتور إيلي سالم، عميد «كلية الآداب والعلوم» في الجامعة الأميركية ليتعرّف على خطك والتأكيد بأن الرسالة أصلية. فأكد لنا أنها مكتوبة بخط يدك. أريدك أن تعلم وبكلّ صدق أنه ليس لدينا أي موقوف من الفلسطينيين أو غيرهم، وإلا لكنّا قد أخلينا سبيلهم فورًا مقابل الإفراج عنك. أتمنى لك العودة السليمة.

بشير الجميل

وقّعها بشير، وكانت آخر رسالة تحمل توقيعه.

حدث ذلك قبل كارثة الأشرفية بثلاث ساعات......

بشـير المرشح للرئاسة

صُدِمنـا جميعـًا.

إسـتولى علينـا ذهـول ممـوّه بـشيء مـن الاسـتغراب، وحتّـى مـن الاسـتنكار والرفض، يـوم قـرّر بشـير ترشـيح نفسـه لرئاسـة الجمهوريـة.

قليلـون مـن أصدقائـه الأوفيـاء أعلنـوا معارضتهـم، لا رغبـة منهـم بالمعارضـة، بـل تـداركًا لمـا في هـذه الخطـوة مـن الخطـورة والخطـر.

أذكر من هؤلاء الأصدقاء: سليم الجاهل، وأنطوان نجم وأنا.

أعلنّا موقفنا واضحًا صريحًا. قلنا: لا!

قلناها بكل ما في أعماقنا من صدق واقتناع.

وكان صدقنـا مـن أنفسـنا ولهـا، فضـلًا عـن كونـه وليـد محبّتنـا لبشـير، وغيرتنـا عليـه، وحرصنـا عـلى مسـتقبله.

إلتقينـاه يومًـا في مطعـم واكيـم، في الأشرفيـة. وكنـا قـد خطّطنـا لإقناعـه بالعـدول عـن خـوض معركـة الرئاسـة.

عقدنا معه اجتماعًا اعتبرناه مصيريًا.

قلنـا لـه إننـا أصحـاب «قضيـة لبنانيـة»، وإن هـذه القضيـة أصبحـت وثيقـة الارتباط بـه شـخصيًّا، بشـخص واحـد أحـد اسـمه بشـير الجميّـل، فـلا يجـوز لـه أن يبلبلهـا، أو يزحزحهـا، أو يخفّـف زخمهـا، أو يلجـم انطلاقهـا الكاسـح والمتصاعـد بترشـيح نفسـه لمنصـب لا يخـرج عـن كونـه «وظيفـة معيّنـة ومحـدودة» مهـما يكـن رفيعًـا، فنتعـرّض لخسـارة رصيدنـا الضخـم، رصيـد الفضائـل والمناقـب والإنجـازات العديـدة التـي جمعناهـا بكثـير مـن البطـولات، والمواقـف التاريخيـة، والأعـمال المجيـدة، والصمـود الـذي تجاوزنـا بـه حـدود الأسـاطير. فكيـف يجـوز لنـا أن نطرحـه في مسـتنقع السياسـة التقليديـة، ومـا إليهـا مـن روتـين الإدارة، ومسـايرات الأسـاطين والسـماسرة، وألاعيـب أسـاتذة التطبيـق المشـبوه، ودهاقنـة المسـاومة واللـف والـدوران؟

وطرحنـا عليـه سـؤالًا اعتبرنـاه يكفـي وحـده لحملـه عـلى إعـادة النظـر في قـراره: «كيـف تنـوي أن تتعامـل مـع مبـدأ ٦ و٦ مكـرّر؟

نظر إلينا مبتسمًا.

كانـت ابتسـامته خليطًـا مـن الوضـوح والغمـوض، مزيجًـا مـن العقـاب والإعجـاب، تعبـيرًا عـن ثقتـه الوطيـدة بنفسـه وبنـا، ثـم قـال متمهّـلًا كأن كلماتـه تنسـلّ مـن روحـه وعقلـه: «هـل ضعـف إيمانكـم بي؟ هـل خامركـم شـبه ظـنّ بـأن الرئاسـة قـد تغيّرني؟ وهـل تذبـل «القضيـة» أو تمـوت بوصـولي إلى الرئاسـة؟»

واسـتطرد بعـد سـكوت قصـير: «العكـس هـو الصحيـح! لتحيـا القضيـة، لتتحقّـق. لتصبـح واقعًـا ثابتًـا سـاطعًا حيًّـا، يجـب أن نتسـلّم الحكـم».

خـاض انتخابـات الرئاسـة مـن دون التأكـد مـن نتائجهـا، إذ إن بعـض النـواب الذيـن سـعينا لإقناعهـم بالذهـاب إلى جلسـة الانتخـاب بـاءت بالفشـل، وبخاصـة النائـب محمـد يوسـف بيضـون الـذي أوكلنـي بشـير بإقناعـه للذهـاب، فذهبنـا ميشـال سـماحه وأنـا وسـعينا مـن دون جـدوى. كـما أنـه أوكلنـي بمحاولـة إقنـاع الدكتـور ألبـير مخيـبر بانتخابـه، فلـم نجـده في أي مـكان. ولمـا جـرت الانتخابـات، ونجـح بشـير بــ٥٧ صـوت مـن أصـل ٦٢، وأصبـح رئيسًـا، أصرّ عـلى أن يشـكر مـن انتخبـه ومـن لم ينتخبـه، وخاصـةً الدكتـور ألبـير مخيـبر الـذي قـال لـه: «أشـكرك يـا حكيـم لأنـك بغيابـك أكـدت ديمقراطيـة الانتخابـات».

بعـد الهـرج والمـرج، السـكرة والنشـوة، اتصـل بي مسـاءً مـن هاتـف سـيارته، وكان معـه النائـب الدكتـور جـورج سـعادة، ودعـاني إلى منزلـه ليسـلّمني مهمتـي الجديـدة معـه.

وصلـت بعـد قليـل. إسـتقبلني عـلى بـاب المنـزل معانقًـا. ونظـر إلى رفاقـه في الداخـل، وهـم: جـورج سـعادة، وأنطـوان نجـم، وجوزيـف أبـو خليـل، وزاهـي بسـتاني، وكريـم بقـرادوني، وقـال لهـم وهـو يـدلّ عـليّ: «إن أول تعيـين يقـوم بـه فخامـة الرئيـس هـو تعيـين Chief of Staff. فهنّـأني الجميـع عـلى هـذه الخطـوة ثـم ذهبـوا في سـبيلهم وبقيـتُ معـه وحـدي.

قويًا كان. فلا عجب إذا أحب الأقوياء.

وليست قوّة العضلات وحدها كانت تستهويه، بل اهتمّ بالفكر، والمعنويات، والجرأة الأدبية، والثقة بالنفس، ومتانة الأخلاق. وكم رأيته يبحث عن أصحاب هذه المزايا، حتى إذا عثر على واحدٍ منهم بادر فورًا إلى ترقيته، والاعتماد عليه، وإسناد المسؤوليات إليه، وشجّعه بمختلف الوسائل على العمل والعطاء، ووضع إمكاناته ومواهبه في خدمة القضية اللبنانية. وبهذه الطريقة كان يغربل معاونيه، ويختار منهم مستشاريه.

وكان يحب السرعة في كلّ شيء، في التفكير، والتصميم، والتحرك والإنجاز، ويُحذّر من إضاعة الوقت سدىً، كأنه كان يشعر، في قرارة عقله الباطن، أن وقته محدود، وأن عليه أن يعمل في يوم ما يعمله سواه في شهر أو سنة، وكأنه عاهد نفسه على أن يجعل كلّ لحظة من حياته زاخرة بالنشاط، وافرة النتائج، يانعة الثمار. وما كان أشدّ نفوره من البطيئين والكسالى والمترهّلين.

وعملًا بهذه الخطة، أو هذا المزاج النابع من الطبع والسليقة، رأيته يسرع في تعيين مستشاريه، وتبديلهم بين يوم وآخر، وأتذكر أكثر من مائة شخص تعاون معهم، واتخذهم مستشارين في موضوع معيّن، أو عمل محدود، ثم أقصاهم عنه مراعيًا شعورهم. ومن حقّه عليّ أن أعترف بحنكته ومرونته في هذا المجال، إذ استطاع أن يستعين بإمكانات الآخرين وكفاءاتهم في الوقت اللازم، والفرصة السانحة، ثم ينصرف إلى شأنٍ آخر من غير أن يجرح إحساسًا أو يمسّ كرامة.

ومن أبرز أساليبه الدالّة على الفطنة والخبرة الواسعة في فهم طباع الناس، وإجادة التعامل معهم، أنه كان شديد الحرص على صيانة ماء الوجه، فإذا أراد إقصاء مستشار، رقّاه إلى مرتبة أرفع من التي هو فيها، ولكن مسؤوليته في هذه المرتبة تكون مرحلية ومحدودة الزمان والمكان.

راقبت هذا «التصرف البشيري» باهتمام لا يخلو من الفضول، على شيء من الدهشة، أو التعجّب، وشئت يومًا أن أصارحه بما في نفسي، فسجّلت ملاحظاتي الإيجابية والسلبية على أدائه على شريط وأرسلته إليه، تحت عنوان: «شريط أبيض وأسود».

ولبشير القدرة على تحليل مستشاريه وإدراك أدقّ ما في نفوسهم وفكرهم، وقراءة الخفايا في ملامح الوجوه، وأساليب التعبير، ومعاني الإشارات والحركات، مهما تكن بارعة التمثيل لإظهار غير الحقيقة. فإذا جالس أحدًا مرةً أو مرتين، توغّل في أعماقه، وأدرك كلّ ما فيه، ومنه، وله، كأنه يقرأ في كتاب، أو يرى صورةً ملوّنة.

ولبشير، فوق ذلك قدرة مذهلة، أو سحر ساحر، في اجتذاب الناس، ولا يكتفي بأن يغرس حبّه في قلوبهم، بل يُدخل في يقين كلٍّ واحد منهم أنه هو المفضّل لديه على الآخرين جميعًا. وسمعتُ بعض معاونيه يدّعي أنه يستطيع أن يؤلّف كتابًا ضخمًا عن «الأيام الحلوة» التي أمضاها مع بشير مسترشدًا بتوجيهه، متمتّعًا بثقته الكاملة.

لا يخامرني ريب بأن هذه الفراسة المستنيرة بذكاء فطري وعزيمة متوثّبة، جعلت بشير واسع الاطلاع على ما يستطيع أن يستنتج من معاونيه في مختلف حقول النشاط، فإذا به يُعطي كلًا منهم ما يناسب إمكاناته وينسجم مع مواهبه، لا أكثر ولا أقلّ.

عندما أصبحنا وحدنا سألني: «هل تصدّق أني صرت رئيس الجمهورية؟ إحذر أن تناديني: فخامة الرئيس. إن شاء الله سنبني لأطفالنا وطنًا جميلًا وهانئًا وسعيدًا».

تحدّثنا طوال ساعة عن كلّ شيء.

أحسسنا الكون مسرحًا لآلامنا. حسبنا القدر خادمًا يخضع لأمرنا، صار المستحيل لعبة طيّعة بين أيدينا. ضاقت بنا الدنيا... شعرنا بأننا أكبر منها حجمًا وأبعد منها مدىً.

وفي نهاية هذا المطاف المرفرف في أجواء الحبور، المحلّق في أعالي الهناء والثقة بالنفس، والنظرة الصقرية إلى المستقبل، تلك النظرة التي يتضاءل دونها التفاؤل في أبعد معانيه قال لي: «جورج! إيّاك أن تترك الجامعة الأميركية. إبقَ فيها. لك بها ارتباط لا يجوز أن يتزعزع. أنت ربّ عائلة. لا أريد أن يخترب بيتك».

وصمت صمتًا رهيبًا، كأن فكره تجاوز الزمان إلى أيام آتية لا يراها إلا الملهمون، ثم استطرد: «قد يُسَوِّحوني»!

خرجت هاتان الكلمات من بين شفتيه وفيهما ما يشبه انفجار القنبلة.

إنهما لترنّان في سمعي حتى اليوم، بل هما مستقرّتان في قلبي، مدويتان في وجداني، ترافقان كل ثانية من حياتي...

لماذا قالهما؟

أتراه قرأ مصيره في عالم الغيب؟

هل سبق ما هو مقدّر له منذ انتخابه رئيسًا؟

هل تأثّر بما قيل له عن محاولات قتله.

يُخيّل إليّ الآن، وأنا أخطّ هذه الكلمات بكلّ ما أملك من القدرة على التعبير، أن كلمتيه ما تزالان موجهتين إليّ من الآخرة، من المكان الذي ذهب بشير إليه...

ليس الجسد وحده معرّض للأسر.

الروح أيضًا تؤسر.

وروحي هي الآن، وستبقى ما حييت، أسيرة تينك الكلمتين، كأن بشير أرادني أن أظلّ مشدودًا إليه حتى بعد رحيله.

سألته عن مصير رفاقنا في عهده، فأجاب: «هم أحبّائي خدموني بإخلاص، وسيبقون أحبّائي، لكن يا جورج نحن في صدد تأسيس دولة. سنختار الأصلح لكلّ من المواقع في الحكومة والدولة. إجمع أسماء معارفنا الكفوئين وسننتقي منهم، وأقصِ من تشاء إذا اعتبرته غير صالح أو غير مناسب. ولا يخفي عليك أن بين المتعاونين معي أشخاصًا اقتصر عملهم على موضوع معيّن ومحدود هو انتخاب الرئاسة. وهذا لا يعني أني مدين لهم، وأن من واجبي أن أبقيهم إلى جانبي إلى أبد الآبدين. إني مدين بالفوز الذي أحرزته لإثنين فقط: أبي والياس سركيس. ولكامل الأسعد أيضًا فضل في هذا الشأن من الناحية المادّية».

وفي معرض الحديث عن استعداداته لمرحلة الحكم، تطرّق إلى التشكيلة الحكومية التي كان يفكّر بها وبخاصة قدرتها على مواكبة ما كان يرمي إليه لإخراج جميع الجيوش الغريبة عن أرض لبنان. ومما قاله في ذلك اليوم: «في ذهني بعض الأسماء لرئاسة الحكومة وإني أتردد بين سليمان العلي وعثمان الدنا ولكن أميل إلى العلي لأنه أكثر مرونة، ولأنه جاء مع كتلة نواب عكار متجاوزًا مختلف العقبات والمحاذير، وانتخبوني على الرغم من كلّ إنذار وتهديد. كما أفكّر بعلياء الصلح وعبد الحميد الأحدب الذي سأعيّنه وزيرًا للعدل وربما رئيسًا للحكومة إذا لم يتوفّق سليمان العلي أو عثمان الدنا، ومن الموارنة أفكّر بجورج افرام لحقيبة الصناعة، ومن الكاثوليك وعدتُ فؤاد سعيد حدّاد، بوزارة التربية وطلبتُ إليه أن يجتمع بسفير أميركا. إن الأسماء الأخرى نبحث فيها لاحقًا. أريدك أن تجتمع بفيليب حبيب Chief of Staff لريغان، واستفد من خبرته في هذا المنصب».

أما أنطوان نجم وكان بشير يحبّه ويحترمه، فغصنا بموضوعه طويلًا وأقنعته أن المديرية العامة للقصر الجمهوري تليق به.

ومما قاله بشير لي في هذه الجلسة التاريخية: «ماذا سنفعل بعسكر القوات، عددهم بالآلاف. هل نضمّهم إلى ميليشيا الكتائب؟ إنهم خيرة الشباب». أجبته: «ضمّهم إلى الحرس جمهوري، ولو كان عددهم كبيرًا. هم سيكونون ضمانة لك وللبنان». إستساغ هذه الفكرة وقال: «ربما هذا ما سأفعله».

في اليوم التالي، اجتمعت بفيليب حبيب، وردًا على تساؤلاتي عما يجب أن أقوم به، قال: «إنصح رئيسك بألا يُدلي بتصريح لا فائدة له، وألا يقوم بعمل لا فائدة له».

خصصتُ مكتبًا لي في المجلس الحربي. وبدأت أضع برنامج العمل.

وأخذت أتردد، من حين إلى آخر، إلى القصر الجمهوري في بعبدا لإنجاز الأمور الرسمية، أو لاستقبال شخصيات وطنية وأجنبية.

ما أحبّ بشير القصر الجمهوري. طلب إلى موني عرب تغيير ملامحه كلّها. وكان يسائل نفسه: «كيف أستطيع تمضية ولايتي كلها في هكذا قصر؟»



زيارة سمير جعجع للهيئة الشعبية ١٩٨٦.



افتتاح المكتب المركزي للهيئة الشعبية ١٩٨١.



زيارة البطريرك صفير في بكركي ١٩٨٦.



إجتماع تنسيق لوزارة الاقتصاد والهيئة الشعبية بحضور الوزير فكتور قصير عام ١٩٨٦.



شهادات مسعفي الهيئة الشعبية للتزلج في فقرا ١٩٨٨.



قاعة بشير الجميّل في نادي أبناء نبتون ١٩٨٦.



سفير إيطاليا مكرّمًا فكتور حداد وجورج فريحه ١٩٨٢.



نهائي دورة برمانا الدولية بحضور الرئيس كميل شمعون ١٩٦٩.



مؤتمر صحافي للشخصيّات الرياضية طالبة بإنشاء وزارة الشباب والرياضة ١٩٨٣.



بعد انتخاب بشير وفوزه برئاسة الجمهورية.



بشير الرئيس يستعرض الحرس الجمهوري.

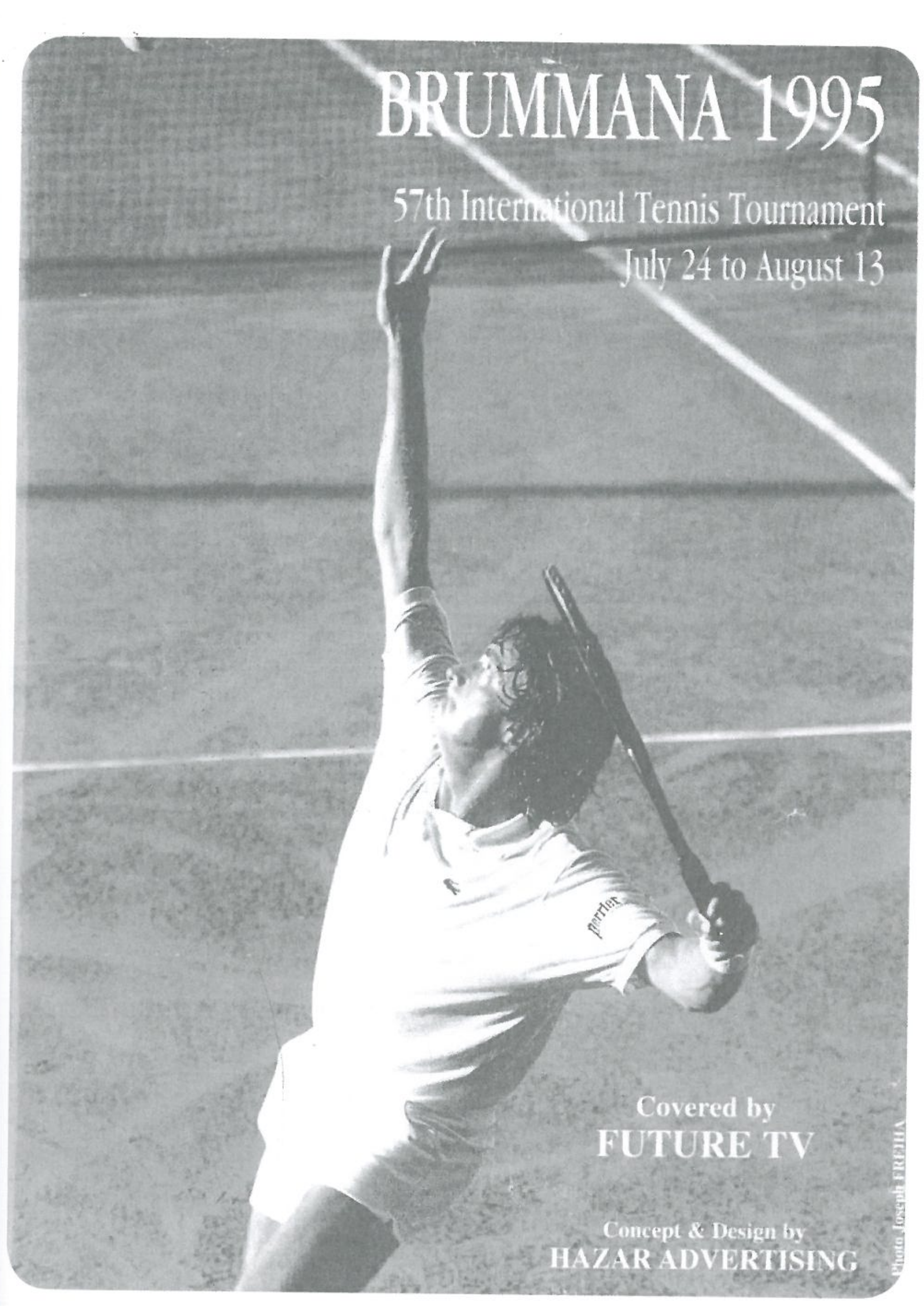


نهائي دورة برمانا الدولية بحضور الشيخ أمين الجميّل وفؤاد لحّود وميشال ساسين.





نهائي دورة برمانا الدوليّة ١٩٩٤ بحضور الرئيس الياس الهراوي.



نهائي دورة برمانا الدولية ١٩٩٥ مع اللاعب الدولي هنري لو كونت.

الفصل الحادي عشر:

تهيّب العلاقة مع حزب الكتائب

في تلك السهرة الطويلة التي أمضيتها مع بشير، بعد ستة أيام من انتخابه، بحثنا في أمر بدا له على مستوى كبير من الأهمية وهو شكل علاقته بحزب الكتائب بعد تولّيه رئاسة الجمهورية. ففي كنف هذا الحزب الذي أسسه والده، ويرئسه، وشاهد انطلاقته وأعطاه الدعم لينطلق في مسار تحقيق مصيره، ولدت ظاهرته التي تخطّت في نهاية المطاف حدود الحزب.

ذلك المساء، أعطاني نسخة عن مذكّرةٍ مهمة عن حزب الكتائب اللبنانية متعلّقة بمكونات الحزب وإنجازاته وتطوّره مع الزمن، وقال لي: «إقرأها جيدًا وأعطِني رأيك فيها. أنا أصبحت رئيس دولة لبنان وحزب الكتائب أصبح مع مرور السنين دولة ضمن دولة. فما العمل مع هذا الحزب العظيم الذي نشأتُ وترعرعتُ في كنفه؟»

كانت العلاقة المستقبلية مع حزب الكتائب بالفعل استحقاقًا يستوجب الكثير من التفكير من جانب الرئيس الخارج من حزب الكتائب. فهو حسم فورًا وبسهولة علاقة شباب القوات بالعهد الجديد الذي كان مزمعًا أن يبدأه، فيما لو قُدّر له أن يحكم، على قاعدة «الرجل المناسب في المكان المناسب له» التي كررها على مسمعي في تلك الليلة. غير أن العلاقة مع حزب الكتائب لم تكن لتكون بالسهولة نفسها، باعتبار أن هذا الحزب كبير ومتشعّب ولا يدين له بالولاء بالكامل.

لم تسمح لنا الظروف ولا الوقت القصير الذي عاشه بشير كرئيس لأنّ نبحث بموضوع الكتائب. لذلك سأنشر مضمون المذكرة التاريخية لحزب الكتائب من دون التعليق عليها.

واجـه حـزب الكتائـب اللبنانيـة ثـورة ١٩٥٨ بثـورة مضـادّة أسـفرت عـن النتائج التـي يعرفهـا الجميـع. وعـلى أثـر هاتـين الثورتـين، تحوّلـت منظّمـة الشـباب الكتائبيـة فرقًـا عسـكرية نظاميّـة عُرفـت آنـذاك بِاسـم «القـوى النظاميـة».

بعـد حـوادث ١٩٥٨، أنشـأ الحـزب ثـلاث فـرق عسـكريّة اتخـذت لـدى تخريجهـا أسماء ثلاثـة مـن شـهداء الحـزب في معـارك ١٩٥٨. وقـد أُجريـت مراسـم التخريـج في ٢٤ نـوار، في البيـت المركـزي، فسـمّيت الفرقـة الأولى بِاسـم الشـهيد قيـصر الحلـو، والثانيـة بِاسـم الشـهيد ريـاض محمـود طـرّاف، والثالثـة باسـم الشـهيد فـؤاد حـداد (أبـو الحـن).

وتـولّى قيـادة هـذه الفـرق إيـلي محفـوظ، مفـوّض بـيروت آنـذاك، وإدوار محفـوظ مفـوّض الأشرفيـة، في الوقـت نفسـه. وتميّـزت هـذه الفـرق الثـلاث عـن القـوى النظاميّـة العاديّـة، فعُرفـت «بالميليشـيا الكتائبيـة».

وفي العـام ١٩٦٨، أنشـأ بطـرس الخونـد أولى فـرق الكومنـدوس في الحـزب. وكانـت تتألّـف مـن فصيلتـين، الأولى برئاسـة الشـهيد جـورج فـرح، والثانيـة برئاسـة سـامي خويـري، فيـما تـولّى بطـرس الخونـد قيـادة الفصيلتـين. وقـد خاضـت هـذه الفـرق معركتهـا الأولى في الدكوانـة – تـل الزعـتر عـام ١٩٦٩، في شـهر نيسـان، وأسـبوع الجمعـة العظيمـة. وقـد حـوصر آنـذاك بيـت الكتائـب في الدكوانـة، وكان فيـه رئيـس إقليـم المتـن المرحـوم موريـس الجميّـل. ووقعـت هـذه الحادثـة عـلى أثـر معركـة الكحّالـة، ثـم خطـف الشـيخ بشـير الجميّـل، فيـما كان آتيًـا مـن الكحّالـة إلى الدكوانـة.

وأُنشـئت فرقـة الصخـرة سـنة ١٩٦٨، برئاسـة فـؤاد الشرتـوني. وعـام ١٩٧٠ حصلـت عـلى موافقـة رسـمية مـن الرئيـس الأعـلى. وكانـت هـذه الفرقـة تتـولّى حمايـة الرئيـس الأعـلى، ومواكبتـه وحراسـة بيتـه. وقـد خاضـت أولى معاركهـا في الكحّالـة عـام ١٩٦٩، يـوم الأربعـاء، عيـد الفصـح، فكبحـت تجـاوزات الفلسـطينيين، وكبّدتهـم ١٧ قتيـلًا، ثـم خاضـت معركـة الناصرة - الدّبـاس، في اليـوم التـالي - الخميـس. ويـوم الجمعـة العظيمـة، أي في اليـوم الثالـث، خاضـت معركـة سـن الفيـل - حـرش تابـت، وعُهِـدَ إليهـا بتطويـق المخيّـم الفلسـطيني مـن جهـة المكلّـس، فضـلًا عـن مسـاندة فـرق الكومنـدوس. وظلّـت منـذ العـام ١٩٧٥ مرابطـة عـلى جبهـة القتـال وخطـوط التـماس في بـيروت، مـن جـسر فـؤاد شـهاب حتـى السـوديكو.

أنشـئت سرّيـة الطـلاّب عـام ١٩٧٠، وتـولّى رئاسـتها أنطـوان بعقلينـي. وقامـت بعمليّـات ردع بعـض التظاهـرات والإضرابـات التـي نظّمهـا طـلاب معـادون للكتائـب وللبنـان. وفيـما بعـد، تطـوّرت هـذه الفرقـة، وأُلحِقَـت بهـا عنـاصر كتائبيـة برئاسـة فـادي خويـري، وسُـميّت «ب.ج»، ولم تكـن أصبحـت رسـمية بعـد، وذلـك عـام ١٩٧٣.

وأنشـئت فرقـة «ب.ج»، رسـميًّا عـام ١٩٧٥، مـع بـدء الأحـداث، برئاسـة سـامي خويـري. وكان يـشرف عـلى تدريبهـا شـقيقه فـادي، ثـم تـولّى قيادتهـا جـورج فوريـدس. وقـد خاضـت معـارك عـدّة عـلى مختلـف الجبهـات، وتميّـزت، عـلى الأخـصّ، بحمايـة البيـت المركـزي، ومعـارك الفنـادق والأسـواق وفي الجبـل. واكتسـبت شـهرةً مرموقـة في خـلال حـرب السـنتين.

تـولّى قيـادة فرقـة كومنـدوس الرميـل حبيـب أبـو جـوده، مفـوّض الرميـل آنـذاك، ثم التحـق بـه سـامي خويـري، بعـد أن تسـلّم منـه جـورج فوريـدس قيـادة «ب.ج.». وقـد أنشـئت هـذه الفرقـة في منتصـف العـام ١٩٧٥، واشـتركت في معركـة النبعـة - البـدوي - الكرنتينـا - الفنـادق - الأسـواق التجاريّـة، وخصوصًـا معركـة هايكزيـان الشـهيرة.

أنشـئت فرقـة المغاويـر عـام ١٩٧٧، وكانـت تكملـةً لفرقـة «ب.ج.». فتـولّى رئاسـتها جـو إدّه، ثـم إبراهيـم ضاهـر، وخلفـه إبراهيـم حـدّاد. وبعدها بعهـدة يوسـف بعقلينـي. وقـد خاضـت معـارك كلّ لبنـان، وأهمهـا ثـلاث: معركـة الأشرفيـة وبـيرتي خـلال حـرب المئـة يـوم، في مواجهـة السـوريين، ومعركـة قنـات الشـهيرة، ومعركـة زحلـة التاريخيـة عـام ١٩٨١.

أنشِـئَت الشرطـة الكتائبيـة في الأربعينـات. أسّسـها المرحـوم الشـيخ موريـس الجميّـل، وتـولّى رئاسـتها جـورج سـليمان، ثـم الشـهيد أسـعد كحالـة. وسـنة ١٩٧٦ تسـلّمها الشـيخ بشـير الجميّـل بالوكالـة. وبعـد تأسـيس المجلـس الحـربي، انتقلـت قيادتهـا إلى ديـب انسـتاز عـام ١٩٧٧. وكانـت تتـولّى حمايـة البيـت المركـزي، ومواكبـة الرئيـس الأعـلى، وتنظيـم المهرجانـات والتظاهـرات الحزبيّـة. وقـد اشـتركت فعـلًا في ثـورة ١٩٥٨، وصـدّت هجـمات «المقاومـة الشـعّبية الناصريّـة» قـرب البيـت المركـزي، وفي سـاحة الشـهداء والمناطـق الأخـرى. ولمـا عُهـد بقيادتهـا إلى أنسـتاز عـام ١٩٧٧، بـدأت تمـارس صلاحيّـات الشرطـة بـردع المخالفـين ومعاقبـة المجرمـين والمتطاولـين عـلى أمـن المجتمـع المسـيحي.

«طوارئ بيروت»، كان يشرف عليها ويتولّى قيادتها عام ١٩٧٦ مفوّض بيروت جورج شعنين، فيما كان رئيسها العسكري أنطوان خوراسنجيان. وقد اشتركت في معارك الأسواق والجبل: صاليما - الكحالة - عاريا - كفرشيما - بدادون - عيون السيمان - شكّا. وسنة ١٩٧٨، خاضت معارك الأشرفية - التعاونية - الجسور - الأسواق، وخصوصًا معركة بدادون، ثم معركة إهدن الشهيرة، والبدوي (الأحرار). وكان السوريّون قد ركّزوا قواهم على منطقة الجسور لفصل العاصمة بيروت عن الجبل.

في ١٣ نيسان ١٩٧٥، بدأ القتال في عين الرمّانة، على أثر استشهاد مفوّض فرن الشبّاك جوزف أبو عاصي. ولما مرّت سيارة الباص تنقل فلسطينيين، أطلقت عليها النيران، فقُتِل القسم الأكبر من ركّابها، واستُنْفِرتْ القوى النظاميّة في معظمها. وفي المساء احتدم القتال في مختلف الجبهات على الوجه التالي:

*ج**بهة عين الرمّانة - الشّياح:** تولّى القيادة فيها آنذاك الشهيد إميل غنطوس. وبعد استشهاده، خلفه مسؤولون عديدون هم، على التوالي: كميل حرفوش، جان حرب، جورج مزرعاني، ناجي بطرس، جوزف الأسمر، إيلي أبي عكر، وأنطوان أبو جوده.

***جبهة الحدث - المريجة:** فُتِحت عام ١٩٧٥، وما تزال حتى اليوم. كان قائدها لويس كرم، وتلاه أبو نبيل، ثم طوني كرم. وساهم فيها بعض قادة الثكنات المركزية.

***جبهة بدادون ١٩٧٥ مع القماطيّة:** كان قائدها الشهيد ميشال حويّك.

***جبهة الكحّالة-عاريّا:** تولت الأشراف عليها ثكنة الكتيبة الأولى - المتن الجنوبي، بقيادة لويس كرم.

***جبهة كفرشيما:** منذ ١٩٧٥ تولّى قيادتها رئيس القسم أنطوان مخلوف، بإشراف القيادة المركزية ومساعدتها.

***جبهة جسر الباشا:** نشأت في ١٣ نيسان ١٩٧٥، وكان قائدها سمير أبي نادر، بإشراف مفوّض جبل لبنان آنذاك بطرس خوند وقيادته. وهو الذي شنّ هجوم تحرير هذا الجسر في ٩ حزيران ١٩٧٦.

***جبهة الدكوانة - تل الزعتر:** إشتعلت في ١٣ نيسان ١٩٧٥. وتوالى على قيادتها مسؤولون عديدون، أبرزهم الشهيد كرم صدقة. وقد أشرف عليها، وتولّى قيادة تحركات المقاتلين فيها مفوّض جبل لبنان في ذلك الحين بطرس خوند، بالتعاون مع رئيس مجلس الأمن الشهيد وليم حاوي. وأسفر القتال عن تحرير هذا القطاع في شهر آب ١٩٧٦، بعد قتالٍ ضارٍ استغرق أربعين يومًا. وكانت جبهات تلّ الزعتر عديدة، تمتّد من المنصورية إلى المكّلس، فحرش تابت، فسنّ الفيل، فالدكوانة، فالفنار.

***جبهة سن الفيل - النبعة:** بدأت في ١٣ نيسان ١٩٧٥. وكانت منطقة النبعة امتدادًا للكرنتينا، وهمزة وصل بينها وبين البدوي وتلّ الزعتر، وجسر الباشا. ومن أهم جبهاتها: سنّ الفيل، الأشرفية، الرميل، برج حمّود، الدورة. وقد تمّ تحرير هذه القطاعات في ٦ آب ١٩٧٦. وساهم في عملية التحرير هذه إقليم المتن الشمالي، قسم سن الفيل، وبرج حمّود، والدورة، فضلًا عن منطقتي الأشرفية والرميل.

***جبهة البدوي:** بدأت صيف ١٩٧٥. وكانت هذه المنطقة أيضًا امتدادًا للكرنتينا - النبعة - تلّ الزعتر. والغاية من الترابط بين هذه الأقسام هي ربط الجسور فيما بينها وبالمخيّمات الفلسطينيّة، وعزل بيروت عن الجبل المسيحي. وكانت قيادة هذه الجبهة منوطة بمنطقة الرميل - الأشرفية، ومن أبرز المسؤولين الذين ساهموا في تحريرها الشهيد فرج عبيد، في تشرين الأول ١٩٧٥.

***جبهة الكرنتينا (معركة الجسور):** بدأت في ١٣ نيسان ١٩٧٥،الساعة ٩:٤٥ مساءً. وكان قائدها مفوّض منطقة المدوّر في ذلك الحين جورج شعنين، يساعده القسم الأول من منطقة الرميل المشرف على جسر الكرنتينا، ابتداءً من مدخله الشمالي. وفي ١٧ نيسان ١٩٧٥، شُنّ هجوم اقتحام بقيادة فرج عبيد وجورج شعنين كاد يُكلّل بالنجاح، لو لم يحصل تدخّل سياسي تراجع المهاجمون على أثره، بعد أن كانوا قد احتلّوا مساحة واسعة. وقد أُعلن آنذاك وقف إطلاق النار. وهذه هي الجولة الأولى في حرب السنتين. وقد اشتهرت فيها هذه الجبهة، وعُرفت بـ «معركة الجسور» بالنظر إلى موقعها الجغرافي الذي يربط العاصمة بالجبل. وقد تمّ تحرير الكرنتينا في ١٩ كانون الثاني ١٩٧٦، بعد معارك ضارية استغرقت ثلاثة أيام، واشتركت فيها مناطق المدوّر، الرميل، الأشرفية، «ب.ج.»، المتن الشمالي، من

الجهة الشمالية. وكان يتولّى القيادة فيها فرج عبيد، وسامي خوري، وحبيب أبو جوده، وجورج شعنين. وأشرف على العملية كلّها وتولّى قيادتها العامة الشيخ بشير الجميّل.

***جبهة الضبيّة:** بدأت عام ١٩٧٥ بإشراف مفوّض المتن الشمالي وقيادة الشهيد كرم صدقة الذي حرّر المخيّم، يعاونه جورج رشوان، مفوّض كسروان آنذاك، وذلك في نهاية العام ١٩٧٥.

***جبهة حارة الغوارنة:** بدأت عام ١٩٧٥، وتمّ التحرير في العام نفسه بقيادة كرم صدقة.

***جبهة كمب رحّال:** بدأت عام ١٩٧٥، وتمّ تحريرها آخر العام نفسه على يد قيادة منطقة الأشرفية التي كان يتولّاها الشهيد طنّوس بيروتي، وقسم فرن الشباك بقيادة الشهيد كميل هرموش.

***جبهة الفنادق:** توالى على قيادة المقاطعة الرابعة منها مسؤولون عديدون ومفوضون من قبل القوى النظامية. بدأت في ١٣ نيسان ١٩٧٥. وقد سقطت المنطقة عسكريًا وهُجِّر أهلها في كانون الثاني ١٩٧٦، بعد مرور أسبوعين على تحرير الكرنتينا. وأول مسؤول فيها كان بول شربل، وخلفه نخله حجار، ثم انتقلت المسؤولية إلى قياديين من المناطق والأقاليم، أبرزهم: سامي خوري، حبيب أبو جوده، فرج عبيد، كميل هرموش، جورج شعنين، جورج فوريدس.

***جبهة الأسواق:** تركّزت معالمها بعد سقوط منطقة الفنادق في كانون الثاني ١٩٧٦. وتوالى على قيادتها مسؤولون عديدون. وكانت تمتدّ من المرفأ إلى المتحف وهي مقسّمة عسكريًا على الوجه التالي:

- المرفأ - دائرة السير، تولّى الإشراف عليها كمال المرّ (الأشرفية).

- فتال - القناطر - الجامع - أوتيل ريجنت، توالى على تسلّمها مندوبون من مناطق وأقسام عديدة، أبرزها منطقة الرميل، وطوارئ بيروت، والباشورة (نزار نجاريان).

- بناية الباطون، تسلّمتها جوسلين خوري، وهي من النظاميّات.

***جبهة الصيفي:** تمتدّ من الأسواق العموميّة إلى دائرة المباحث فالأمبير، فبناية سرسق، فالبيغال، فحّي التينة، فكنيسة الأرمن. تسلّمها مفوّض الصيفي آنذاك جورج الجليل، وتلاه ميشال عبريني، فنائب مفوّض بيروت جورج شعنين بالوكالة، حتى عُيّن أبو يوسف (وليم نعمان). وأخيرًا عُيّن سيمون تيّان. ويشرف على هذه المنطقة، منذ العام ١٩٧٥ رئيس منطقة الصيفي شاكر عون.

***جبهة التباريس:** منذ ١٣ نيسان ١٩٧٥، كانت باستلام منطقة الرميل حينًا، ومنطقة الأشرفية (القسم العاشر) حينًا آخر. وأوّل من تولّى القيادة على هذه الجبهة هو شارل حصري الملقّب خريستو.

***جبهة الصخرة:** تمتدّ من منزل الرئيس الأعلى حتى السوديكو. وقد تسلّمتها فرقة الصخرة بقيادة فؤاد الشرتوني.

***جبهة السوديكو - البرجاوي - الليسيه - المتحف:** تسلّمتها منطقة الأشرفية، وتوالى على قيادتها الشهيد طنّوس بيروتي، وكمال المرّ، وميشال جبّور، وسليم جلخ، ومارون ثابت.

***جبهة بيروت - الأسواق:** كانت وما تزال تابعة لمفوضيّة بيروت. وقد تولّى قيادتها، منذ العام ١٩٧٥ جورج شعنين ثمّ أنشئت مجموعة عسكريّة دعيت «طوارئ عمليّات» ثمّ «طوارئ بيروت»، وتولّى رئاستها أنطوان خوراسنجيان، وكانت مهمّتها دعم مختلف النقاط والفرق على طول امتداد الجبهة، ثم عُيّن مفوّض بيروت كمال المرّ، وتلاه مسعود الأشقر، فجوزف جبيلي. وقد أنشأ مسعود الأشقر، وحدات دفاع بيروت ١٩٨١، وكان رئيسًا لها، وتولّاها بعده جوزف الزايك في ٣١ تشرين الأول ١٩٨١. وفي نيسان ١٩٧٨، نشبت معركة بدارو لمّا تحرك السوريّون لدخول هذا الشارع واحتلاله من جهة الطيّونة. وقد عُهد آنذاك إلى مفوّض بيروت جورج شعنين بالتصدّي للمهاجمين وردعهم بالقوّة. وصدر الأمر بهذا الشأن من القائد العام الشيخ بشير الجميّل، فنشبت معركة ضارية في بدارو، واشتركت فيها طوارئ بيروت، مع قسم بدارو وقسم فرن الشباك. فصُدَّ الجيش السوري وعجز عن دخول بدارو، ثمّ أعلن وقف إطلاق النار، واتخذ قرار بإحلال الجيش السعودي محل السوريين على جبهة الطيونة - بدارو - عين الرمانة - غاليري سمعان.

توالي المعارك واحتدام القتال

في أول تموز ١٩٧٨ احتدم القتال من جديد على جبهة بيروت - الأسواق، على أثر المعركة التي خاضتها الكتائب ضد الجيش السوري، وعُرفت بِاسم «حرب المئة يوم».

تسلّمت جبهة الأسواق آنذاك مجموعة «طوارئ بيروت» لتفرغ المناطق والأقسام، فتسهل عليها مقاتلة السوريين في الداخل. وأهمّ مراحل هذا الصراع معركة بيرتي، وقد خاضتها المغاوير بقيادة جو إدّه، ثم معركة الجسور - الكرنتينا.

(منطقة المدور مع «طوارئ بيروت») وقد استشهد فيها عدد لا يُستهان به من المسؤولين، أبرزهم الشهيد الصيدلي ميشال بيرتي، ثم معركة التعاونيّة، وأبطالها المغاوير و«طوارئ بيروت»، ومنطقة المدوّر.

خلال هذه المعارك، كان بطرس خوند، المفوّض العام للقوى النظاميّة آنذاك يشرف على العمليّات ويتولّى قيادة المقاتلين مع إيلي حبيقة الذي كان رئيس الشعبة الثالثة في ذلك الحين.

وكانت معركة بلاّ في الشمال، عام ١٩٧٦، بداية مقاومة الاحتلال السوري. وكان قائدها جوزف جعجع. واشتركت في القتال عناصر الشمال بقيادة سمير جعجع، وعناصر من ثكنة S.K.S. التي كان يتولّى قيادتها ريمون أصايان.

ونشبت معركة قنات ضدّ الاحتلال السوري، فكان قائدها سمير جعجع. وقد تميّزت بإحراز أوّل انتصار كتائبي على السوريين. وأبرز من ساهم في القتال إلى جانب كتائب الشمال، عناصر المغاوير بقيادة إبراهيم ضاهر، فضلًا عن ثكنة أدونيس، بقيادة نزار نجاريان.

أما معركة شكّا، في صيف ١٩٧٦، فقد تولّى عمليّاتها الشيخ أمين الجميّل. واشترك فيها جميع القياديين والمقاتلين الكتائبيين، إنْ من بيروت أو من الجبل والشمال. والسلاح الذي كان أوفر جدوى في إحراز النصر، وصدّ العدو، والتمكّن من احتلال المنطقة والوصول إلى تخوم الكورة هو المدفعية التي كان يتولّى قيادتها طنّوس قرداحي.

وتولّى قيادة معركة صليما، عام ١٩٧٦ الشيخ بشير الجميّل نفسه. واشترك فيها عدد من الفرق والقوى النظاميّة في المتن الشمالي، ومنطقة الرميل، و«طوارئ بيروت»، وثكنة .S.K.S. وأبرز الذين نفّذوا العمليّات العسكريّة فرقة «ب.ج.» بقيادة مارون مشعلاني.

بدأت معركة زحلة في ٢ نيسان ١٩٨١. وكان قائدها جو إدّه، تسانده مجموعة كبيرة من المغاوير، ويساعده الياس الزايك. وقد انتهت في تموز من العام نفسه. وكان أبرز الذين نفّذوا عمليّاتها مجموعة حنّا عتيق إلى جانب عناصر من ثكنة أدونيس، وإبراهيم حداد إلى جانب عناصر من المغاوير. واشتهرت هذه المعركة بِاسم «معركة التلال» وكانت أشرس قتال عُرف حتى ذلك الحين. وقد خاضته القوّى النظاميّة ضد جيش منظمّ ومجهّز أفضل تجهيز عديدًا وعتادًا، ويسانده سلاح الجو.

أسلحة مجلس الأمن الكتائبي

كان مجلس الأمن الكتائبي يملك، في هذا الصراع، سبعة أسلحة هي:

١. المدفعيّة: أنشئت عام ١٩٧٦. وتولّى القيادة فيها على التوالي: طنّوس قرداحي، أنطوان بريدي، ديمتري نعمان، إيلي طنّوس.

٢. المدرّعات: أنشئت عام ١٩٧٦ أيضًا، وتولّى قيادتها تباعًا بيار جورجيو، جوزف الياس، أوغستان تاغو، نعمة الله القاعي، طوني فوتس.

٣. الطيران: أنشئ عام ١٩٧٦، وتولّى قيادته على التوالي جو قصير فالشهيد جورج زعتر.

٤. الإشارة: أنشئت عام ١٩٧٦، وتولّى قيادتها تباعًا فايق شهاب، شادي بستاني، إيميه جبر، نبيل الجمل، ريمون صوما، غسان نداّف، جاك خير الله.

٥. البحريّة: أنشئت عام ١٩٧٦. وتولّى قيادتها تباعًا أندره حدّاد، روجيه داغر، ألكسندر أنانوف، فادي الزغبي، جوزف غريّب، طوني الزغبي.

٦. الهندسة: أنشئت عام ١٩٧٦. تولّى قيادتها تباعًا ميشال روفايل، فادي افرام، جاك منش، جورج عجمي.

المكاتب والشعب التابعة لمجلس الأمن

أما المكاتب والشعب التابعة لمجلس الأمن الكتائبي فكانت خمسة، وهي:

١. **الشعبة الأولى:** تتألّف من المكتب الإداري، وأمانة السرّ التي أنشئت عام ١٩٧٦. وقد تولّى مسؤوليتها تباعًا إيلي غسطين، نبيل أبو متري، ريمون صوما، ريمون أصايان، حنّا حكيم. وتجدر الملاحظة هنا أن أمانة السر فُصِلت عن الشعبة الأولى بأمر من رئيس مجلس الأمن بطرس الخوند، وأسندت إلى أنيس أنطون. أما الشعبة الأولى، فأول من تولّى قيادتها هو ديب أنستاز في بناية سوكومكس.

٢. **الشعبة الثانية:** أنشئت عام ١٩٧٦. تولّى قيادتها تباعًا جوني عبده، ألفرد ماضي، فادي افرام، غبريال توتونجي، إيلي حبيقة.

٣. **الشعبة الثالثة:** أنشئت عام ١٩٧٦. تولّى قيادتها تباعًا فؤاد روكز، روبير عنيد، إيلي حبيقة، فؤاد أبو ناضر، أسعد سعيد، مسعود الأشقر، ريمون سعاده.

٤. **الشعبية الرابعة:** أنشئت عام ١٩٧٦. تولّى قيادتها على التوالي جوزف سعاده، مارون غزال، سامي نصّار، ريمون أصايان، ريمون عرب (من القوات اللبنانية) حبيب خوري، رجا مرقده، جاك سونيكيان، جورج جبور.

٥. **الشعبة الخامسة:** أنشئت عام ١٩٧٦. تولّى قيادتها تباعًا إيلي قرداحي، نعوم فرح، عفيف ملكون، إيلي خيّاط، أنطوان جلوان.

كانت هذه الشُعَب تُعرف بالنظام في مجلس الأمن. فالأولى هي المكتب الإداري، والثانية تضطلع بالأمن والاستخبارات، والثالثة تهتم بالعمليّات والتدريب، والرابعة تعمل في التجهيز والتموين والمواصلات، والخامسة للتوجيه والإعلام.

وهناك ثلاث وحدات كانت تابعة لمجلس الأمن من غير أن تُلحظ في النظام، وهي:

١. **سلاح المشاة:** أنشئ عام ١٩٨٢. وتولّى قيادته تباعًا الياس الزايك، جورج قزّي، جوزف الأسمر.

١. **الشرطة العسكرية:** أنشئت عام ١٩٨١. تولّى قيادتها تباعًا ريمون أصايان، جورج شعنين، جيلبير غسطين، أنطوان سماحه، إيلي لوقا.

١. **وحدات الإسعاف:** أنشئت عام ١٩٨١. تولّى قيادتها الدكتور بول الجميّل.

المفوضيات:

أوّل مفوض عام كان جورج كسّاب. وسنة ١٩٧٦، عُيّن في هذا المركز بطرس خوند (رئيس مجلس الأمن، ومفوض جبل لبنان سابقًا)، وسنة ١٩٨٢ عُيّن الياس الزايك.

مفوضية بيروت

توالى إيلي محفوض ١٩٥٩، عباد زوين ١٩٦٧، أرثور شادر ١٩٧٣، بطرس خوند ١٩٧٤، فؤاد روكز ١٩٧٥، جورج شعنين ١٩٧٦، كمال المرّ ١٩٧٩، مسعود الأشقر ١٩٨١.

مفوضية جبل لبنان

توالى عليها بطرس الخوند، إيلي حبيقة، ناجي بطرس.

مفوضية الشمال

توالى عليها نعوم موسى، إدمون صهيون، حبيب خوري، سمير جعجع، جوزف جعجع .

مفوضية الجنوب

توالى عليها لويس حصروني، جورج فرح، شكيب سماره، نزار نجاريان.

مفوضية البقاع

توالى عليها يوسف مخّول، جورج سعاده، جوزف الياس.

المفتشية العامة

توالى عليها بشير الجميّل ١٩٧٣، فؤاد روكز ١٩٧٦، رفيق عيد ١٩٨١، جورج شعنين ١٩٨٢.

رئاسة مجلس الأمن

توالى عليها وليم حاوي، بشير الجميّل ١٩٧٦، بطرس الخوند ١٩٨٢.

الثكنات وقادتها

ثكنة S.K.S. ١٩٧٦: ريمون أصايان، كمال المرّ، حبيب كرم.

ثكنة الأشرفية ١٩٧٦: كمال المرّ، ميشال جبور، سليم جلخ، مارك فلامون، مارون تابت.

ثكنة الكتيبة الأولى:)المتن الجنوبي) ١٩٧٦، لويس كرم.

ثكنة الكتيبة الثانية: (المتن الجنوبي) ١٩٧٦، جان حرب.

ثكنة ضهر الصوان ١٩٧٦، أنطوان أبو حيدر.

ثكنة تجمّع الشوف ١٩٧٦، أنطوان عنيد.

ثكنة الدامور ١٩٧٦، إيلي قرداحي.

ثكنة لبنان الجديد (ددّه) ١٩٧٦، سمير جعجع.

ثكنة قصرجيان ١٩٧٦، جان حرب، جورج مزرعاني، ناجي بطرس، أنطوان أبو جوده.

ثكنة المغاوير ١٩٧٧، جو إدّه، إبراهيم ضاهر، إبراهيم حدّاد، يوسف بعقليني.

ثكنة الرميل ١٩٧٨، ريمون نون.

ثكنة وحدات الجبل ١٩٨١، تولّى قيادتها المفوض العام آنذاك بطرس الخوند.

ثكنة أدونيس ١٩٧٩، عبّاس عبّاس، نزار نجاريان، حنّا عتيق، شارل حبيقة، جوزف ناصيف (الجعفر).

ثكنة غزير ١٩٨١، جورج أبو شديد، إبراهيم حدّاد (المظلّيين).

ثكنة غوسطا ١٩٨١، ميشال مكرزل، حبيب خوري (معهد بشير الجميّل) حنا عتيق.

ثكنة فرن الشباك - التحويطة ١٩٨٢، ايلي أبي عكر، شارل قربان.

ثكنة القطارة ١٩٧٨، سمير جعجع.

ثكنة التزلّج في فاريا ١٩٨٣، سليمان عقيقي، جوزف بطيش.

ثكنة اللقلوق ١٩٧٨، نجا خوري، فادي خوري، الياس الخوري، وليم بدر.

مراكز التدريب

قهمز كسروان-النعص بكفيا-بقليع المتن-طبريا كسروان-المدينة الكشفية البترون-غوسطا (معهد بشير الجميّل)-منطقة الكرنتينا-معهد مفوضية بيروت-حراجل-وطى الجوز-دون بوسكو-الفنار-باستثناء دورات الخارج (خارج لبنان)- والأسواق القديمة أيّام السلم.

الأقسام والمكاتب في المدن والقرى: بالمئات.

ملاحظة:

في أثناء حصار بيروت ركّزت القوى النظاميّة الكتائبيّة على فتح ثغرة لمجابهة خطّة الجيش السوري الرامية إلى عزل الجبل عن العاصمة. وقد أراد السوريّون بهذه الخطة الاستيلاء على الجسور، وأهمّها جسر الكرنتينا، للحؤول دون وصول النجدات العسكريّة، رجالًا وعتادًا، ولتجويع سكان بيروت. فقامت القوى النظاميّة الكتائبية بتوفير المواد الغذائية للأهالي، وضغطت على السوريين عسكريًا، فنشبت معارك أدّت إلى تحرير الخطّ الممتد من البيت المركزي إلى المرفأ فالتعاونيّة وجسر الكرنتينا حيث تم انسحاب القوات المعادية، واستلم قسم منها بإشراف القوى النظاميّة الكتائبية.

وكان قائد العمليّة الاستسلامية السورية بطرس الخوند، يعاونه جورج شعنين، وديب أنستاز.

أما القائد السوري المستسلم فكان المقدّم زهر الدين، وكان مركزه في التعاونيّة، والمسؤول عن الخط الممتدّ من فتّال إلى المرفأ فالتعاونيّة وجسر الكرنتينا. وقد انسحب السوريّون إلى منطقة سن الفيل - جسر الباشا - حرش تابت. وتمركزت على جسر الكرنتينا مجموعة من الجيش السوري، ثم قوى من الجيش والدرك اللبنانيين.

الفصل الثاني عشر:

إجتماع نهاريا المتوتر

حكي الكثير عن اجتماع نهاريا وتدهور علاقة بشير بإسرائيل وجرى الغمز حول مسؤوليتها عن اغتياله بنتيجة مداولات هذا اللقاء، ورفع الغطاء الدولي عنه وما شابه ذلك. وقد أشار العديد من الباحثين والصحافيين ووسائل الإعلام في مؤلّفاتهم وبرامجهم إلى لقاء نهاريا وتناقلوا مداولاته مجتزأة وخالية من بعض الحقائق المهمة. وبعد خمسة وثلاثين سنة، أجدني مضطرًا إلى أن أكشف محضر الاجتماع كاملًا من دون التعليق عليه أو محاولة تفسيره معتبرًا أنه ينطوي على ما يروي غليل الباحثين عن الحقيقة والكشف عن المستور.

والحقيقة الكاملة هي أن أركان إسرائيل اجتمعوا في جلسة مغلقة في نهاريا بحضور بشير وأمين حزب الكتائب جوزف سعادة وجورج فريحه فقط لا غير. وفي هذا اللقاء، أخذتُ شخصيًا محضر الاجتماع باللغة الإنكليزية. وأكتفي بالقول إن المحادثات فشلت لعدم تجاوب بشير مع بيغين بموضوع معاهدة السلام، لأن الرئيس المنتخب أصرّ على أن تكون المعاهدة برضا كافة اللبنانيين، والمسلمين بنوعٍ خاص، وبعد خروج الجيش السوري المتبقي في لبنان. وكان بشير يتصرّف في هذا الاجتماع المغلق كرئيس للجمهورية وكرجل دولة.

تلى لقاء نهاريا اجتماع في بكفيا بين بشير وشارون بحضور جورج فريحه فقط، مساء ١٢ أيلول ١٩٨٢، استمر ٥ ساعات حتى فجر ١٣ أيلول ١٩٨٢. وقد أخذ جورج فريحه المحضر بحذافيره كما هو مدوّن في الفصل التالي، ويتضمّن نصّ الاتفاق الذي توصّل إليه الرئيس اللبناني المنتخب مع وزير الدفاع الإسرائيلي.

وقد أصرّ بشير على أن يوقعه رئيس وزراء إسرائيل مناحيم بيغين ليصبح ساري المفعول. أتت موافقة بيغين الخطية وسلّمت لجورج فريحه في مركز إقامته في الهوليداي بيتش بواسطة سفير أميركا بالوكالة بوب باريتس عند الساعة الرابعة بعد الظهر في ١٤ أيلول بالوقت نفسه الذي حصل انفجار الأشرفية واستشهد فيه بشير.

وفيما يلي تفاصيل الاجتماعين:

إلى نهاريا

بعد ظهر ١ أيلول ١٩٨٢، دعاني بشير إلى التأهّب لتمضية ليل طويل معه، قائلًا: «قد يمتد سهرنا حتى الصباح، للقيام بمهمة على جانب كبير من الأهمية». كنت آنذاك في مكتبي، في المجلس الحربي، أفرز الوثائق والرسائل وأصّنفها لتوثيقها بالسرعة المرجوّة. فخطر لي فورًا أن «المهمة الخطيرة» التي حدّثني بشير عنها تعني أن «ليل العمل» الذي دعاني إليه سيتجاوز الغربلة الهادئة المقتصرة على حصيلة نهار العمل.

وصل بشير قبلي إلى هوليداي بيتش مركز إقامتي، فداعب أولادي، وشاركهم في أكل العنب، و«باطحهم» على الحصيرة وعلى عشب الحديقة الناعم أمام الشاليه. ثم انتقل فورًا من اللهو إلى الجد، من فرح اللعب مع الأطفال إلى موقف الرجل المسؤول في حقبة تاريخية عصيبة وحاسمة، من المداعبة إلى مواجهة قرار مصيري، فقال لزوجتي فيفيان: «لا تقلقي إذا أمضى جورج بعض لياليه في خارج البيت بعد اليوم، أو إذا طال غيابه عنكم. إننا نعمل لخير بلدنا وشعبنا. سنبني بلدًا جميلًا وسعيدًا لهؤلاء الأولاد الأبرياء!»

هذه الكلمات القليلة، في تلك الثواني السريعة تختصر بشير. تستوعب كل ما كان فيه من الحزم، والنشاط، والشجاعة، والعزم على العمل، والتوق إلى مستقبل يرفل بالازدهار والهناء.

غير أن حبه لم يكن غزلًا عاطفيًا أجوف، ولا تغنّيًا بماضٍ عظيم، ولا افتخارًا بإنجاز عابر سريع الزوال، ولا ادعاءً عنتريًا فارغًا، ولا ابتهالًا عاجزًا يلجمه الخوف ويكبّله التزمّت... بل كان قوةً أشدّ عصفًا من الإعصار، قوة حرّة، واعية، تدعمها إرادة فولاذية، وتسدّد خطاها ثقة بالنفس لا تتعثّر، ولا تتردّد، ولا تخشى السقوط أو الخيبة، لكأنه خلاصة ما في تاريخنا الطويل من قمم شامخات وعظمة باذخة، وعطاء سخي، خلاصة أولئك الجبابرة العباقرة الذين رسموا الحرف على هذا الشط، وبنوا ماخرات العباب، وشيّدوا بعلبك معجزة الزمان، وزرعوا مستعمرات الخير على كلّ ساحل، وأشعلوا منارات المعرفة تحت كلّ سماء.

غادر بشير منزلي، في ذلك اليوم، ثم عاد وأخذني معه.

إتجهنا إلى جونيه. وصلنا إلى فسحة رحبة. بدأت السيارات تتقاطر. هوذا جان ناضر، يليه جوزيف أبو خليل، وجوزيف سعادة، الأمين العام في حزب الكتائب، وفادي افرام، وزاهي بستاني.

جاء ضابط إسرائيلي. وقفنا جميعًا ننتظر طوافة تنقلنا إلى إسرائيل.

وصلت الطوافة. نقلتنا فوق البحر إلى نهاريا. إستغرقت رحلتنا ساعتين وثلاثين دقيقة.

كان استقبالنا بسيطًا، بل في منتهى التواضع. ما رأينا على المدرج غير دايف (دايفيد كمحي) وآخرين لا يتجاوز عددهم عدد أصابع اليد.

نقلونا، أو انتقلنا معهم، إلى باص صغير كان ينتظرنا. لا معالم استقبال. لا مراسيم ترحيب. لا هتاف، لا تصفيق، لا شيء يشير، ولو من بعيد، إلى أن الزائر رئيس جمهورية.

بعد عشرين دقيقة، بلغنا مصنعًا في نهاريا علمنا أنه مركز عسكري. كان ينتظرنا فيه إسحق شامير، وآرييل شارون، ودايف، وهوفي، ونامير، وبيتر، وماندي، وساغي، وستوربرت.

لم يكن مناحيم بيغين بين الحاضرين، إذ كان عليه أن يأتي من القدس، بعد اشتراكه في جلسة مهمة عُقدت في الكنيست. وما هي دقائق معدودة حتى وصل. وبدا متجهّمًا، مقّطب الجبين. ولما حيّاه بشير جاء ردّه على التحية باردًا وخاليًا من كلّ مظاهر المودّة. ثم رأيناه يعرج، وعلمنا أنه يعاني وجعًا في رجله. وما حيّانا جميعًا إلا لمّا وصلنا إلى مكان الاجتماع، وتحلقنا حول طاولة مستديرة كبيرة، عليها زجاجات نبيذ أحمر وأبيض، وأصناف من «المازة» الإسرائيلية، وهي مرقوقات محشوة بالجبنة أو اللحم، إلى جانبها بذورات. هذه «المازة» بعيدةٌ جدًا عن «المازة» اللبنانية الغنيّة بتنوعها ومحتوياتها. هنا أخذت دفتري لأدوّن ما سيقال في الاجتماع بكل تفاصيله.

بيغين: تأثّرتُ جدًا لمّا أنكرتَ ما بيننا

إفتتح بيغين الحديث بالمجاملات التقليدية: «كيف الحال، كيف بيروت؟» أجابه بشير بأن الأوضاع آخذة في التحسن، وبأن الجيش اللبناني قادر على ضبط الأمور في العاصمة خلال بضعة أيام، «ثم ننتقل إلى المرحلة الثانية».

بيغين: كيف حال بيار الجميّل، وكميل شمعون؟

بشير: على ما يرام.

كان الرئيس الإسرائيلي يتكلّم جالسًا. وبعد صمت قصير، وقف كمن يتأهب لإلقاء خطاب. وقد خفّ ذلك التجهّم الذي رأيناه على ملامح وجهه، فقال:

«أرحّب بوفدكم الكريم، وعلى رأسه الصديق الرئيس بشير الجميّل. ومع كلمة الترحيب بكم، أريد أن أعبّر عن لفتة إكبار وتقدير إلى إسحق رابين، رئيس مجلس الوزراء السابق، لأنه كان البادئ، مع حكومته، في وضع أسس الصداقة بين إسرائيل ولبنان.

«كانت علاقتنا الماضية رومنسية. بدأت بتعاونٍ خفي، فوصلت اليوم إلى صداقة علنية.

«منظّمة التحرير عاشت في لبنان ضد الشعب المسيحي طوال خمس سنوات، أوجدت فيها دولة ضمن دولة، فخنقت الحرية، واعتدت على سيادة الدولة اللبنانية. وكان هدفها إبادة المسيحيين، إن في الجنوب أو في المناطق اللبنانية الأخرى. وفي هذا السبيل، قصفت المدنيين بشراسة ووحشية. وهذا ما جعل الرائد حداد يستقيل ويعيش في إسرائيل. عمل الفلسطينيون في لبنان كأنه أصبح بلدهم البديل عن فلسطين لدرجة أن أحد قياديي فلسطين أبو أياد أعلن «أن طريق تل أبيب تمّر بجونية».

«أقف أمامكم، في هذه الليلة، لأقول: لن يهددكم أحد بعد اليوم. أصبح لبنان حرًا، بعيدًا عن الخطر. فالجيش الإسرائيلي حطّم منظّمة التحرير. جرّدها من السلاح وطردها. والجيش السوري مُني بالهزيمة. دمّرنا ٤٠٥ من دباباته. أسقطنا ١٠٢ من طائراته. وللمرة الأولى أُسقطت طائرات من طراز «ميغ - ٢٥»، وأُبيدت

إحدى وعشرون بطارية من صواريخ «سام ٦ و٧ و٢٩». ألوية عديدة من الجيش السوري تضعضعت وتبعثرت، فأمست سوريا عاجزة عن محاربة إسرائيل. وحافظ الأسد يعرف الآن أنه إذا فكّر بمواجهتنا فسيتحطم جيشه بسرعة.

«إن سوريا لا تعترف بلبنان. ولا تقيم علاقات دبلوماسية بينها وبينه. والسوريون جميعًا سيغادرون لبنان. وستأتي المرحلة الثانية، وتليها الثالثة.

«في المرحلة الثانية، سيغادر المخرّبون الشمال والبقاع والأراضي اللبنانية كلّها. سنباشر تنفيذ هذه المرحلة غدًا. أما في الثالثة، فسيتم إخراج مختلف القوى الغربية من لبنان. وأنا، بصفتي رئيس مجلس الوزراء الإسرائيلي أعلن أن جيش إسرائيل هو غريب أيضًا.

«إتخذ السوريون من لبنان منطلقًا لمجابهة إسرائيل. والعملية التي قمنا بها ترمي إلى «صيانة أمن الجليل». وقد كانت ناجحة إلى أقصى حد.

«نحن اليوم في نهاريا بعيدون عن أي تهديد. الجيش السوري هو جيش احتلال. في المرحلة الثالثة سنخرجه من لبنان. ونحن بدورنا سنخرج في الوقت نفسه، الوقت الذي فيه يخرج الجيش السوري.

«هناك طرحان إثنان لكلّ من ينظر إلى هذا الأمر:

١. أن لا نغادر لبنان إلا بعد إخراج السوري منه. وهذا مبدأ سلبي.

٢. أن نغادر لبنان في الوقت نفسه الذي يخرج فيه السوري. وهذا مبدأ إيجابي.

جنودنا يجب أن يعودوا إلى منازلهم. وسيغادرون لبنان حين يذهب السوريّون. هذا ما تمّ الاتفاق عليه مع الولايات المتحدة الأميركية.

«يمكن أن تتمّ عملية الجلاء في غضون أسبوعين: تخرج مجموعة من السوريين وأخرى من الإسرائيليين في يوم محدّد، فتعود كلّ منها إلى بلدها. وتليهما في اليوم التالي مجموعتان أخريان، وهكذا دواليك، حتى يخرج الجيشان، في الوقت نفسه، من لبنان.

«نريد أن نعيش بسلام مع لبنان. ومتى انتهت مرحلة الجلاء، سيولد لبنان جديد. وسيولد أمل جديد يمهّد لمستقبل مزدهر بعد معاناة طويلة.

«سينشأ لبنان سيد، حرّ، ديمقراطي، مستقل. لبنان المستقبل يجب أن يبني جيشًا قويًا مزوّدًا بأحدث عتاد. ومن حيث أنا صديق لكم أستطيع القول إنه لا يجوز مطلقًا أن يتفكّك الجيش اللبناني. فعلى ضباط جيشكم أن يكونوا أوفياء لرئيس الجمهورية ولقائد الجيش. من ألف باء الديمقراطية أن يكون الجيش خاضعًا للسلطة المدنية. ومن واجب لبنان أن يحافظ على أمنه الداخلي على يد أجهزة فعّالة، فلا يفاجأ بعصيان، ولا يؤخذ على حين غرة. ونحن على أتمّ الاستعداد لمساعدتكم في هذا المضمار.

«حضرة الرئيس،

«منذ العام ١٩٤٨ حتى هذه الليلة، كان بَلَدانا في حالة حرب. وها نحن الآن أصدقاء. إلا أننا، على الصعيد الرسمي، ما نزال في حالة حرب. يجب إنهاء هذا التناقض.

«حضرة الرئيس،

«تأثّرتُ جدًا لمّا أنكرتَ ما بيننا. إسرائيل تستحق منك أكثر من ذلك. أميركا وفرنسا والآخرون ما ساعدوكم. نحن ساعدناكم. لا نطلب ثمن ما عملنا. لا نمنّ عليكم. لا نطالبكم بعرفان الجميل. لقد قمنا بواجبنا. الرئيس شمعون أعلن أن لبنان لن يوقع معاهدة صلح مع إسرائيل. فيما نحن ما ترددنا في تلبية ندائكم. تعهدنا بإنقاذكم. أعطيناكم حريتكم. قطعنا لكم عهدًا من القلب. أدهشني قول الرئيس شمعون أيضًا لما أعلن أن لبنان يحتاج إلى العرب، ومساعدة العرب. هذه «برشانة» مرّة يصعب عليّ بلعها. فكيف يمكن أن يقول الرئيس شمعون إن لبنان عاش برفاهية بفضل مساعدة العرب؟

«وقال شمعون أيضًا إن مصر بلد فقير، وهذا ما جعلها توقع معاهدة سلام مع إسرائيل. وهذه «برشانة» أخرى أشدّ مرارة من الأولى. فهل يعني هذا القول إن الفقير يوقّع معاهدة السلام لأنه يجب أن يبقى فقيرًا؟ وهل المال هو الذي سيقرر نوع العلاقات التي ستقوم بيننا؟

«علاقاتنا يجب أن ترتكز على الكرامة والشرف. والحرب يجب أن تنتهي إلى الأبد. من أجل ذلك، لا بد من توقيع معاهدة سلام.

«نحن أحرار. دولتانا حرتان. لا حرب بعد اليوم. ولا دم يُهرق. السلام لنا. هذا ما يجب أن يكون بإرادتكم الحرة. إرادتكم الحرة هي التي تجعلكم توقعون معنا معاهدة سلام. وسيكون ذلك باللغتين: العبرية، والعربية. نوقّع النسخة العبرية في القدس، والعربية في بيروت. كنت أقول إنك ابني، وأنظر إليك كأنك ابني. وقد أصبحتَ رئيسًا، فلم أعد قادرًا على ذلك القول وتلك النظرة. فأنت الآن صديقي، فلتنعكس صداقتنا إيجابيًا على دولتينا.

«بنينا صداقتنا تدريجًا. فهيا بنا لنبني اليوم علاقاتنا الوديّة، وننسج أواصر صداقتنا في حقول الاقتصاد، والصناعة، وأمور أخرى عديدة. في وسع بلدينا أن يعملا معًا، وأن يجعلا عملهما جدّيًا ومجديًا في مختلف الميادين. ونستطيع أن نعمل معًا في الحلبة الدولية. فإلى جانب معاهدة السلام، ثمة صداقات على الصعيد العالمي يمكن أن نفيد منها، وأن نتبادل الفائدة فيما بيننا.

«هذا ما أتصوره وأقوله في هذه الليلة.

«نأمل أن يعمّ السلام الشرق الأوسط. لن تجرؤ سوريا بعد اليوم على مهاجمة إسرائيل ولبنان. الأردن ما فكر يومًا بمهاجمتنا. يخيّل إليّ أننا قد وصلنا اليوم إلى مرحلة السلام في هذا الشرق الأوسط، وأن هذه المرحلة ستمتدّ على مدى أربعين عامًا، أو عشرين على الأقل، لا أدري...

«لا أقول إنكم لن تواجهوا صعوبات، من نوع عمليات الانتقام مثلًا. هذا يمكن أن يحصل. ولكن المشكلات الكبيرة والخطيرة قد حُلّت. عدوّنا قد تحطم. لنشكر الله على ما أنجزنا.

«خسرنا ٣٤٠ من أطيب رجالنا، ولا سيما من المغاوير. وكان شعار ضباطنا وجنودنا: «إتبعوني!» بدلًا من: «إلى الأمام سِر». مئات منّا جُرحوا وأعيقوا. خسرنا كثيرًا بالنسبة إلى جيل واحد من أجيالنا. إنها حقيقة المأساة، وهي مفجعة! هذا قدر الناس حين يدعوهم الواجب. فهو يحتّم عليهم أن يعملوا مهما تكن النتائج، ومهما يشتدّ الألم.

«نحن سعداء بأنك، أنت، بشير الجميّل، قد انتُخبت ديمقراطيًا رئيسًا للجمهورية. وأستطيع القول الآن إن لك صديقًا في القدس، كما إن لنا صديقًا في بيروت. بلدانا قديمان جدًا، ومتحضّران. تحمّلا أشد الصعاب ليدفعا ثمن الحرية والاستقلال. وعهدنا للتاريخ أن نضمن لكل منهما، لكم ولنا، السلام والحرية».

بشير: إنتُخبتُ من غير أن أكون مدينًا لأحد

هنا توقف بيغين عن الكلام. وبدا راضيًا عما قال، مكتفيًا بما قدّم، فرد عليه بشير :

«ساعدتمونا خطوة خطوة لنصل إلى ما وصلنا إليه. قلتم لنا إنكم لن تتخلّوا عنا، فوفيتم بوعودكم، ونلنا منكم الدعم. ومن حسن حظنا أننا حظينا بهذا الدعم وتلك المساعدة بلا قيد أو شرط. والآن يا حضرة الرئيس، أصبح صديقك رئيس الجمهورية اللبنانية. وسنسعى خطوةً خطوة لاقتلاع ٥٠٠ ألف إرهابي من لبنان. لن يكون بعد اليوم إرهابي في لبنان. وفي المرحلة الثانية، سنُخرج السوريين من بلدنا. لا نريد أن يخرج السوريون والإسرائيليون في وقت واحد، فالسوريون يغادرون أولًا ثم الإسرائيليون. وفي المرحلتين الثالثة والرابعة، سنعمل على إعادة الاستقرار إلى لبنان. وقد تكون هذه المرحلة هي الأولى والأهم اليوم. لا ضرورة لعمليّة تطبيع بين شعبينا. فأنا سأعمل، بصفتي رئيسًا للدولة، على تحقيق أحلامنا، والقيام بواجبنا من خلال عملية سياسية تضمن التحالف بيننا لخدمة مصالح شعبينا.

«إنتُخبت رئيسًا من غير أن أكون مدينًا لأحد. وسأسعى لأفي بالوعود التي قطعتها لشعبي. خسرت ابنتي وخمسة آلاف شهيد، فضلًا عن مئة ألف قتيل مدني. علينا اليوم أن ننفّذ ما تعهدنا به لإقرار السلام. سنسعى معًا إلى بلوغ هذا الهدف. سنفاوض، وسنتغلّب على مختلف العراقيل لنبلغ النتائج التي نرمي إليها.

«ربحنا الحرب اليوم بفضل مساعدتكم ودعمكم. وستكون ثمرة هذا الإنجاز صالحة لشعبينا. كنت أنت سيدًا عظيمًا. وسنتفاوض معك لنحقق أحلام بلدينا. كنا نصلّي في كنائسنا قبل أن نعرفك. والآن سنتفاهم معك على تثبيت السلام.

أشكرك وأشكر شارون، وشامير، ورفول، والموساد. وأملي وطيد بأننا سنتفاوض، بعد تحرير كلّ لبنان، للوصول إلى تحالف عميق. أكرر أنك كنت دائمًا سيدًا كبيرًا».

إكتفى بشير بهذا الردّ الوجيز، فرُفعت الكؤوس، وشُربت الأنخاب، ثم أعرب مناحيم بيغين عن رغبته في انتقال ممثلي الجانبَين، اللبناني والإسرائيلي، إلى إحدى الغرف، لعقد خلوة شبه سرية، فجاء منهم بيغين، وشارون، وشامير، والجنرال هوفي، وساغي، ومنا بشير، وجوزيف سعادة، وجورج فريحه.

الاجتماع المغلق: كلام كبير وتوتّر

كان بيغين أول المتكلمين في تلك الخلوة فقال: «أُصرُّ إصرارًا شديدًا على ضرورة عقد معاهدة سلام بيننا. وعلينا أن نبادر فورًا إلى تهيئة قاعدتها والجو الذي يلائمها. فشعبنا في إسرائيل بدأ يهزأ بنا. يسألنا: أين بشير؟ ما باله لم يقل حتى الآن ولو كلمة واحدة مهمة بيننا وبينه؟»

ووجه كلامه إلى بشير مستطردًا: «قلْ شيئًا من حين إلى آخر، أوعز إلى أصحابك بأن يقولوا شيئًا. السلام بيننا يجب أن يحلّ حلولًا طبيعية على مدى سنوات. وسيكون التعامل فيما بيننا خفيًّا. أنا تسلّمت الحكم فأعلنت عزمي على مساعدتكم. أنت أتيتَ إلى الرئاسة فما تفوهتَ بكلمة واحدة. ظهرت على شاشة التلفزيون وما قلتَ شيئًا حسنًا بشأن إسرائيل، لم تقل إنه لا يجوز أن تكون حرب بعد اليوم بين الإسرائيليين واللبنانيين».

هنا تدخّل بشير فقال إن الشعب اللبناني في المناطق الحرّة سيقوم بتظاهرة ضخمة ضد عرفات ومنظّمة التحرير ردًّا على الوداع الحار الذي قام به رئيس الوزراء وجنبلاط وغيرهم للفلسطينيين المبعدين عن أرض لبنان. وأكد أن شعارات ستُرفع وفيها تعبير عما بيننا وبين إسرائيل من أواصر الصداقة وروابط المودّة والتفاهم، وخاصة عن الشكر لما قدّمته من تضحيات لكسب الحرب ضد الفلسطينيين وبالنتيجة إخراجهم من لبنان».

أجاب بيغن: «هذا لا يكفي». ثم استطرد: «لا أظن السوريين قادرين على أن يقاتلوكم بعد اليوم. نحن في لبنان للدفاع عنكم. سنُخرج السوريين. لقد ولّى هذا الكابوس. لا يجوز أن يبقى مسلّطًا عليكم، لأنه قد يؤثّر مستقبلًا في العلاقات القائمة بيننا وبينكم. كان الرئيس شمعون، فيما مضى، مناوئًا عنيفًا لإسرائيل. والضرورة تقضي بأن نبدأ اليوم مرحلة صداقة. وإذا تلكأتم، ظنًّا منكم أن إعلان هذه الصداقة يعرقل مساعيكم في تهيئة النفوس وتذليل بعض العراقيل، فسيمرّ وقت طويل قبل وصولنا إلى تحسين علاقاتنا. قالت دمشق إن السوريين سيغادرون لبنان. والروس أنذرونا مرّتين، عن طريق سفارة فنلندا، لنخرج نحن أيضًا. ما أجبتُهم. كانت برقيتهم بلا عنوان وبلا توقيع».

أجاب بشير: «التصريحات المعلنة بالغة الخطورة والخطر. إنها تهدّد مصير نصف مليون مسيحي يقيمون تحت سيطرة السوريين والفلسطينيين. نحن على كامل الاستعداد عندما يخرج السوريون وتنعدم السيطرة على نصف مليون مسيحي».

هنا تكلّم بيغن وشارون معًا، ليقولا إن السوريين لا يستطيعون القيام بأي هجوم، وإن الإسرائيليين هم أيضًا في وضع تذمّر، «فالجنود يسألون كلّ يوم: لماذا نحن في لبنان. ومع ذلك لم تُقَلْ من جانبكم كلمة واحدة، ولو للاعتراف بالجهود الكبيرة التي بذلناها من أجلكم. وأنت شخصيًا، أثنيت على مشاة البحرية الأميركيين والإيطاليين والفرنسيين، فلِمَ لم تقل كلمة واحدة عنا نحن؟ إذا كان السوريون سيغادرون لبنان تحت الضغط، فنحن سنغادره تلقائيًا وبإرادتنا. فأسمِعْنا كلمةَ شكر واحدة. ما قال أحد منكم إننا أنقذناكم. سكوتكم هذا سيكون له تأثيره البالغ في علاقاتنا المستقبلية».

هذا ما قاله بيغن وشارون، تارةً معًا، وطورًا بالتناوب. ثم تكلّم بيغن وحده مخاطبًا بشير: «ما طلبتُ إليك شيئًا قبل انتخابك. أما اليوم فأنت الرئيس. قال الرئيس شمعون إن لبنان لن يعقد معاهدة صلح مع إسرائيل. أبوك أيضًا قال إن لبنان جزء من العالم العربي. وهو يعني أنه لا يوافق الآن على عقد معاهدة سلام معنا. وإذا كنت أنت أيضًا لا تريد هذه المعاهدة، فقُلْ كلمتك بصراحة، وسنبقى ٣٠٠٠ سنة أخرى من دون سلام. ألا ترى أن عليك أن تشكر أولئك الذين خلّصوك من الفلسطينيين؟»

أجاب بشير: «نعم أنا اليوم رئيس لبنان، كلّ لبنان بمسيحييه ومسلميه وأودّ أن أكسب ثقة المسلمين الذين يكوّنون نصف سكان لبنان وذلك بإقناعهم أنه من مصلحة لبنان أولًا أن نعقد مع الإسرائيليين معاهدة سلام، فلأجل ذلك أريد بعض الوقت».

وسأل شارون: «هل صحيح أن المسلمين يفرضون شروطًا للتعاون معك، ومنها الامتناع عن عقد معاهدة سلام معنا؟»

أجاب بشير على الفور، وبلا تردد: «نعم».

وسأله بيغن: «وهل ستذعن للابتزاز، وترضى بأن يحلّ محلّ صداقتنا؟»

ردّ بشير: «بلدنا كلّه سينهار إذا صرّحت اليوم برغبتي في عقد معاهدة سلام معكم قبل موافقة المسلمين».

قال بيغن: «لا أريد أن ينهار بلدك. وفّقك الله. ولنضع حدًّا لهذا الحوار».

وكان كلامه هذا يعني بوضوح أنه يريد أن تُطوى صفحة هذا الموضوع.

ولكن شارون أبى إلا أن يتابع الحديث، فقال: «وافقنا على أن لا نتدخّل عندكم قبل انتخاب رئيس الجمهورية. أما الآن فقد تمّ انتخابك. وإذا لم توقّع معاهدة سلام بيننا، ستكون وحدة لبنان على المحك. ولا تنسَ وجود سعد حدّاد مع قسم من لبنان بيده».

وكان شارون يشير بقوله هذا إلى نوع من عصيان سعد حدّاد، فأجابه بشير: أرى محادثاتنا هنا «حولاء» (crossed eyes). إن ما تريدونه هو مطلبي أيضًا. خلافنا إذًا لم يعد على عقد، بل على الأسلوب، وعلى طريقة التنفيذ، وعلى الوقت، ولكن أهدافنا واحدة. فلنؤلّف فريقًا يضّم شخصين منكم، وشخصين منا، ليخططوا معًا صيغة المعاهدة ويدرسوا طريقة إبرامها».

سأله بيغن: «لماذا لا تصرّح بأنه يجب عقد معاهدة سلام بين إسرائيل ولبنان، ثم تعلن أن على الحكومة اللبنانية أن تتخذ القرار النهائي في هذا الموضوع؟ أعطِ أنت رأيك الشخصي، ولك بعدئذٍ أن تقول إن لبنان بلد ديمقراطي، لا تُتخذ القرارات المهمّة فيه إلا عن طريق مجلس الوزراء ومجلس النواب. إنها لخيبة كبيرة لي أنا،

أن لا أسمعك تقول بضرورة عقد معاهدة بيننا. لقد عملنا كلّ ما يمكن أن تعمله دولة لأخرى. لماذا لا تقول إن السلام يجب أن يسود بيننا؟ لماذا تتهرّب من هذا الموضوع؟ أرسلتُ إليك برقيّة وأعلنتها لئلا أحرجك». فأجابه بشير:

– التوقيت بالغ الأهميّة. لماذا انتظرتم أنت ثمانية أعوام قبل أن تبادروا إلى تحرير لبنان؟ لأنكم حسبتم حساب التوقيت واحترمتموه.

– أتريد معاهدة سلام أم لا؟، أردف بيغين بشيء من الحدّة.

– نعم أريد. ولكن لا بد من مراعاة الشكليّات.

– دعني ألخّص ما يجب عمله:

١. تعلن أنت وجوب عقد معاهدة سلام بيننا.

٢. يبدأ الإعداد لتوقيع المعاهدة.

هاتان النقطتان موضوعتان أمامك.

– سندرس هاتين النقطتين و...

– (قاطعه بيغين) إني أعيّن شامير وشارون من قبلنا. عيّن أنت إثنين من قبلك.

– ليس هذا ما أقصد. أريد معاهدة سلام. ليكن موعدنا المقبل في ١٥ أيلول. وسنلتقي في بيروت. وسيقتصر جدول الأعمال على أمرين أثنين:

– متى يُعلن عن المعاهدة؟

– متى يتمّ إبرامها؟

واستطرد بشير: «ما أخفقنا مرةً في العمليّات التي كان علينا أن نقوم بها. أعني أننا نفّذنا كلّ ما كان مفروضًا علينا. فكانت ردّة الفعل سلبيّة في إسرائيل».

وتدخّل شارون مؤكّدًا: «أي نعم، نفّذ بشير كلّ ما كان مطلوب منه. وعلى سبيل المثال، أذكر أني سألت بشير عمّا سيفعل إذا نحن ذهبنا إلى بيروت الغربيّة، فأجاب بأنه سيذهب معنا. ولقد فعل كلّ ما طلبناه في سوق الغرب، وعاليه، وكليّة العلوم. شعرتُ شخصيًا أن علينا أن ندخل بيروت الغربيّة وحدنا. ولكن بشير نفّذ كل مطالبنا. بشير كان متجاوبًا لطلباتنا ومنفذًا لتعهداته».

فعلّق بيغين بارتياح: «يسّرني أن أسمع هذا».

أجابه بشير: «التقرير الذي تلقيتموه عن كلام الرئيس شمعون مغلوط».

أجاب بيغين: «أنا سمعت شمعون يتكلّم. كم كنتُ حزينًا لمّا سمعته، خصوصًا لأنه هو الذي استنجد بنا واسترحمنا لننقذ لبنان. وقد تعهّدتُ له بتوفير المساعدة اللازمة لكم. وأكرّر الآن أن تعهّدي هذا ما يزال قائمًا. قطعتُ هذا العهد مصممًا على مجابهة كلّ الأخطار، وأهمها نشوب حرب بيننا وبين سوريا. فكانت النتيجة تصريح شمعون! إنه تصريح فتّاك».

واستطرد بيغين: «لننتقل الآن إلى موضوع سعد حدّاد. قال لي فيليب حبيب إن على سعد حدّاد أن يتقاعد، فيحصل على عفو. إلاّ أننا لا نتخلّى عن أصدقائنا، لا نسمح بضياعهم وشرودهم في الظلام. لن يكون لسعد حدّاد تقاعد، ولا هو بحاجة إلى عفو. فما هو مجرم. إنه مواطن وفيّ ومخلص».

أجابه بشير: «أشاركك احترام سعد حدّاد. لقد عمل في الجنوب ما عملته أنا في جونيه. لقد حظي منا دائمًا بالتقدير والاحترام، وأكبرنا ما فعله في الجنوب. ولكن ثمة مذكرّة جلب وتوقيف قد صدرت بحقّه، وبحقّ أحمد الخطيب وغيره من الضباط الذين اعتُبروا منحرفين عن واجبهم العسكري. سأوصي بأن يمثل سعد حدّاد أمام المدعي العام العسكري ليجيب عن أسئلة معيّنة ثم يُطلق سراحه. ويبقى حرًّا لاتخاذ القرار الذي يراه ملائمًا له في ما يختصّ بالمستقبل. فإما أن يبقى في الجيش أو أن ينفصل عنه، وسنوافق على هذا القرار ونحرص على تنفيذه. لا بدّ له من المثول أمام المدّعي العام للإجابة عن أسئلة ستطرح عليه، ثم يرى ما يوافقه. ونحن عازمون على تأييده ومساعدته. ومثوله أمام المدّعي العام يجب أن يتمّ بالطرق القانونية. فالحكومة السابقة طالبت بهذا التدبير، وعلينا أن نتابع السياق التقليدي في تصرفاتنا على هذا الصعيد».

ردّ بيغين بنبرة لا تخلو من النزق: «حدّاد حارب من أجل لبنان. أيكون جديرًا بالترقية والتشجيع وترسلونه إلى المدّعي العام؟ لن أسمح بمثوله أمام القضاء. هذا عيب. ما هو خائن. إنه صديقي، ومواطن لبناني صالح. لقد عانى الكثير في وجه العدو، فلماذا نرسله إلى المدّعي العام؟ أنت بصفتك رئيس الجمهورية، عليك أن تصالحه وترقيه وتجعله عضوًا في الحكومة. فكّر أيضًا بقوّاته. يجب أن ينخرط مع

هذه القوّات في الجيش اللبناني الجديد. جازف الرجل بحياته دفاعًا عن وطنه وشعبه. أنت ما قابلته منذ سنوات. إنه دافع عن جنوب لبنان بشجاعة. أليس من حقه أن نعترف له بهذه المكرمة؟ كان يؤيّدك، وهو شديد الميل إليك لا إلى الآخرين. لم نترك أصحابنا وحدهم في الشدائد، ولن نتركهم أبدًا».

وقال شارون: «نحن نعرف الجيش اللبناني معرفةً تامةً. كان حدّاد ضابطًا جيدًا، بل أفضل من الضباط اللبنانيين الآخرين. بسط سيطرته على بقعة تضّم مئة ألف أو مئة وخمسين ألف نسمة. غامر بحياته وضحّى بعدد من جنوده. وهو الآن قائد لواء ممتاز عديده ٢٠٠٠ جندي».

وقال بيغين: «سألتقي الرائد حدّاد قريبًا. أرجو منك أن تأخذ علمًا بأننا لن نتخلّى عن أصدقائنا في أيام العسر. لن يَمْثُل حدّاد أمام المدعي العام. لن توجّه إليه اتهامات. وكن واثقًا أننا لن ندعك في الضيق. قلت إنك ستعيّنه ملحقًا عسكريًا بإحدى السفارات. وسنفكّر في هذا الأمر. ولكنني لا أعتبر هذه المعاملة عادلة بالنسبة إلى أصدقائنا. أعتقد أنه يفضّل أن يعيش في إسرائيل إذا لاحقته قضائيًا. قد يطلب إلينا اللجوء السياسي وسألبّيه بلا تردّد. أقترح أن تخصّصوا موضوع حدّاد بمزيد من الاهتمام والجدّ، خصوصًا في ما يتعلق بتعيينه عضوًا في اللجنة الرباعية».

وقال شارون: «إذا تعثّرت معاهدة السلام بيننا، فسيكون مصير جنوب لبنان غير ما هو الآن، وغير ما يخطر في بالكم. فالضغط الأميركي لن يزيحنا عن خطنا ولو خطوة واحدة. وليست معاهدة السلام مهمة بالنسبة إلينا وحدنا، بل بالنسبة إليكم أيضًا. نحن لسنا بحاجة إلى ٤٠ كيلومترًا من الأرض. لن نصّر على البقاء فيها إذا استقرّ السلام بيننا وبينكم. ولا يستطيع الأميركيون أن يضغطوا علينا. فإذا شعرنا بأنه يجب علينا أن نعمل شيئًا سنعمله. إني أخاطبك بصفة كوني صديقًا لك. نحن الآن في موقف تحوّل بالنظر إلى العلاقات القائمة بيننا. لن نستعطي السلام استعطاءً. كنا على هذه الأرض، ولا نزال، منذ ٣٧٠٠ سنة. إننا مستعدون لمساعدتكم إذا شئتم. لن يُخرجنا أحد من هذه الأرض، ولن نستعطي السلام. إلا أننا نعاني ضغطًا إسرائيليًا داخليًا. سنقيم حولنا حزامًا عرضه ٤٠ كيلومترًا أو ٥٠. ولِمَ نستعطي السلام؟ لسنا محتاجين إليه.

وبعد هذه النبذة الشارونية المبطنة بشيء من الخيبة، وقف بيغين مشيرًا إلى انتهاء الجلسة، فوقف الجميع. وكانت الساعة قد بلغت الثالثة فجرًا منذ قليل.

العشاء البارد

خرج الجميع إلى الردهة الكبيرة حيث كان الباقون من أعضاء الوفدَين اللبناني والإسرائيلي ينتظرون العشاء.

كان التجهّم واضحًا على وجوه الخارجين من تلك الخلوة، فراح الموجودون في القاعة يحدّقون إلى وجوهنا، كأنهم يحاولون أن يقرأوا في ملامحها، في لمعات العيون، في أدقّ الحركات وأبسط الإشارات ما يدلّ على ما كان في ذلك اللقاء البالغ الأهمية، حتى ليمكن القول إنه كان مصيريًا.

والحقّ يقال، إننا لم نكن مرتاحين، بل لم يكن بيننا مرتاح واحد. وما استطاعت المظاهر تمويه الحقيقة، وإيهام المراقبين بغير ما كان. فالإرادتان: اللبنانية والإسرائيلية تصادمتا، تباينتا على أمور أساسيّة، وشؤون جوهريّة. فبشير حرص على أن يكون اللبنانيون شعبًا واحدًا، متضامنًا، وبيغين أرادهم طوائف متناحرة، وأحزابًا متنابذة، وفئات مختلفة المفهومات والأهداف. فلا عجب إذا تقطّبت الجباه، واكفهرّت الوجوه، وأدرك الجميع أن نتيجة ذلك الاجتماع كانت إخفاقًا، وعلى الأقل لم تحظ المباحثات بقسط يسير من النجاح، خصوصًا في نظر الذين كانوا يعلّقون عليها آمالًا كبيرة.

وما اقتصرت الصدمة على النفوس، بل تجاوزتها إلى الأجساد، ففقدنا الشهية حتى عجزنا عن تناول الطعام المُعَدّ لنا، والمعروض على المائدة أمامنا. فارتشفنا جرعات معدودات من النبيذ، وحاولنا بجهد أن نمضغ لقمات صغيرات من المقبّلات العديدة.

مكثنا على هذه الحال حوالي ثلاثين دقيقة، ثم أشار بشير بالرحيل...

ودّع الرئيس المنتخب بيغين وداعًا باردًا، بل أكثر من بارد، ولم يكن وداعه شارون وشامير والباقين من الوفد الإسرائيلي أوفر حرارة. ثم اقترب ماندي مني

وهمس في أذني قبل أن نصعد إلى الباص قائلًا: «شارون يريدك أن تبذل قصارى الجهد لتهدئة الرئيس الجميّل، والتخفيف من غيظه بعد الحوار المفتقر إلى المودّة الذي جرى في الخلوة، فليكبت بشير غضبه ريثما يتمّ لقاء آخر في لبنان يعيد الأمور إلى نصابها وتأتي نتائجه على ما يرام». وعدته بأنني سأبذل جهدي.

ركبنا الباص وعدنا إلى القاعدة حيث كانت الطوافة تنتظرنا، فنقلتنا إلى لبنان يلفّنا الصمت التام، ولم ينبس أحد منا بكلمة واحدة. وكان النعاس قد ثقل على العيون والأدمغة، فاستراحت الأعصاب، وشملنا جوّ من اللامبالاة، أو على الأقل من الاستسلام لمشيئة القدر.

في تلك الطوافة، رأيت بشير يحدّق إلى الأفق الأسود من خلال النافذة، فبدا كأنه يخطط لشيء ما في المستقبل، ليبتعد، ولو بالفكر والخيال، عن حاضر مقيت ومرفوض.

كانت الأفكار تتفاعل فيه، بل تتصارع. هذه تنبع من علاقات أقامها مع الإسرائيليين بصفته مقاتلًا يقاوم هجومًا شرسًا على لبنان ومقوّمات وجوده، وحريته وكرامته، وتلك تتسرّب من كونه رئيسًا لهذا الكيان، لهذه القيمة الحضارية التي اسمها: لبنان، وهي لا تحيا إلا باتحاد اللبنانيين جميعًا، وبتفاهمهم وتضامنهم في عيش مشترك وشعور وطني واحد.

وصلنا إلى شاطئ كسروان مع بوادر بزوغ الفجر. ولمّا نزلنا من الطوافة، دنا بشير مني وهمس في أذني قائلًا: «إحفظ تفاصيل الجلسة لك وحدك. إياك أن تطلع أحدًا على تفاصيلها. إذا تحدثتَ عنها فليكن حديثك تلميحًا. دعني أعرضها في الوقت المناسب، وبالطريقة التي أراها أوفر ملاءمة لمصلحة لبنان في الاجتماع الذي سنعقده بعد ساعات».

إنتقل كلّ منّا إلى بيته، واختلس من الصباح برهةً من نوم غير هادئ وغير مريح، وكلّنا استعداد لمواجهة يوم آخر من أيام «رئاسة بشير»، تلك الأيام الغنيّة بالمفاجآت، الحافلة بما لا يخطر في بال، ولا يساور أوسعنا خيالًا وأوفرنا استعدادًا لمواجهة المدهشات.

تقييم أولي لاجتماع نهاريا

عدنا إلى اللقاء في بيت الرئيس، في بكفيا، بعد انقضاء ثماني ساعات على عودتنا من «نهاريا». وكنا حوالي عشرين من رفقاء بشير المدنيين والعسكريين. وكانت الجلسة مخصّصة لبحث الزيارة واستخلاص نتائجها.

دعاني بشير إلى الكلام على أن أوجز ما حصل مشدّدًا على «الجو العام» الذي جرى فيه الحوار. فقلتُ، بأقلّ ما يمكن من الكلام، إن اللقاء لم يكن كما أردناه، ولا على مستوى الآمال التي عقدناها عليه، بل كان على جانب مرموق من الجفاف، فمنينا فيه بقسط من التنغيص والخيبة لا يستهان به.

إكتفيت بهذا القدر من التنويه، تاركًا لبشير مجال التوسّع في الشرح، وإعطاء ما يراه مناسبًا من المعلومات، فما أعطى منها إلا القليل. وشدّد على أن الجوّ لم يكن وديًّا، وأن اللياقة واللباقة كانتا مفقودتين. فالإسرائيليون أصرّوا على أن يتجاهلوا وضعه الجديد، وما أرادوا أن يفهموا، ولو برهة واحدة، أنه أصبح رئيس الجمهورية اللبنانية، وأن صفته هذه تفرض بروتوكولًا معينًا وأصولًا لا يجوز الانحراف عنها.

بعد هذه الملاحظات الوجيزة الكلام، البعيدة المدى بالنسبة إلى الاستياء المعتلج في نفس بشير، قرّر أن تتألف لجنة مصغّرة لمتابعة البحث، وتقييم النتائج، وتخطيط المعالجة في مختلف الشؤون المتعلّقة بهذا الموضوع. ثم حظّر على الجميع أن يتابعوا ما كان لهم من علاقات مع إسرائيل، أو أن يقيموا علاقات جديدة.

وممّا زاد الوضع تأزمًا، وجاء «ضغطًا على إبّالة»، كما يقولون، قيام مكتب رئاسة الوزارة في إسرائيل، بتسريب معلومات عن تلك الزيارة، كأنه أراد عمدًا إحراج موقف رئيسنا المنتخب الذي اضطر إلى تكذيب تلك المعلومات عن طريق مكتب الرئاسة.

كانت هذه «اللعبة» الإسرائيلية بشعة، وبعيدة كل البعد عن اللياقة، وحتى عن أبسط قواعد الديبلوماسية التي تبدأ باحترام نفسها لتطالب الناس بأن يحترموها، فتضاعف غيظ بشير وازداد احتدامًا، خصوصًا لأنه نال وعدًا من الإسرائيليين الذين التقاهم بأن يبقى هذا اللقاء سرًا مكتومًا لا يتسرّب منه شيء. ولما تبيّن أن هذا الوعد لم يكن جديًّا، كرّر بشير تشديده على منع أي اتصال بالإسرائيليين إلا بمعرفته وبإذن خاص منه.

مضى يومان ما توقف الإسرائيليون خلالها عن بذل أقصى الجهود، وعلى أيدي أقرب الأصدقاء إليهم، لإجراء مقابلة جديدة مع الرئيس المنتخب، ولمتابعة البحث والعمل سعيًا إلى تأليف لجنة المتابعة الرباعية التي تم الاتفاق مبدئيًا على تأليفها، لوضع أسس العلاقات الجديدة بين الدولتين اللبنانية والإسرائيلية. ولكن بشير تشبّث بموقفه السلبي، وأبى أن يلتقي أحدًا من الإسرائيليين. ولا ريب في أن هذا الموقف الحازم أكسبه ارتياحًا نفسيًا عميق الغور، فنعم بالهدوء، وتقلّصت ثورة غضبه، وهدأ ما لمسناه فيه من الغليان والاحتدام، على أثر ما حصل في «نهاريا». وهذا ما أتاح لأصدقائه فرصة ذهبية للتفكير بإيجاد المخرج الأفضل، وبإعادة المياه إلى مجاريها.

ما عرفت بشير قبلًا كما عرفته في تلك الظروف الحرجة والبالغة الدقة. الكلمات القليلة التي قالها عبرت عن الجانب الجوهري والأساسي في تفكيره. المواقف الحازمة التي اتخذها دلّت على مراميه البعيدة. جرأته في المواجهة أثبتت أنه ينظر إلى المصير النهائي لا إلى المراحل العابرة. صلابته في الدفاع عن وجهة نظره أوضحت ما يريد وما يرفض. وخلاصة تفكيره ومراميه والغاية التي إليها يسعى هي: لبنان الحر السيد المستقلّ المنيع في نطاق كيلومتراته الـ ١٠٤٥٢.

في سبيل هذا الهدف ترخص الدماء والأرواح، وتسهل الصعاب، وتُعقد الاتفاقات مع الشرق والغرب، مع الشمال والجنوب، مع البشر أو القرود، مع الملائكة أو الشياطين.

لبنان هو الأوّل. هو الوحيد. هو الذروة والثروة. هو الحياة والعزّ. هو الألف والياء، البداية والنهاية، الكرامة والشرف، الأرض والسماء، الكلّ بالكلّ.

من لا ينظر إلى بشير من هذه الزاوية، ومنها وحدها، لا يمكن له أن يعرف بشير ولا أن يفهمه. ومن لا يعرفه ويفهمه لا يستطيع أن يحبه ويحترمه ويفديه إذا دعت الحاجة.

كثيرون عرفوه معرفة عفويّة لا تحتاج إلى تفكير وتحليل. كثيرون فهموه بالفطرة والسليقة من غير أن يدرسوا ويبحثوا ويتفهّموا، ولكن كثيرين أيضًا ما أرادوا أن يعرفوه ولا أن يفهموه. فمنهم من وقف حياله لا مباليًا، ومنهم من ناصبه

العداء. وها هنا الخطأ الكبير، الخطأ التاريخي الذي جعلنا، نحن اللبنانيين نتبعثر في الحيرة، نتفرّق في الارتباك، نتشرذم في الاضطراب.

ما كان العدد يومًا قوة قاهرة. ولا كانت القوة الماديّة العمياء قادرة وحدها على تقرير المصائر. إتحاد الشعوب على مطلب حق، الاتحاد المؤمن، المستعد للبذل يدًا واحدةً، وقلبًا واحدًا، وإرادةً تفل الفولاذ... هذا وحده «القيمة» القادرة على إثبات وجودها، على فرض احترامها، على وضع ما يعتبره السطحيّون معجزة.

بشير الجميّل كان يحتضن في نفسه هذه «القيمة». كانت حرارتها تجري مع دمه، تختلج في أعصابه، تنساب صريحة، بليغة، واضحة في تلافيف دماغه.

إضطر إلى الاتصال بالإسرائيليين، لأنه في المراحل العصيبة ما رأى غيرهم يمّد له يد المساعدة.

لا يستطيع أحد أن يزايد عليه في معرفة التاريخ، في رؤية «مصالح» الشرق والغرب، في الاطلاع على ألاعيب السياسة، وخبث وسطاء الشرّ، ورياء السياسيين، ولكنه رأى نفسه معزولًا، ورأى لبنان على كفّ عفريت، فما كان له مفرّ من اللجوء إلى العفاريت. فلبنان عنده قدس الأقداس.

لو رأى من «الأشقاء» و«الأصدقاء» والذين يسمّون نفوسهم «إخوانًا» في «القومية» و«حلفاء طبيعيين» و«شركاء في التاريخ» وخلّان في «وحدة المصير»... لو رأى من هؤلاء جميعًا، أو من بعضهم لفتة محبّة، أو بادرة تعاون، أو حتى نظرة تأييد أو رضى، لما ذهب إلى «نهاريا»، ولما التقى شارون وبيغن وشامير وغيرهم.

المسؤولون عن اتجاهه جنوبًا هم الذين أحرجوه فأرغموه.

التغنّي بالشعارات الجوفاء سهل.

الاتهام بالعمالة ميسور، خصوصًا للذين يسخّرون الضمير للعراضات الغوغائية، ويكمون فمّ الوجدان بالأكاذيب الوقحة.

ولكن الإذعان للشرّ الذي يحاول قتل وطن «معبود» اسمه لبنان ليس سهلًا على إنسان له قماشة بشير، وشجاعة بشير، وإقدام بشير على مصارعة القدر.

ذهب إلى إسرائيل عازمًا على أن يكون هناك مَن هو.

ما تخلّى عن ذرّة ممّا أراده للبنان. ولمّا قوبل بالتلاعب، ارتدّ مصممًا على الرفض، والمقاومة مهما يكلّفه الأمر.

وأوضحت الوقائع أن إسرائيل أدركت حقيقة الرئيس المنتخب، وأن زعماءها اقتنعوا بأن كتف بشير لا تؤكل بسهولة، ولا حتى بصعوبة. لذلك قرروا أن يعدّوا إلى العشرة قبل الإقدام على مباحثات جديدة، وقبل أن يعمدوا إلى ذلك الأسلوب الذي يمسّ الشعور، والذي تورط بيغين فيه متذرّعًا بما يعاني من ألم في رجله.

لم يكن بشير عميلًا يوم كان مقاتلًا صغيرًا مغمورًا، بل كان حليفًا أو شبه حليف، فهل يُعقل أن يصبح عميلًا وهو رئيس الجمهورية في بلد يستأثر بكل ما فيه الحب؟



دورة برمانا مع الرئيس بشير الجميل والسيدة فيفيان الجميل فريحة - ١٩٧٢.



مع رئيس اتّحاد التزلّج الدكتور إميل رياشي في افتتاح دورة التزلّج ١٩٨٧.



مع بشير وشارل مالك وفيصل إرسلان أثناء انتخاب بشير للرئاسة.



إفتتاح مركز التزلج في فاريا مع اتحاد التزلج و١١ OCP.



إفتتاح المسبح الشعبي في المعاملتين - ١٩٨٧.



مع قائد الجيش فكتور خوري في الفياضية في عيد الاستقلال - ١٩٨٢.



مؤتمر أديناور في بون - ألمانيا - ١٩٨٨.



توقيع كتاب فرع الجامعة الأميركية مع جورج سعادة - ١٩٩٤.



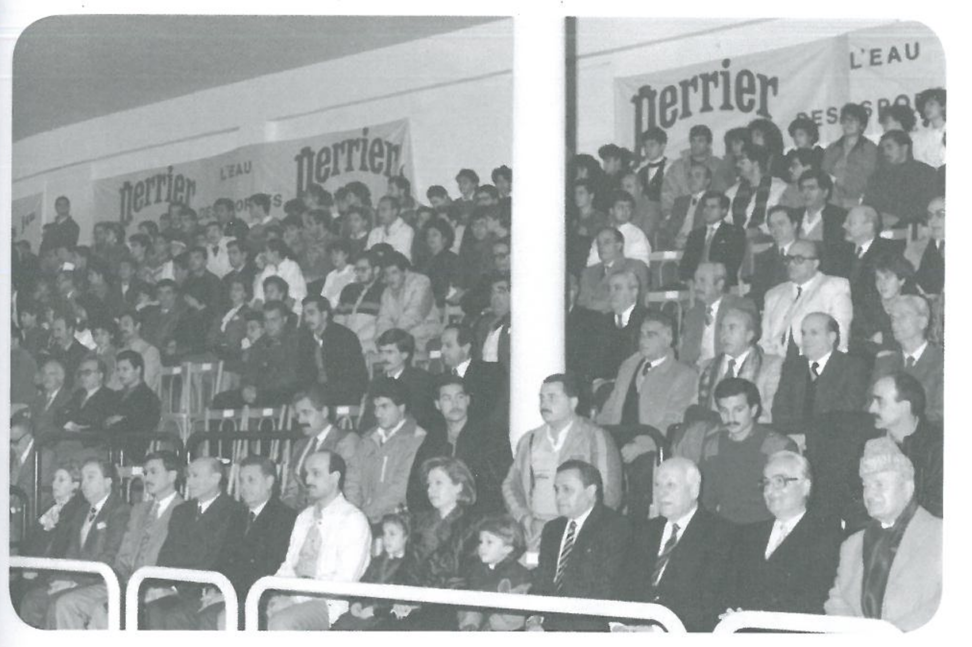
مؤتمر أديناور في بون. المحاضران جورج سكاف وجورج فريحة - ١٩٨٨.



مباراة ودية بين الجيش السوري وابناء نبتون - ١٩٩٤
ويبدو العميد زياد وحمصي وزيد خيامي.



دورة الأشرفية في ENB - ١٩٨٢.



إفتتاح قاعة بشير الجميل في ابناء نبتون ENB - ١٩٨٦.



مدرسة التايكواندو في نادي ابناء نبتون ENB - ٢٠٠١.



تكريم أقدم اللاعبين والإداريين في ENB أنطوان خضرا - ١٩٩٥.



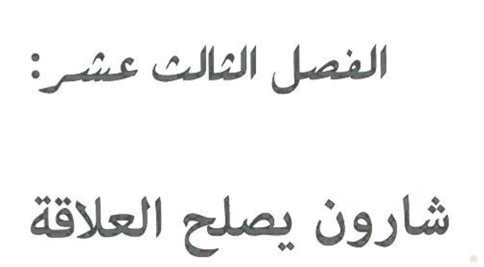
زيارة الوزير حبيقة للـ ENB - ١٩٩٥.



نهائي دورة برمانا ١٩٧٣ بحضور الرئيس كامل الأسعد. بيار أشقر يظهر في الصورة.



مع أبو الرياضة ناصيف مجدلاني في الـ ENB.



الفصل الثالث عشر:

شارون يصلح العلاقة

بعـد اتصـالات عديـدة، ومحـاولات بذلهـا الأصدقـاء والمستشـارون مـن الجانبَـين، وكنـت أنـا شـخصيًا مـصرًا عـلى انعقـاد هـذا الاجتـماع مـن أجـل لبنـان أولًا، مـن أجـل أحقيـة التاريـخ. تقـرّر عقـد لقـاء بـين بشـير وشـارون في بكفيـا، ليـل ١٢ أيلـول ١٩٨٢، عـلى أن يكونـا وحيديـن، لجـلاء الغوامـض، وفتـح صفحـة جديـدة، وصرف النظـر عـما مـضى.

وأراد بشـير أن أكـون وحـدي إلى جانبـه في ذلـك اللقـاء التاريخـي، الـذي أيضًـا بقيـت تفاصيـل مداولاتـه طـيّ الكتـمان نحـو خمسـة وثلاثـين عامًـا.

وصلـت يومـذاك قبـل شـارون إلى بيـت الرئيـس، في السـاعة السادسـة مـن مسـاء الأحـد ١٢ أيلـول ١٩٨٢. وكان بشـير يشـاهد عـلى شاشـة التلفزيـون الحفلـة التـي حضرهـا في بطريركيـة الأرمـن في إنطليـاس. جلسـتُ إلى جانبـه حتـى انتهـت الحفلـة، ثـم طلـب إليّ أن أقبّلـه لأنـه «سـمع الكلمـة» وأعطـى أخـاه أمـين دورًا بـارزًا في الحكـم، بعـد جلسـة اسـتغرقت، بحسـب قولـه، ثـلاث سـاعات، اتفـق معـه خلالهـا أن يكـون مبعوثًـا رئاسـيًا إلى الـدول العربيـة ويتـولّى العلاقـة بـين بعبـدا ومجلـس النـواب.

وصـل شـارون في السـاعة الثامنـة والنصـف. فعانـق بشـير طويـلًا، ثـم انتقلنـا إلى غرفـة داخليّـة، في وسـطها طاولـة عليهـا أصنـاف عديـدة مـن الطعـام: شرائـح سـمك السـلمون المدخّـن، قريـدس، خـروف محـشي، كبـة مشـوية، كبـة بالصيّنيـة، أنـواع مـن اللحـوم، كنافـة، بقـلاوى، أقـراص حلـوى، كاتـو، فواكـه لبنانيـة، وضعتهـا السـيدة صولانج دفعـةً واحـدة، كيـلا تضطـر إلى الدخـول، في أثنـاء الاجتـماع، لتقديـم هـذا الصنـف أو ذاك.

والمعروف عن شارون أنه بَطِنٌ شديد النهم، حتى ليكاد لا يعرف الشبع.

صُـبّ النبيـذ في الكـؤوس، وباشرنـا تنـاول الطعـام عـلى مهـل، كأننـا نمزمـز عـلى ضفـة البردوني في جـوّ مـن الأنـس والصفـاء. وكان شـارون يحـبّ العـرق اللبنـاني، فـشرب

كؤوسًا أتت على أكثر من نصف القنينة، وكانت شهيته مفتوحة على الكبّة لأنه من دون مبالغة التهم نصف صينية الكبّة.

شاء الرجلان، الضيف والمضيف، أن يتحدّثا عن الطعام، أن يُبديا آراءهما في النكهة، والمذاق، ونوع الغذاء، وسهولة الهضم، إمعانًا منهما في رفع الكلفة، وتوثيق المودّة بينهما وتعزيز الأواصر التي نسمّيها «الخبز والملح» بين أصدقاء تعاهدوا على التعاون في السرّاء والضرّاء، وهذا كلّه يرمز إلى التقارب والتآخي اللذين لا يقتصران على شخصين، بل يشملان شعبين.

هما كانا يأكلان. وأنا كنت أكتب.

إفتتح شارون الحديث السياسي سائلًا عن صحة الرئيس والرفقاء، ثم استطرد سائلًا: كيف تجري الأمور؟

بشير: إنها في تحسّن. والوضع هادئ.

شارون: شكرًا على هذه الدعوة. أنا عضو حديث العهد في الحكومة. ويؤسفني جدًا ذلك التوتّر الذي ساد الجو في لقاء نهاريا. جئت إليك من غير أن يعلم رجال الأمن إلى أين ذهبتُ ومتى أعود. أتيتُ لأرى عن كثب كيف حال الناس هنا، وكيف يعيشون.

بشير: إني لآسف جدًا لما حصل في اللقاء السابق. ولا ريب عندي أنك تدرك بأية حالٍ عدت إلى لبنان. ما توقّعتُ مطلقًا أن أصطدم بمثل ذلك الجوّ الجاف الذي واجهتموني به في أثناء تلك الزيارة... كلّ ما حدث في الجلسة التي عقدناها لم يكن منتظرًا. كان يقع بيننا، فيما مضى، سوء تفاهم، إلا إننا كنّا نجد له حلًا بسرعة وسهولة. لم نواجه قبلًا، في علاقاتنا الطويلة، وضعًا مؤسفًا كالوضع الذي واجهناه في نهاريا. في أيّام الضيق، كانت علاقتكم بنا تتسم بالطابع الإنساني الودود، وتتخذ شكلًا مختلفًا عن أشكال العمليات السياسية. وكانت اتفاقاتنا تدور عن كيفيّة إنجاز العمل، وتوفير الوسائل الكفيلة بإنجاحه، ولم يخطر في بالنا يومًا أن نضع شروطًا تُعرقِل ولا تُسَهّل... فاجأتموني بأمور لا شأن لها في وضعنا الحاضر، ولم يحن بعد وقت درسها واتخاذ القرارات اللازمة لها. أردتم أن تعلموا قبل الأوان كيف سيكون تعاملنا مع السوريين على أرضنا، كيف ستكون تفاصيل معاهدة السلام،

وحتى معاهدة الدفاع المشترك... فهل هذا ممكن في هذه المرحلة الحساسة من مسيرتنا؟ لمّا ذهبت إليكم واجهت وضعًا لم يخطر في بالي لحظة واحدة. أحسستُ أننا نتخاطب بلغتين مختلفتين، بل متناقضتين. إرتبكتُ وتضايقتُ إلى حدّ قصيّ، حتى أني لم أعد أدري عمّا نبحث، ولماذا نتحاور، وماذا نريد. وبعدئذٍ، لمّا رفضت أن أقابل أحدًا منكم، لم يكن رفضي مقتصرًا على التصلّب، بل كان نتيجة وقوعي في حيرة مزعجة، رحتُ فيها أسائل نفسي: هل يمكن أن يكون حديثنا المقبل بلغةٍ واحدة؟ هل من سبيل إلى التفاهم على مستوى يسود فيه الحق، وتصان الكرامة. أصارحك بأني خشيت أن نعود إلى ما كنّا عليه إذا نحن التقينا مرةً ثانية... وَجّه بيغين إليّ كلامه كأني فلسطيني أو سوري. ما لمستُ في كلماته ولو نبرة تُشعِرني بأني صديق. والآن، ما دمنا هنا، أرجو أن أحظى منك بتفسير لما حصل، وبالاعتبار الذي تقيّمون به ما أنجزنا على الصعيدين السياسي والعسكري. هل سنعطّل كلّ شيء، ونجّمد كلّ نشاط، لأن بيغين اجتمع بواينبرغر، وخرج من لقائه بحالٍ نفسيّة سيّئة؟ ماذا جرى؟ ما الذي أستطيع أن أفعله لك شخصيًا، أنت آرييل شارون، قبل أن نعطّل المسيرة كلّها؟ نحن صديقان. أهلًا بك. فلننسَ ما مضى.

شارون: أشكركَ على هذا الاستقبال الكريم. أريدك أن تعلم أني، بعد لقاء نهاريا، دخلتُ غرفتي حزينًا. أودّ أن أعتذر مخلصًا. لم يكن مكان اللقاء يليق باستقبال رئيس الجمهورية، إلا أنه كان قريبًا من نهاريا. ضاق بنا الوقت. لم يتيسّر لنا حتى الحصول على سيّارة لنقلّك مع رئيس حكومتنا مجتمعَين. جاء كلّ منكما وحده. فكان ما كان.

بشير: لم تكن هذه هي المشكلة!...

شارون: هناك أمور تقنيّة. سأدخل مباشرة في صميم الموضوع. سأتوغّل في الصلب. أعرني انتباهك. كان رئيس الحكومة، منذ أسبوع قبل اللقاء، متألمًا أشدّ الألم، لأنه لم يسمع منك كلمة شكر واحدة. أنا صديقك. والصداقة تحملني على مصارحتك بأمور أعتبر إطلاعك عليها مفيدًا، بل ضروريًا. كثيرون في إسرائيل لا يفهمون حقيقة الأوضاع في لبنان، كما أنّ بين اللبنانيين كثيرين لا يعرفون أوضاعنا الداخلية في إسرائيل. خضنا حربنا الأخيرة في ظروف غير مريحة واجهنا خلالها صعوبات لا يُستهان بها على الصعيد الداخلي. وجّه إلينا معارضو هذه الحرب

نقدًا قاسيًا. وهُزمتُ أنا شخصيًّا في مجلس الوزراء، ومررت بأيام صعبة، وتلقّيتُ أنواعًا من الشجب والتقريع. وتعرّض رئيس الوزراء لحملة عنيفة من المعارضة الشديدة والضغط الهائل. وفي ١١ حزيران، لمّا قابلتَه أنت، تدخّل شخصيًّا، ووضع ثقل مسؤوليته في الميزان مصرًّا على أن تدخل قواتنا لبنان، من غير أن يبالي بضجّة الاستنكار العارم التي أحدثها هذا القرار في صفوف الشعب الإسرائيلي. عقدتُ ٥٤ اجتماعًا معك، ومع جوني عبده، وفيليب حبيب، على مدى ثلاثة أشهر، ثم جئنا إليكم. مُنينا بخسائر جسيمة: ٣٤٠ قتيلًا، ٢٢٠٠ جريح إصابات كثيرين منهم خطيرة. وأنا أدرك أكثر من غيري ما تعنيه هذه الخسارة، وما هو تأثيرها في وضعنا الداخلي. كنتُ معك، ولكني كنت أيضًا مع جنودي. وكنا ننتظر جميعًا أن يقال كلام يدلّ على أن تضحياتنا لم تذهب سدىً، بل قُدِّرت حقّ قدرها. وكان هذا الأمر بالغ الأهميّة بالنسبة إلينا. ولا يصعب عليك أن تتصوّر مرارة أسفنا لمّا تبيّن لنا أننا معتبرون كإحدى القوى الموجودة على أرض لبنان، والمطلوب منها، أو المفروض عليها هو أن تنسحب... لمّا جئنا لمساعدتكم ما كنّا مدفوعين بحافز إنساني فقط، بل لأنكم دولة صغيرة مثلنا، ولأن مصيركم يشبه مصيرنا. فلمّا هاجم العراق الأكراد ساعدناهم. أرسلنا إليهم أطباء ومعاونين وجنودًا. أمضى رجالنا هناك سنوات يقاتلون في الجبال، ولم نكن ننتظر مكافأة على عملنا هذا. مددنا يدنا للأكراد لأنهم صمّموا على نيل حريتهم، وأوشكوا أن يصلوا إلى هدفهم لولا كِسنجر... أقول لزملائي الوزراء كلّما التقيتهم: إننا مصمّمون على إزالة منظّمة التحرير الفلسطينية من الوجود، وعلى اقتلاعها من الأرض التي تتحرّك الآن عليها. ولما سألتك أن تعطيني خريطة أستدلّ منها على مواقع بيوت النواب اللبنانيين ضحكتَ ساخرًا. وكذلك كان الأمر بالنسبة إليك أنت، فحين حدّثتُ الأميركيين والإسرائيليين عن احتمال مجيئك رئيسًا للجمهورية استخفّوا بقولي هازئين. قلتُ لهم: سجّلوا عليّ أن ما أقوله الآن سيكون... إنتظروا هذه المفاجأة، فضحكوا. ولن أنسى تلك الأيام من تموز وآب، حين كنت تأخذني إلى المدينة، فنتحدّث عن أعمال نستطيع إنجازها معًا. لم نكن ننتظر منك الكثير في الآونة الأخيرة. كلمات حلوة قليلة عنّا كانت تكفينا على الرغم من الجهود الكبيرة التي بذلناها، ومن التضحيات الباهظة التي قدّمناها.

بشير: سيصدر هذا الأسبوع حديث أدليت به إلى جريدة «تايم مغازين» فيه ما تريد. وإذا كان هذا ما تطلبون، فستحصلون عليه. وما عليكم إلا أن تقولوا لنا ماذا تريدون، إذا كان لكم مطلب آخر.

شارون: بيغين يحبّك أكثر مما تظن. لا ننكر أنه أُهين إهانة مريرة. وتعرّض لضغط مرهق، فبلغ استياؤه أقصى حدوده. فبعد تضحياتنا كلّها، واليوم بالذات، أطلقت علينا صواريخ « سام - ٩». أؤكد لك أننا سنضرب المعتدين، سنضربهم بلا هوادة. إننا نرفض الاستنزاف رفضًا باتًّا، ولكن تصريح الرئيس شمعون وصمّتك أنت أساءا إلينا، وخصوصًا إلى رئيس حكومتنا بيغين.

بشير: إذا كان هذا هو الطرح الوحيد فتصحيح ما تعتبرونه خطأ ممكن، بل ميسور.

شارون: سأطلعك على الأسباب التي فرضت التجهّم على لقائنا في نهاريا، ثم أحدّد باختصار ما نريده منكم. أنا واثق بأن علينا أن نتحاشى ذلك الجوّ. كان يجب أن تقال عبارة أو بضع كلمات عن تضحياتنا وجهودنا، أو عن العلاقات التي ستقام بيننا في المستقبل. هذا ما لم يحصل. إنه ماضٍ يجدر بنا أن نصرف عنه النظر الآن. لقد غادرتَ أنت نهاريا خائبًا غاضبًا. لم يرضك ما كان. أما أنا، فذهبت إلى منزلي منزعجًا. أمضيت ساعات من الأرق المرهق. هجرني النوم. يحسن بنا ألّا نتحدث عن هذا اليوم المشؤوم. أتذكّر جيدًا أنك سألتني، يوم كنّا في بيت مري: «ما الذي سنفعله، نحن اللبنانيين الأحرار، إذا نشبت الحرب؟» قلتَ هذا وحوّلتَ نظرك إلى بعبدا، ظنًّا منك أنها ستكون هي الهدف. ولكن قوّاتك، وعلى رأسها بوسي (مسعود الأشقر)، فوجئت بوصولي إلى كفرشيما في طليعة الجيش الإسرائيلي، وأنا في البزّة العسكرية، أعتمر الخوذة الفولاذيّة... لمّا وصلنا إلى بيروت قلتُ لك إننا غير مستعدّين للتوغّل في قلب المدينة. ضربناها بالمدفعية وسلاح الجوّ، ولكننا لم ندخل الشوارع. يسرّني أن يكون الأميركيون على استعداد لمساعدتك، لكنّهم لن يعطوك ما تريد من السلاح. قد تكون مساعدتهم اقتصادية إلى جانب كميّة ضئيلة من الأسلحة. دعني أختصر ما أريد قوله: في إسرائيل انزعاج وخيبة أمل. إني أنظر إلى رئيس الوزراء بيغين كأنه طالب جامعة هجرته صاحبته وذهبت إلى طالب آخر. لم يكن يتوقّع منك الكثير. كان مستعدًا للاكتفاء بكلمات طيّبة قليلة.

لو فعلتَ ذلك لتغيَّرت الصورة كليًّا. ولم يكن بيغين وحده في هذا الوضع. شعرنا جميعًا بالصدمة. هذا ما كان. ولا سبيل إلى تعديله. أما المشكلة الآن فهي أن هناك مجموعة مشكلات آنية نشأت بسرعة ولا بدّ من حلّها. لن نتخذ قرارًا بشأنها قبل بحثها، وقبل التنسيق معك بشأنها، أولًا في بيروت الغربية. لقد رحل عنها خمسة عشر ألفًا من الفلسطينيين والسوريين. ولكن فيها مكاتب ما تزال تعمل، منها، مثلًا، مكتب شفيق الحوت، فهو يتلقّى تعليمات من أحمد جبريل، وينقلها إلى جهات يهمها هذا الأمر، خصوصًا إلى أولئك الذين أبقاهم جبريل في بيروت وهناك أيضًا حوالي ألفين من جماعة جورج حبش.

بشير: معلوماتنا تقول ١٥٠٠.

شارون: ننوي أن نجعل بيروت مدينة مفتوحة وآمنة، لنتمكّن من القضاء على المشاغبين ومعكّري الأجواء. السيد درايبر أتى إلى إسرائيل منذ بضعة أيام، وسأل عمّا نعنيه «بالمدينة المفتوحة». أجبته: «نعني أني إذا دخلتها أستطيع النوم في فندق كومودور». متى سيتيسّر لي ذلك؟ ومتى أستطيع اعتبار بيروت مدينة آمنة؟ أودّ أن أعرف رأيك في هذا الأمر. ما هو تفكيرك في هذا الموضوع؟ أنا أريد أن أدخل المدينة، وأقتل الأعداء أو أحتجزهم. قل لي أنت ما رأيك في ذلك؟ كنتُ في بئر حسن، ثم ذهبتُ إلى السفارة الكويتية للقضاء على المشاغبين. من الضروري أن يؤذن لنا بدخول المدينة.

بشير: هذا غير ممكن الآن. ليس الأمن مستتبًّا.

شارون: لا أعني نفسي بما أقول، بل أعني جنودي. لماذا لم ندخل المدينة بعد؟ لأن فيها قوات متعددة الجنسيات والانتماءات. لو أننا دخلنا لبقيت هذه القوات حيث هي. وقد بذلنا جهدًا كبيرًا ليدخل الجيش اللبناني. فاليوم سيرحل الأميركيون. وبعد غدٍ يلحق بهم الإيطاليون والفرنسيون.

بشير: تستطيع دخول المدينة إذا وافقت الحكومة اللبنانية، وهذا غير ممكن اليوم.

شارون: لدينا أسئلة عديدة عن كيفيّة تنظيف بيروت الغربيّة.

بشير: الجيش اللبناني ينظفّها. إليك بمثلٍ مقنع: لمّا أراد الجيش دخول بعض المناطق، تصدّى له أنصار الثورة، فاستطاع مواجهتهم والتغلّب عليهم. إجتمعت بفئة من مغاوير جيشنا، وأفهمتهم أني لا أستطيع اليوم أن أصدر إليهم أوامر، ولكن هذه الأوامر سأصدرها بعد ٢٣ يومًا. فكانت معنويّاتهم عالية، وشعروا بأننا نفخنا في صدورهم روحًا جديدة، وجعلناهم يؤمنون بقضية، ويعاهدون نفوسهم على بذل الدماء والأرواح دفاعًا عنها. وقد بدأت نتائج استبسالهم تظهر بوضوح لا مجال فيه للشك. ففي برج البراجنة قام الجيش بأعمال جديرة بالإعجاب. وهو يتقدّم إلى الداخل. وسنحكم الطوق تدريجيًا على بيروت لتصبح كلّها في ظل السيطرة اللبنانية.

شارون: هل تريد أن تتحرّك قواتنا بحرّية في بيروت الغربية؟ أنا شخصيًا أفضّل أن تبقى قواتنا في خارج بيروت. وسنتصرّف تصرّفًا شرّعيًا مع جماعتك لقتل الفلسطينيين أو سواهم. هل تريدنا أن نشترك في هذا العمل؟ إذا قلت: لا، فنحن حريصون على أن لا نحرج موقفك. قلْ لي بصراحة، هل تريد أن تبقى قواتّنا حيث هي الآن؟

بشير: لا تدخلوا بيروت الآن. قطعًا لا يجوز أن تدخلوها الآن. إبقوا حيث أنتم. وجودكم هو بمثابة قوّة ضاغطة تجعل الجيش اللبناني أوفر قدرة على التحرّك في مناطق مختلفة، فيطّهرها وينشر فيها الهدوء والآمان.

شارون: وإذا ذهب جيشكم إلى صبرا وشاتيلا، فهل تريد أن تتحرّك قواتنا وراءه؟

بشير: أظن أن جيشنا قادرًا على العمل وحده.

شارون: أتريد أن يكون تحرك قواتنا بطيئًا وهادئًا وراء جيشكم؟

بشير: غدًا أعطيك ردّي على هذا السؤال.

شارون: هل ستذهب قوّاتنا وراء جيشك إلى المدينة الرياضيّة وصبرا وشاتيلا؟

بشير: نعم. إذا شئتَ التحدّث عن هذه التحرّكات فعليك أن تقول إن الجيش اللبناني هو الذي دخل هذه الأماكن، وإن القوّات الإسرائيلية ما جاءت إلا بعده لتأخذ علمًا بأن كلّ شيء جرى على ما يرام. في وسعكم أن تأتوا بعدنا لتروا أن

العمليّات تُنفَّذ على الوجه الملائم. لا يجوز أن يظن أحد أنكم تنسّقون مع الجيش اللبناني. نسّقوا ما شئتم مع «هورس» (فادي افرام)، وميشال عون، وأمير دروري. الجيش فوق الشبهات. وهكذا يجب أن يبقى. وليس من المستحسن أن ننتظر إلى غدٍ لنباشر العمل، فلنبدأ منذ الآن، ولتكن مسيرتنا خطوة خطوة. إننا نقوم بعملية «سلامي».

شارون: إذًا، فالوقت غير مناسب للقيام الآن بأعمال استعراضيّة في بيروت الغربيّة.

بشير: ليست هذه المنطقة آمنة. قد يتعرّض جنودكم للخطف والقتل.

شارون: لي سؤال عن المرفأ. كنا مسيطرين على قسمٍ منه. إذا كنتم لا تريدون ذلك، فإننا مستعدّون للانسحاب منه. سمعنا بأن جماعة من الإرهابيين تنوي مغادرة لبنان. وسنسحب قواتنا بعد رحيل هذه الجماعة إذا شئتم.

بشير: في وسعنا أن نستولي على المرفأ كلّه.

شارون: تريدون إذن أن نغادر المرفأ.

بشير: سنكون نحن هناك.

شارون: لنفترض أن الجيش اللبناني يتقدّم ونحن وراءه، فكيف سيكون الوضع في المستقبل؟ وما هي الحال التي سيكون جنودنا فيها متى أحكم الجيش اللبناني سيطرته التامة على الوضع؟

بشير: عندئذٍ تذهب أنت وعائلتك إلى فندق الكومودور، ونذهب نحن لنزورك هناك.

شارون: دعني أسأل عن جهاز استخباراتك. هل تستطيعون التحرّك بسرعة في بيروت الغربية؟

بشير: سيحصل تنسيق بين إيلي حبيقة وجوني عبده على أرفع مستوى. وهما ينسّقان مع جماعتك على مستوى رفيع أيضًا.

شارون: الفلسطينيون ما يزالون يبحثون عن مخابئ ليستأنفوا أعمالهم التخريبية. ومصلحتكم تقضي بأن نتحرّك وننسّق. والأفضل لنا أن نباشر عمليّة التطهير في أسرع ما يمكن.

بشير: نحن مستعدّون. سنعمل ما يجب على يد إيلي حبيقة.

شارون: ما هي المدّة التي يستطيع الجيش أن يسيطر فيها على المنطقة كلّها؟

بشير: لن تنتهي قبل منتصف تشرين الأول. ما يزال جيشنا محتاجًا إلى تعزيزه عديدًا وعتادًا ومعنويًا. ولكن السعي مستمّر في هذا الاتجاه. وسننسّق معكم. وبقدر ما يكون التنسيق قائمًا بين فادي ودروري، وبين إيلي ورجالك، تأتي النتائج سريعة ومثمرة.

شارون: إذا تلقّينا معلومات عن تحرّك أحد مراكز الفلسطينيين، كمركز شفيق الحوت، مثلًا، أو غيره، وتدخل مغاويرنا لقمعه، فما هو الموقف الذي ستتخذونه من هذا الأمر؟

بشير: إفعلوا ما تسمح به إمكاناتكم.

شارون: نفضّل التعاون معكم. متى سيرحل الفرنسيّون؟

بشير: ربما الثلاثاء. قالوا إنهم سيبقون إذا طلبت الحكومة اللبنانية إليهم البقاء، لكنها لن تطلب.

شارون: لمّا وصلت قواتنا إلى بئر حسن، اتصل واينبرغر بواشنطن التي اتصلت فورًا بشفيق الوزان ليطالب بإنسحاب القوات الإسرائيلية. نحن نفضّل ألاّ ندخل قبل ٢٣ من هذا الشهر. وبعد هذا التاريخ لن تطلب أنت إلينا أن نرحل. سنكون عندئذٍ في موقف حرج. أني أعلّل الأمل بأن يتمكّن الجيش اللبناني، في المستقبل، من الحلول محلّنا متى غادرنا لبنان. وأعتقد أنك ستجد عاصمتك مدينة موحدة، فلا يبقى أي عائق يحول دون دخول قواتنا إلى هذه المدينة.

بشير: سيكون الوضع آمنًا في مختلف الأماكن كما هو الآن في هذا المكان.

شارون: سيأتي يوم نصبح فيه محتاجين إلى تغطية منك. فنخرج فورًا حين تطلب إلينا أن نخرج. هذا سيكون بعد تطهير المدينة.

بشير: أوافق على ما تقول.

شارون: لنتناقش في موضوع الأميركيين. هم يقولون لنا دائمًا إن الحكومة اللبنانية تريد هذا وتريد ذاك. وكنت أجيبهم بأن على الحكومة اللبنانية أن تقول لنا مباشرة ما تريد. لا نريد أن تكون مباحثاتنا معك عبر الأميركيين، فما رأيك في هذا الأمر؟

بشير: أنت تعلم كم عانينا من كون الأميركيين لا يفهموننا. أنتم بذلتم جهودًا كبيرة لتغيير هذا الواقع، ولجعل الأميركيين يفهموننا. فهم الآن يعتبروننا عنصرًا مهمًا في البلد. قلت لك: إذا نشب نزاع بينكم وبين الأميركيين، فلا يجوز أن تنعكس نتيجته علينا. يجب أن نبحث كيف ستكون العلاقات في المستقبل بين إسرائيل وأميركا. نحن عانينا الكثير لأنكم ما أدركتم حقيقة الأميركيين وما فهمتموهم. لقد بدأوا اليوم ينظرون إلينا نظرة ودية ويحملوننا على مسايرتهم. ومهما يكن الأمر، فهذا موضوع على جانب من الأهمية، يستحق أن نخصّص له جلسة ندرسه فيها درسًا عميقًا وشاملًا. ويجب أن نكون نحن الثلاثة في هذه الجلسة لتوضيح الأمور على اختلاف أنواعها ومستوياتها.

شارون: لا نريد أن تزداد علاقاتنا بالأميركيين سوءًا. فهي الآن غير حميمة. لمّا أنذرناهم بأننا سندمّر المفاعل النووي في العراق ما صدّقونا. ولمّا أخبرناهم أيضًا أننا سندخل لبنان ما صدّقوا. لسنا على استعداد لمفاوضتهم. علاقتنا الآن، هي مع الرئيس بشير الجميّل وحكومته. لن نتعامل معك الآن بطريقة تختلف عن طريقتنا السابقة، هذه الطريقة المستمرّة والباقية على حالها حتى هذه الساعة. طولبنا بِاسم شفيق الوزّان بالانسحاب من بيروت. أجبنا أن على الوزّان أن يخاطبنا مباشرة إذا أرادنا أن ننسحب. لا نريد أن تكون الولايات المتحدة الأميركية ساعي بريد بيننا.

بشير: أوافق على ما تقول. فحين تأتي إلى منزلي، أو أذهب إلى منزلك، لا نحتاج إلى وسيط بيننا. أما الاتفاق الاستراتيجي والسياسي فكيف نحقّقه ونعمل به؟ الحكومة التي سأؤلفها ستكون كما أريدها، وستوقّع ما أريد، وستكون متناسقة، ولن يكون فيها الوزّان، ولن يدخلها جنبلاط، أو قليلات، أو عرفات.

شارون: لنفترض أن الحكومة أرادت منا شيئًا أو عملًا معيّنًا، فأنّي أفضّل أن أبحث هذا الأمر معك أنت، وبصورة مباشرة.

بشير: كنّا نعمل على هذه الطريقة منذ سنوات، فلماذا نغيّر اليوم نهجنا؟ إذا ألّفنا حكومة لبنانية قوية سيكون لفيليب حبيب موقف آخر. وسيكون الوضع مع الحكومة المقبلة غير ما هو الآن.

شارون: دعنا نعمل ضد السوريين. هل يزعجك هذا؟

بشير: كلا، سأكون مسرورًا، والجيش اللبناني سيساعد.

شارون: سنهاجم صنّين بسلاح الجوّ. وحين تتحرك قواتك يجب أن ننسّق معكم، وأن تكون عملياتنا مشتركة.

بشير: أنتم تعملون في الجوّ، ونحن على الأرض. ولكن لديّ نقطتان تستوجبان البحث:

أولًا: المطار، وهو يواجه ثلاث مشكلات:

الأولى: إن جماعتك تطالب بأن يعمل ضابط استخبارات من قبلكم إلى جانب جماعتنا. وفي هذا الصدد أودّ أن تعلم أن المجموعة التي ستتولى أمن المطار ستؤلّف من عناصر خاصة تابعة لزاهي بستاني وإيلي حبيقة. وهما جديران بالثقة، ويمكن الاعتماد عليهما.

شارون: نريد أن يكون في برج المراقبة شخص من رجالنا يتكلّم العبرية، ولا نريد أن نكون من ضمن استخباراتكم.

بشير: وما هي الغاية من وجود هذا المراقب؟

شارون: تحرّكنا الجوّي كثيف، وعمل رجالنا يرمي إلى تسهيل هذا التحرّك وضمان سلامة الطائرات. عندنا الطوافات والطائرات المستمرّة في تحليقها تقريبًا. لا ننوي الاستيلاء على إدارة المطار، إنما هناك موضوعان مهمّان:

أولًا: نريد أن تستطيع طائراتنا الهبوط في مطار بيروت ما دمنا موجودين في بيروت. لا نريد إدارة المطار، بل نرى وجود خبير من قبلنا أمرًا ضروريًا لضمان الأمن الجوّي، لا للتدخل في الاستخبارات.

بشير: موافق.

شارون: نريد شخصًا يستطيع التكلّم مع طيّارينا.

بشير: على مدارج المطار معدّات وآليات.

شارون: سنخرجها. ومتى وُجد رجل منّا مع جماعتكم سهّلت علينا الأعمال، ونُقلت المعدّات من المطار بلا مشكلات.

بشير: هل يمكن أن يكون هذا المطلب لبنانيًا لا إسرائيليًا؟

شارون: نعم. تفضّل وأطلب.

بشير: إعتبر طلبي موجهًا إليك، ولنرَ كيف ننجز رسميًا ما نريد إنجازه. ولنعد إلى حديثنا السابق. تحدثتُ عن النقطة الأولى وموضوعها المطار. بقيت النقطة الثانية، وهي تتعلّق بوجودكم الكثيف في الجنوب. واجهتْ جماعتنا صعوبات في هذه المنطقة خلال اليومين الماضيين. أُوقفت سيارات عليها صورتي، ومُزِّقت الصورة. كيف يمكن تفادي حوادث من هذا النوع؟

شارون: أودّ أن أبحث موضوع السلام. إنه بالغ الأهميّة بالنسبة إلينا. والسؤال الأول الذي يتبادر إلى ذهني في هذا الصدد هو: ما هي العقبات التي تعترض سبيلنا؟ ما الذي يحملك على الظن إن الوصول إلى عقد معاهدة صلح بين لبنان وإسرائيل غير ممكن؟ كيف ترى، أنتَ شخصيًا، إمكان الدخول في مفاوضات في هذا الشأن؟

بشير: ما قلنا يومًا أن عقد معاهدة صلح بيننا غير ممكن. جلّ ما في الأمر أن هذه الأيام هي الوقت المناسب للمفاوضات الرامية إلى ما نريد. إنما لدينا مشكلات علينا أن نتخطّاها. الكسليكيون زاروكم وعادوا من عندكم بالانطباع نفسه الذي أعنيه. وما ينبغي لكم أن تأخذوه بعين الاعتبار هو:

أولًا: إن السوريين عندنا. وليس صحيحًا أنهم لن يهاجمونا. هناك نصف مليون مسيحي تحت سيطرتهم. إذا عقدت معكم معاهدة صلح قبل ٢٣ أيلول، والحال كما هي الآن، فإننا سنتعرّض لردّات فعل قاسية تنصبّ أهوالها على شعبنا في المناطق المُحتلّة.

ثانيًا: أنظر إلى حدودنا. بعد انسحابكم لن تكون هذه الحدود في مأمن. سيدخل السوريّون من نقاط عديدة. هناك ١٦٠ كيلومترًا من الحدود المفتوحة. لم تعمل الدولة اللبنانية شيئًا، منذ العام ١٩٤٣، لصيانة حدودها. لم يكن لنا حزام

حديدي يحمي هذه الحدود. سينتقم السوريّون في البقاع، في زحلة وغيرها إذا عقدنا معاهدة معكم قبل أن يغادروا بلادنا.

شارون: أتظنّ أنهم سينسحبون؟

بشير: لا أظنّ. قالوا في مؤتمر فاس أنهم سينسحبون بعد انسحابكم. وهناك شأن آخر، أودّ منك أن تعرفه، ولتعرفه من الضروري أن تفهمني فهمًا عميقًا ومنطقيًا ومنصفًا. ومن أجل أن تفهمني أصارحك بأني لا أعلن عزمي على البقاء مع العالم العربي طمعًا بأموال العرب وما إلى ذلك، ولا تهمّني المصالح العربيّة في لبنان. ولكني لا أستطيع إلا أن أهتم بأمور جوهريّة، حيويّة، أبرزها أن ستين في المئة من دخل اللبنانيين، ومعظمهم من المسيحيين البالغ عددهم ٣٠٠ ألف في البلدان العربيّة، يأتينا من هذه البلدان. لا مشكلة، على الصعيد السياسي، إذا نحن قطعنا العلاقات القائمة بيننا وبين العرب، ولكن المشكلة البالغة الخطورة هي داخليّة، اقتصاديّة، توقعنا في عجزٍ مالي لا نستطيع تفاديه أو تحمّل نتائجه.

شارون: كان للمصريين مليونا مواطن في العالم العربي، وما حصل لهم شيء بعد توقيع معاهدة كمب ديفيد.

بشير: أولًا، ساعد الأميركيون مساعدة مرموقة في هذا الشأن، فهل هم مستعدّون للمساعدة نفسها بالنسبة إلينا؟ ثانيًا، لا تنسَ أن المصريين في العالم العربي هم مسلمون وليسوا مسيحيين.

شارون: لنعد إلى بحث تخوّفك.

بشير: هذه ملاحظات أبديها.

شارون: بل هي مخاوف.

بشير: إي نعم.

شارون: السوريّون سيطالبون دائمًا بلبنان. لن يتراجعوا. إنهم يريدون دائمًا لبنان. عليكم أن تدافعوا عن حدودكم. يجب أن تتحمّلوا أنتم هذه المسؤولية. حدودنا تمتدّ على مئات الكيلومترات. ولدينا وسائل الدفاع عنها. ومن الممكن أن نبحث هذا الموضوع معكم. إذا تعرّضت زحلة لخطر ما، فنحن مستعدّون للتدخّل. كنا بعيدين عنها ١٢٠ كيلومترًا فتدخّلنا. ولسنا بعيدين عنها الآن أكثر

من ١٥ كيلومترًا. لنّ تكون هناك مشكلة. أما الوضع الاقتصادي، ففي وسعنا أن نعالجه أيضًا. مليون وربع المليون من الناس يجتازون سنويًا الجسور بيننا وبين الأردن. محاصيلنا تُشحن اليوم إلى الكويت. هذا الموضوع بالغ الأهميّة بالنسبة إلينا أيضًا إنه حيوي، بل عصيب. لقد قامت بيننا أجمل العلاقات، وتوطّدت أحلى الصداقات، وتمّ أبهى التعاون، ولكن هذا كلّه حصل سرًا، من تحت الطاولة، على مدى سنوات. فلمّا أتيتُ إلى بيروت شعرتُ بالاطمئنان كأني في بيتي. نحن إنسانيون. كانت علاقاتنا طيبة بسبب وجودك أنت ووجودي. في أثناء الحرب، سقطت إثنتان من طوافاتنا من غير أن نتأثّر بشيء. يسعدني أنك سليم معافى. والله وحده يعلم ما الذي سيكون في المستقبل. وإذا أبرمتَ المعاهدة بيننا، فلن يتعرّض لبنان لأقل خطر، حتى بعد غيابي وغيابك، أو بعد تخلّينا عن مسؤوليات الحكم. فالمعاهدة تبقى بين دولتين ملتزمتين تحترم كلّ منهما واجبها بقدر ما تحرص على صيانة حقها. العلاقات بين الأمم لا ترتبط بالأشخاص.

بشير: ما هو مضمون المعاهدة؟

شارون: لنجلس ونباشر مباحثاتنا الرامية إلى السلام. لنعمل بهدوء، وليكن عملنا سريًّا.

بشير: أنتم لا تستطيعون الهدوء، ولا تجيدون التكتّم. (وكان هذا القول بمثابة غمز يشير إلى تسرّب معلومات عن الزيارة التي قام بها بشير إلى نهاريا).

شارون (وقد أحسّ بما في هذه الملاحظة من مرارة): إني آسف. ما تسرّبت الأخبار من مكتبي. اليوم، لا يعرف أحد بزيارتي هذه. فلنبقِها سريّة. ولنبحث البنود والمسائل المتعلّقة بمعاهدة السلام. وهذا ما سيتمّ متى أكملنا عملية التطبيع بين بلدَينا. أهمّ ما في الأمر يُلخّص بتعهدات غايتها الحؤول دون نشوب حرب أو استنزاف بين بلدَينا. في المستقبل، ستصبحون أقوياء عسكريًا وسنساعدكم على هذا الصعيد. وستكون التعهّدات متبادلة بيننا، على أن يُعلن بعضها، ويبقى البعض الآخر سريًا. وسيتمّ إعدادها على أيدي فريق منكم وآخر منا، فتوضع مسوّدة نشبعها درسًا وتمحيصًا.

بشير: بضائعكم تدخل بلدنا وتباع فيه أرخص ثمنًا من بضائعنا، إذ لا تُفرض عليها رسوم جمركية.

شارون: أُفرض عليها رسومًا. المعاهدة تعالج مختلف المواضيع، السياسية منها، والاقتصادية، والعسكرية وغيرها. وهناك مشكلات لا يجوز أن تنتظر إبرام المعاهدة. ويُستحسن أن نؤلّف الآن لجنة مشتركة تعالج الأمور المستعجلة. وليس من الضروري أن نلوم رئيس حكومتنا على ما بدر منه، لأنه حدّثك كما يحث الأب ابنه إذا تأثّر منه وأراد أن يحتجّ عليه.

بشير: وهل من ضرر لو أن المحادثات السابقة جرت على الطريقة التي نتّبعها الآن، وانتُهِجت فيها اللهجة المستحبّة التي نتحدث بها في هذا اللقاء؟

شارون: هذا الرجل (يعني بيغين) كان يُعاني ألمًا في رجله. وقد تألّم منك أيضًا. كان حلمه أن يراك رئيسًا. حتى أنا أكاد لا أصدق أنك وصلت. لمّا دخلنا القرى اللبنانية سمعنا سكانها يهتفون باسمك. إنهم يحبّونك ومعجبون بك. وهذا ما ساعدك مساعدة كبيرة. وقد تحّقق «الأمر» اليوم وكأنه حلم. الرجل (بيغين) كان ينتظر شيئًا منك. ولو كلمة واحدة. شنّت المعارضة علينا هجومًا شرسًا بمختلف الأساليب واللهجات. وحتى هذه اللحظة ما يزال المعارضون يطالبون بخروجنا من بيروت، وبانسحابنا إلى مسافة ٤٠ كيلومترًا عن الحدود، واستبدالنا بالقوات المتعدّدة الجنسيات، وعقد معاهدة صلح تجعل بلدَينا ينعمان بسلام حقيقي. الأمن هو مصلحة مشتركة فيما بيننا. والمعارضة تسألنا علنًا على رؤوس الأشهاد: ماذا حصل لبشير؟ ألا يقول عنا كلمة؟ كلمة واحدة؟ أنت تعلم أننا سنواجه انتخابات، وأن لهذا الأمر تأثيرًا كبيرًا علينا. يجب أن نُبقي حربنا محصورة في لبنان، وأن لا نذهب إلى سوريا. الناس في إسرائيل يسألون: ما هي النتيجة التي سننتهي إليها؟ نجيبهم: ستتألّف حكومة قوية في لبنان. وسيساعد الانسحاب السوري، ولو جزئيًا، على تأليف هذه الحكومة، وهي ستطلب انسحاب جميع القوات الغريبة من الأراضي اللبنانية. كان «الرجل» متأثّرًا إلى أقصى حد. وهو يشعر حتى الآن بأنه مغبون ومهضوم الحق. كان يطلب كلمة واحدة منك، كأنْ تقول، مثلًا، إنك تريد السلام، وترفض نشوب حرب بعد اليوم بين لبنان وإسرائيل. ومن طبعه أنه يقسو جدًا حين يستاء. أعتقد أنه من المناسب، بلّ من الواجب تأليف لجنة تبحث هذا الموضوع.

بشير: من تقترح؟

شارون: رئيس حكومتنا عيّنني مع إسحق شامير عن الجانب الإسرائيلي. سأكون أنا المحرّك الأول والموجّه في اللجنة الإسرائيلية. وكلّ شيء سيحصل من خلالي. وإني سأعيّن الجنرال شامير ليعمل مع جماعتك على إعداد ورقة العمل.

بشير: من جهتنا، أعيّن الدكتور جورج فريحه يعاونه جوزف أبو خليل وزاهي البستاني في وضع ورقة العمل.

شارون: أنت وشامير وأنا سنعمل على مستوى أرفع. وأضيف إلينا تامير ودايف.

بشير: هل يمكن إبقاء هذه اللجنة سرّية؟ أريد أن أؤلّف حكومة، وأن أبيع هذه اللجنة إلى الحكومة.

شارون: نعم يمكن. ولنعقد اجتماعًا، شامير وأنا وأنت وحدنا لترسيخ أوّل اجتماع سري بشأن هذا الموضوع. يمكن أن نعقده مساء الأربعاء المقبل في ١٥ أيلول.

بشير: موافق.

شارون: لا يجوز لنا أن نصعّب الأمور أو نعّقدها.

بشير: نلتقي إذن بعد الظهر.

شارون: ستكون جلستنا بمثابة افتتاح المحادثات، ومن شأنها أن تخفّف عنا الضغط الداخلي، وأن تخفّف من حدّة التأثر في أبناء شعبنا.

بشير: هل تريد أن نعالج الآن أيضًا موضوع سعد حدّاد، أم نتركه إلى لقاء آخر.

شارون: سنعالجه معًا معالجة خاصة، معالجة بين أصدقاء. الجنوب حيوي لأمننا إذا تعذّر علينا عقد معاهدة سلام. ولتبقى هذه الأمور سريّة، يجب أن تُبحث معك وحدك، أو مع أقرب المقربين إليك. أتريد أن نسمّيهم؟ قد يكون من الأفضل لنا تهيئة قمة مع رئيس حكومتنا. وإذا حدثت إشكالات بين فريقَي العمل على مواضيع أساسية تتدخّل أنت شخصيًا، أو أتدخّل أنا لحلّها. طلب الأميركيون إلينا أن نبيع الجيش اللبناني دبّابات. لم أخفِ عليك أبدًا أي سر. طلبوا أن نبيع ١٢ دبابة «باتون» إلى جيشكم. أجبناهم: «سنفعل إذا طلب الجيش اللبناني، هو نفسه، ذلك». لا نريد أن نبيع دبّاباتنا للأميركيين ليبيعوها بدورهم إلى الجيش اللبناني.

لدينا ألوف الأطنان من الذخائر استولينا عليها في مستودعات الإرهابيين. نعلم أن معداتكم روسية. نوّد أن تعطونا بعضًا منها، لن تحتاجوا إليها في المستقبل.

بشير: سأُعلِم فادي بكل ما يتعلّق بالمطار وبعملية صنّين.

شارون: نعم. سنضرب السوريين في هذين اليومين.

قبل الانتهاء، قال بشير أريد أن أردّد أنني كنت مستاءً في نهاريا. إننا حاربنا قسرًا وكنا على وشك الاضمحلال، لكننا صمدنا وبفضلكم انتصرنا. ولكي نقطف ثمرة الانتصار، أريد أن أطرح عليكم اتفاقًا يكون صالحًا لكم ولنا بنوع خاص. واختصر بشير الاتفاق الذي يراه مناسبًا كما يلي:

١. إخراج ما تبقى من الجيش السوري بسرعة.

٢. المساعدة على تأمين حدودنا بواسطة جيش قوّي في عديده وعتاده لربما ١٠٠ ألف جندي.

٣. إخراج آخر عسكري إسرائيلي مع الجيش السوري.

٤. محاكمة سعد حدّاد ثم الإعفاء عنه.

٥. إخلاء كافة المرافق الحيويّة في لبنان وخاصة المرفأ والمطار ومرافق الإعلام.

٦. إقامة معاهدة سِلم مع الحكومة اللبنانية بعد إقناع الطرف المُسلِم بها.

وانتهت الجلسة الساعة الثالثة من صباح ١٩٨٢/٩/١٣.

وقف شارون مودّعًا، وتعانق وبشير طوال ثوانٍ معدودة، كأن كابوسًا قد أزيل عنهما. وقال له: «أنا أوافق على شروطك لمعاهدة السلام وأقول إن غيمة سوداء قد مرّت في نهاريا ويجب أن ننساها، واطمئن بيغن سيوافق أيضًا.

كانت عيونهما تلمع سرورًا.

واستطرادًا أضاف بشير: «إني أصرّ على أن يوافق بيغن على شروطي وأن يرسل موافقته لي بأسرع وقت». وأبى إلا أن ينقل شارون بسيارته من بكفيا إلى مطار الطوافة في جونية.

جرى بينهما جدل سريع في هذا الموضوع، فكان رأي بشير هو الأرجح، فركبا سيارة واحدة واكبتها سيارتان تحملان المرافقين. وغادرا بكفيا قبل بزوغ الفجر، تحت جنح الظلام.

لملمتُ أوراقي وتوجّهتُ إلى نهر الكلب، وفي نفسي نوع من الارتياح. ولكن سؤالًا ملحًا كان يتردّد في ذهني، وما يزال: هل عادت المياه إلى مجاريها بين لبنان وإسرائيل؟ وهل تُعتبر عودتها خيرًا لنا؟

في ضوء هذه المعطيات ندرك لماذا كان شارون في حواره مكثارًا، ملحاحًا، مصرًّا، متهالكًا. ولماذا كان بشير مقلًا، هادئًا، طويل الأناة، مديد الصبر، معتدلًا في آرائه، متمهّلًا في الإعراب عن مطالبه.

الذين طبّلوا وزمّروا ليوهموا البسطاء أن بشير تعامل مع إسرائيل ليكون عميلًا لها انحرفوا عن الحقيقة، وشطحوا شطحًا بعيدًا.

بشير هو الذي «استعمل إسرائيل ليخدم لبنان»، ليجد له مساعدة تنقذه من الفناء حين رأى مساعدات الجيران والأهل تنهمر على محاولي تدميره وقتل أبنائه أو تشريدهم في أنحاء العالم.

ما أراد أن يتقدّم الإسرائيليون خطوة واحدة قدّام الجيش اللبناني ما دام هذا الجيش قادرًا على أن يتقدّم وحده.

رفض عقد المعاهدة ما دام اللبنانيون كلّهم غير مجتمعين على عقدها.

تدرّج في «عمله العام» تدرّج الرجل الواعي، الحصيف، الأصيل، المؤمن بلبنانه، الحريص على قيمة هذا اللبنان، وعلى كرامته، وحريته، وسيادته واستقلاله.

في فتوّته ومطلع شبابه، استعان بالشياطين ليصدّ هجمات «العرفاتيين» ومأجوريهم وزبانيتهم. ولما أُلقيت على كتفيه مسؤولية الرئاسة، مسؤولية القيادة الأولى، مسؤولية تقرير المصير، انقلب رجلًا كبيرًا على مستوى هذه المسؤولية الكبيرة.

الفصل الرابع عشر:

إجتماعات بشير في القصر الجمهوري

سارت التطورات متسارعة في الساعات الأخيرة من حياة الرئيس بشير الجميّل، فيما كلّ شيء كان يشير إلى أن الأمور تسير على النحو المخطّط له. فمن جهة طلب مني بشير، مساء ١٢ أيلول ١٩٨٢، عندما كنتُ في منزله في بكفيا، أن أوافيه صباح اليوم التالي في القصر الجمهوري لحضور اجتماعاته مع المدراء العامين العسكريين والمدنيين وتسجيل تفاصيل اللقاءات.

ومن جهة ثانية، وبعد لقاء بشير وشارون بساعات، باشرت إسرائيل بتنفيذ الاتفاق. فضرب الطيران الإسرائيلي الجيش السوري في لبنان بخمس عشرة غارة متواصلة، في المتن الأعلى والبقاع. وفي الغروب، اجتمع فادي افرام والجنرال دروري في مركز القيادة الإسرائيلية قرب مدرسة الجمهور ونسّقا معًا عمليّات ضرب الجيش السوري. كان الاتفاق العسكري يلحظ أن الجنرال ماير داغان سينزل في مدينة جبيل من جهة البحر ويصعد نحو اللقلوق ومنها ينزل نحو البقاع ليضرب ثلاثة أرباع مؤخرة الجيش السوري في حين أن قوات إسرائيلية أخرى تضرب مرتفعات صنّين وتتوجّه نحو مدينة زحلة عن طريق ضهور الشوير. واتفق القائدان الإسرائيلي واللبناني أن يجتمعا في اليوم التالي لينفذا العملية بتفاصيلها.

وفيما الغارات الحربية متواصلة، اجتمع بشير في اليومين الأخيرين من حياته في أحد قاعات القصر الجمهوري مع إثني عشر مسؤولًا من كبار المدراء في الدولة للاطّلاع منهم على سير أعمال الإدارات والدوائر. وفي ما يأتي أستعرض منها ما أراه ضروريا ومفيدًا.

مواعيد فخامة الرئيس المنتخب

يوم الإثنين في ١٣ /٩/ ١٩٨٢:

الساعة

١٠،٠٠ السيد كارلوس خوري، مدير عام رئاسة الجمهورية

١١،٠٠ الدكتور جورج صليبي، رئيس مجلس الخدمة المدنية

١٢،٠٠ السيد هشام الشعار، رئيس مجلس التفتيش المركزي

١٢،٣٠ السيد رضوان مولوي، مدير عام وزارة الإعلام

١٢،٠٠ سعادة سفير فرنسا يرافقه سكرتير الدولة من وزارة الدفاع

بعد الظهر

١٥،٠٠ السفير كسروان لبكي، أمين عام وزارة الخارجية

١٦،٠٠ الدكتور عمر مسيكة، مدير عام مجلس الوزراء

كارلوس خوري، مدير عام رئاسة الجمهورية

سأل بشير كارلوس خوري:

- كيف هو الوضع في القصر الجمهوري؟ أطلعني عليه كاملًا.

أجاب المدير:

- طبيعة العمل في القصر الجمهوري شأن داخلي. المفروض أن يطّلع الرئيس على كل شيء. هناك أمور تنتهي بقرار منه، وأخرى لا تحتاج إلى قرار، منها، على سبيل المثال، مشروع مرسوم عادي يتعلّق بإعطاء رخصة لأجنبي تخوّله حق امتلاك

عقار، أو منح الهويّة اللبنانية، وما أشبه ذلك. ولكلّ مشروع قانون مصيران: فإما أن يوقعه رئيس الجمهورية فيصبح نافذًا، أو أن يرفض توقيعه فيُرد إلى الإدارة التي وضعته، ويبقى لها أن تصرف النظر عنه أو أن تحوّله إلى مجلس الوزراء. وفي هذا المجلس يوضع جدول أعمال بإشراف رئيسه. وثمّة قضايا تستوجب موافقة مجلس الوزراء. والقضايا المدرجة على جدول الأعمال مصنّفة بحسب ما لها من الأهميّة، ولها أرقام: ١،٢،٣... تدلّ على مستوى هذه الأهميّة. وقد جرت العادة على أن يُعرض الجدول بما فيه من مشكلات على رئيس الجمهورية، وله أن يوافق، أو أن يعترض، أو أن يؤجّل. والتقليد المألوف هو وضع الجدول في تصرّف الرئيس مدّة ثلاثة أيام قبل القرار النهائي، ليتسنّى له أن يدرس ما يحتاج إلى درس. ولدى الرئاسة جهاز يلخّص ملفّ الجدول، ويوضح ما يحتاج إلى توضيح فيه، ولا يبقى منه سوى القضايا الجديرة بأن تطرح على مجلس الوزراء. ولكلّ وزير أن يعرض مباشرة القضايا التي يعتبرها مستعجلة أو طارئة، فتمرّ أو لا تمرّ، بحسب ما يرتئيه الرئيس وحده، وهو المرجع الأخير.

أما العرائض التي يرفعها المواطنون إلى رئيس الجمهورية، كواحدة مثلًا تتعلّق بقضيّة مجمّدة منذ عشر سنوات، فالمعاملات المرعيّة الإجراء بشأنها هي أن يستدعي رئيس الجمهورية الوزير المختّص بالموضوع المطروح، أو المدير العام، ويستفهم منه عن أسباب التأخير أو التجميد.

كانت التصادمات عديدة في هذا الشأن مع الإدارات التي تؤخّر ما يقرّره مجلس الوزراء، مما حمل الرئيس فؤاد شهاب على عقد جلسات عمل كل يوم خميس، يدعو إليها الوزراء والمديرين المختصين، ويستفسر منهم عن أسباب التأخير، وعن سير الإدارات عامةً.

وتتلقى رئاسة الجمهورية أيضًا تقارير عن الشؤون الخارجيّة، وكذلك على تقارير الجيش والأمن العام. يطّلع الرئيس بهذه الطريقة على كلّ شيء، ويبقى على اتصال مباشر بوزير الخارجيّة.

على هذه الأمور يقتصر عمل رئاسة الجمهورية في الوقت الحاضر. وتضاف إليها مواعيد يحدّدها الرئيس لمقابلة مواطنين يلتمسون منه هذه المقابلة. وتتصدّر لائحة هذه اللقاءات المواعيد المحدّدة للسفراء، والوزراء، والنواب، والسياسيين.

ثم يأتي دور المواطنين، على أن يتمّ اللقاء مرّة في الأسبوع أو كلّ أسبوعين أو مرّة واحدة في الشهر.

ومشكلتنا الكبيرة والمرهفة الحساسية التي نصطدم بها حاليًّا مصدرها رئاسة الوزارة. فهناك مسائل في منتهى البساطة تتضخّم وتتّخذ حجم «قضيّة». مثلًا، إذا أعطيت منحة إلى مواطن مسيحي، فإن تنفيذها يتعثّر إن لم تُعط منحة مثلها إلى مواطن مسلم، بما يحتّم على رئاسة الجمهورية تفادي الاصطدام برئاسة الوزارة حول شؤون من هذا النوع.

وتجدر الإشارة إلى أن فريق العمل الذي تعتمده رئاسة الجمهورية يزيد الحساسيّة رهافة عوضًا عن أن يخفّفها. فبعض الوزراء كان يرفض الاتصال برئاسة الجمهورية، ويمنع موظفي وزارته ومؤيديه من القيام بمثل هذا الاتصال. أذكر منهم، على سبيل المثال الوزير وليد جنبلاط. فاضطررنا إلى أن نكتفي بالدعوة إلى اجتماعات عمل للاطلاع على مجرى الأمور من غير أن يخطر في بالنا أن نصدر أوامر.

والحقيقة أن العمل الإداري طوال السنوات الست الماضية كان معدومًا. وهذا واضح في عدد المراسيم.

وعلى جهاز رئاسة الجمهورية أن يقتصر عمله على الدرس، أو متابعة الأحداث، أو على الإثنين معًا.

وما أراه شخصيًّا أن الدراسات كثيرة، وهي تتطلّب إحياء جهاز متابعة يكون فيه مكلّفون القيام بمهمّات معيّنة تتعلّق بموضوعات محدّدة. لا بدّ من متابعة الأمور في الوزارات والمديريّات العامة والدوائر المسؤولة لإثبات وجود رئاسة الجمهورية بكلّ ما فيها ولها من الصلاحيّات وما يترتّب عليها من المسؤوليّات.

نحن، على قلّة عددنا، اعتمدنا نوعًا من العرض نسجّل فيه المشاريع الكبيرة، وما تحتاج إليه من مهل أمنيّة لتنتقل إلى حيّز التنفيذ. ولا ريب في أنه من الضروري أن يكون رئيس الجمهورية متمتّعًا بالقدرة على التنفيذ. ومن المؤسف أن هذه القدرة كانت تتدهور من سيئ إلى أسوأ، لارتباطها بالأوضاع العامة في البلاد.

من واجب القاضي، مثلًا، أن يطبّق القانون، لكن هل كانت الأوضاع تسمح بذلك؟

كنّا، في بعض الأحيان، نحيل كلّ ما لدينا من أمور القضاء إلى المجلس العدلي، فألقينا عليه عبئًا مرهقًا أقعده وجعله عاجزًا عن العمل.

إستمع الرئيس بشير إلى هذا الشرح الطويل بانتباه وصبر عجيبين، ثم سأل المدير:

- ما هو السبيل إلى تعزيز الرئاسة؟

يجب أن ينصبّ الجهد على الإدارة الداخليّة في قصر الرئاسة لتكون قويّة، يقوم فيها كلّ مسؤول بما تفرضه عليه مسؤوليته بكل أمانة وإخلاص. فإدارة القصر هي إدارة واحدة. والرئيس هو رئيس واحد للبنان واحد. وهكذا يجب أن تكون الإدارة، فلا تنقسم إدارتين أو أكثر.

الرئيس: ما العمل لنصل بها إلى هذا المستوى المنشود؟

المدير: إذا أحسنّا الاختيار، سهلت علينا المهمّة.

الرئيس: إختيارنا حسن وهو فاصل وجازم ونهائي.

المدير: نبدأ بمشروع لتنظيم إطار الرئاسة. الإطار الحالي لا يفي بالحاجة. يجب أن يضاف إليه موظّفون ذوو كفاءة، ولدينا متعاقدون قادرون على القيام بهذه المهمة. ولكن هناك سؤال لا بد من طرحه: هل ستطلبون سلطات استثنائية؟

الرئيس: هذا ما يريده مساعدي. وأودّ، أنا أيضًا أن أطرح سؤالًا؟ كيف يمكن أن أحكم من غير أن أمسّ صلاحيات مجلس النواب. كيف كانت علاقات القصر بهذا المجلس؟ كيف نجعل القانون يمرّ بالمجلس حتى لو تأخّر أسبوعًا؟ هذا سؤال أوجّهه إليك شخصيًّا.

المدير: علاقات القصر بالمجلس تختلف باختلاف الظروف. النهج الذي يعتمده المجلس حتى الآن هو التشبّث بكل مشروع يحال إليه. فالنواب يحاولون إدخال تعديلات توافق مصالحهم أو تخدم بعض كبار مؤيديهم. نحن نبذل كل ما في

وسعنا ليمرّ المشروع بالمجلس ويبقى سليمًا ومنسجمًا مع المصلحة التي دعت إلى وضعه، ولكنه لا يخرج من بين أيدي النواب إلا مشوّهًا. فمشروع الإيجارات، مثلًا، أرسل إلى المجلس في العام ١٩٧٧، فبقي فيه حتى اليوم وجاء مشوّهًا يحمل غير ما أريد به أصلًا.

الرئيس: إذا حصل أمر كهذا، فأني سأعود إلى المجلس وأقول للنواب: كفى! عليكم أن تلزموا حدّكم!...

المدير: يجيز القانون لرئيس الجمهورية أن يحيل إلى المجلس مشروعًا مستعجلًا، ثم يصدره بمرسوم بعد مرور أربعين يومًا. هناك مشاريع تأخّرت سنة. ولكن المشروع المستعجل سلاح ذو حدّين. فمن الممكن أن يوطد العلاقات مع المجلس. ولكن إذا كثرت المشاريع فقد تُسبّب معارضة... وقد تُتهم الرئاسة بالتسلّط. أظنّ أن السلطات الاستثنائية غير مستحبّة في المرحلة الأولى من الرئاسة الجديدة. فإذا استتبّ الأمن تمكّنت الوزارة من العمل بسهولة، وأصبحت الدولة قادرة على إصدار مراسيم استثنائية.

الرئيس: كيف كانت العلاقات مع الرئيس كامل الأسعد؟

المدير: كانت تارة ترتفع وطورًا تهبط، إنْ بالوسائل أو بسبب المزاج. فالأسعد مثلًا كان يدعو دائمًا إلى عقد قمّة، فيما الرئيس سركيس لا يرى فائدة من هذه القمّة، ويقول إن كلّ القمم التي عُقدت أسفرت عن نتائج مسيئة لمصلحة لبنان، لا تخدم إلا الفلسطينيين. لم يكن دعم السلطة اللبنانية إلاّ كلامًا في الهواء، فيما دعم المقاومة الفلسطينية استقوى بدفع الأموال وتوفير السلاح. وما سَلُم رئيس الجمهورية أحيانًا من الاتهام بالتواطؤ.

الرئيس: لتقوية الرئيس والقصر، ماذا يجب أن نفعل؟

المدير: تقوية القصر ممكنة بالمستشارين والخبراء. يمكن التعاقد مع اختصاصيين ذوي خبرة بالقانون أو... بحسب القانون.

الرئيس: لدينا مديرية عامة فيها خمسة مديرين عامين. لا بد من تعديل التسميات كلّها.

المدير: يتمّ تعديل التسميات بقرار يصدره المدير العام. والمستشارون يملأون الفراغ في المناصب الخالية.

الرئيس: لا أرى فائدة من هذا التدبير، فالعمليّات المتوازية لا تملأ الفراغات الحالية.

المدير: يمكن تعيين مديرين من حملة الشهادات بحسب الأصول. والتعاقد معهم ميسور.

الرئيس: وما هي علاقاتهم بالإدارات المختلفة؟

المدير: هي ما تريده فخامتك.

الرئيس: ما علاقة مدير العلاقات بالخارجية؟

المدير: إنها بروتوكولية لا أكثر. تدعو من تشاء دعوة مباشرة. والمفروض في السفير أن يبلّغ الخارجية بالدعوة التي تلقّاها منكم.

الرئيس: كيف يُسحب جدول الأعمال من رئاسة الحكومة؟ هل هناك وسائل خاصة لسحبه؟

المدير: هذا أمر يخضع للقانون. فمجلس الوزراء هو الذي يضع جدول الأعمال للرئيس. ورئيس الجمهورية هو، في الوقت نفسه، رئيس مجلس الوزراء. ولكن اسم رئيس الحكومة هو: رئيس مجلس الوزراء أيضًا. المفروض هو أن يذهب مشروع القانون، أو المرسوم، من الوزير المختص إلى رئيس الجمهورية. أما اليوم، وخلافًا لأحكام الدستور فإن المرسوم يمرّ على رئاسة الوزراء للتوقيع مما يؤخّر العمل لأن رئيس الوزراء يبقي المراسيم لديه، يجمّدها عنده.

الرئيس: هل لديك ما تريد التحدّث عنه؟

المدير: كلّ شيء يفترض فيه أن يكون متساويًا مع الأوضاع الحاضرة. وما خلا ذلك تفاصيل ثانوية. يجب استعادة بعض الصلاحيّات من رئيس الحكومة تدريجيًا. والأهمّ حاليًا هو تنظيم الإطار. رئاسة الجمهورية مع خمسة موظفين أقوى معنويًا منها مع ١١٦. لدى رئاسة الحكومة أربعة مديرين عامين هم: الياس نمار،

وشفيق منيمنة، ويوسف اسطفان، وعبد الرحمن الشيخة. عمر مسيكة هو أمين عام مجلس الوزراء، لا أمين عام رئيس مجلس الوزراء. إنه مدير مجلس رئيس مجلس الوزراء. وعلى صعيد التنفيذ يمكن أن يكون الجهاز على مستوى أدنى من مستويات المديرين العامين، أكانوا متعاقدين أو متطوّعين. فالمساعدات التي نحظى بها منهم لا تتجاوز حدود الكلام. ولدينا ثلاثة مديرين عامين برتبة مدير، وأكثر من عشرة مراقبين. وأكثر الموجودين اقترضناهم من هنا وهناك.

أما المرافقون فهم: ناصيف، الخطيب (مسافر بدورة) جوزف سلماني، والرائد قرقماز.

والحرس الجمهوري عدد رجاله ٣٠٠ أسماؤهم مسجّلة في لائحة موجودة لدينا.

الرئيس: القصر بحاجة إلى ضبط وتنظيم. فهو، على ما أرى، «فلتان»، يدخله من يشاء. كم سيارة في القصر؟

المدير: لنا الحق بثلاث، عندنا اثنتان فقط وهما مصفحتان، الثالثة من طراز «كاديلاك». واحدة من هذه السيارات للتشريفات، والثانية مرسيدس ٦٠٠ تعبانة. يجب تغيير سيارتين.

الرئيس: هل لدى الحرس الجمهوري معدّات كافية؟

المدير: الحرس الجمهوري مرتبط برئيس الجمهورية وحده، ولا شأن فيه لرئيس الحكومة، إنما له علاقة بقيادة الجيش. لا ميزة خاصة لحرس الجمهوري. فهو يأتي من الجيش ويرتدي لباس الحرس.

الرئيس: وكيف هي الحدائق؟

المدير: المسؤولة عنها هي باديا خوند. إنها مرتبطة معنا بالتعاقد وليست في الملاك. في الآونة الأخيرة «دَوْبلوا» عليها. هناك شخص من آل إدريس له خبرة أسند إليه هذا العمل. وهذا العمل لا يسير سيرًا حسنًا. وهو ليس كما يجب أن يكون. أضف إلى ذلك أن مكتب الرئيس مخيف. قاعة تُعقد فيها جلسات مجلس الوزراء، وليس فيها ذرّة من الذوق.

الرئيس: هل نزعج الرئيس وحضرتك إذا أجرينا تعديلًا في القصر؟ يجب أن يُنسِّق موني عرب مع المدير لهذه العمليّة. أرجو تبليغ موني أني عازم على التغيير. وأرجو مساعدتي. أطلب إليك شخصيًّا أن تعلمني فورًا عن كلّ عمل تجد فيه شيئًا من «التخبيص». إن آمالًا كبيرة معقودة علينا، فلا يجوز لنا أن نخيّبها.

المدير: من عادة الرئيس أن يعتمد المسايرة واللياقة مع الأقارب والأصحاب. وهناك عادة يجب أن تكون واضحة لا يجوز أن يتكلّم أحد بِاسم الرئيس مع الوزراء والمديرين. واحد فقط يتكلّم باسم الرئيس في الشؤون الإدارية هو المدير.

مع الدكتور جورج صليبي رئيس مجلس الخدمة المدنية

وما كاد الرئيس بشير يستقبله حتى بادره قائلًا:

- بعد الاجتماع بكارلوس خوري أتى دور الدكتور جورج صليبي، نريد منك شرح الأوضاع عندك: وضع الخدمة، وضع الإدارات.

أجاب الصليبي:

- الخدمة المدنيّة هي هيئة رقابة على مختلف الأمور الإدارية. نراقبها لنتأكد من أن أعمالها لا تخالف القوانين المرعيّة، ومنها إدارة الموظفين، إدارة الإعداد للدخول إلى الفئة الثالثة. والهيئة مجتمعةً تبتّ هذه الأمور.

لدينا فكرة عن الإدارة العامة من حيث هي كلّ. تعمّ الإدارات فوضى عارمة. وقد عمدت في تقاريري السنوية إلى شرح هذه الأوضاع شرحًا واضحًا وصريحًا. فالموظف فقد الشعور بالرسالة المنوطة بوظيفته العامة. أعني بهذه الرسالة: خدمة المواطن. أصبح الموظف يسعى إلى الكسب بطرق غير شرعية. أنا شخصيًّا اضطلعت بوظائف عديدة، كنتُ في التربية، وانتقلت منها إلى الأحوال الشخصيّة وغيرها. وها أنا الآن في الخدمة المدنيّة.

لدينا في هذه الإدارة مشكلات أساسيّة متعلّقة بالإدارة نفسها، ومشكلات أخرى نستطيع معالجتها. فالمشكلة الأساسيّة هي مشكلة الرواتب. سمعنا خطاباتك كلّها، وشكرناك على ما جاء فيها من لفتة كريمة إلى هذا الأمر الحيوي بالنسبة إلينا.

الرئيس: هل في وسعك أن تطبّق ما جاء في خطابي، إذا تعهّدتُ لك بحمايتك حتى من الوساطات التي تأتيك من أبي وأمي؟

الصليبي: إني على أتمّ الاستعداد للعمل. وقد سبق لي أن فعلتُ ما أعد به الآن.

مشكلة الرواتب هي مشكلة أساسية في الإدارة. كان راتب رئيس الدائرة ٥٠٥ ليرات. راتبي أنا يجب أن يرتفع. يجتاز رئيس الدائرة امتحانًا قاسيًا فينافسه فيه عدد كبير من الطامحين إلى التقدّم، وراتبه اليوم ١٥٠٠ ليرة، وهذا لا يكفي.

الرئيس: أنا معك بلا تحفّظ.

الصليبي: مشكلتنا الثانية هي تدخّل السياسيين في الإدارة.

الرئيس: أنا مستعدّ لأحميك.

الصليبي: كنت أقاوم، أرفض ما أعتبره غير محق أو غير جائز. ولكن سلطات رفيعة كانت تتدخّل، فأضطر إلى مسايرتها. مثلًا، مشكلة الإطفائية.

الرئيس: أنا سأحترم نتائج تطبيق القانون. لي مطلبان: أولًا ضبط الإدارة، ثانيًا لا نريد إدارة عثمانية لئلا تفسد نفسيّة المواطن.

الصليبي: من الضروري أن يعاد النظر في تنظيم الدولة. كلّ شيء يتطلّب قانونًا. وهذه رتابة مرهقة يجب أن تدرس في ضوء الواقع العملي، ولا يجوز تدخّل السياسة في الشؤون الإدارية.

الرئيس: هذا ما سنحقّقه.

الصليبي: المشكلة الثالثة هي مشكلة الأُجَراء. لدينا حوالي ٢٥ ألف أجير. كلّما أتى وزير جديد عين أجراء جددًا. أصبحوا عالة على الإدارة. في إدارات الدولة ١٤ ألف موظّف وعدد الأجراء أكثر من ضعفَي هذا العدد. ولا بد من الإشارة إلى أن هؤلاء المداومين غير فاعلين. لا أغالي إذا قلت إن في إدارتنا عجائب وغرائب.

الرئيس: هل يمكن ضبطها؟

الصليبي: أي نعم يمكن. ولكن بتوجيهات منك أنت. لأن السياسيين وراء هؤلاء الأجراء. إذا صرفناهم أحدثوا لنا أزمة. نحن اليوم بحاجة إلى ٥ آلاف موظّف فقط. ولكننا نجري امتحانًا ونوظّف على أثره ٢٥ ألفًا، ثم نقطع التعيين، إلا بحسب الأصول المتبعة. ونعمل لهم ملاك تصفية. وإذا عدنا إلى صرفهم ترتّب علينا دفع التعويضات، فللمصروف تعويض من ضمن الضمان.

لدينا الرقابة التسلسلية والرقابة العامة، ومع ذلك فالرقابة، بجملتها، مفقودة. ومفقودة أيضًا هي الرقابة العامة التي يُفترض أن يقوم بها التفتيش المركزي. لا بد من إحياء هذا التركيب الهرمي في الرقابة، ويجب تعزيز أجهزة الرقابة وحمايتها من كلّ ضغط خارجي. إنها مرتبطة برئاسة الوزارة، ونحن مثلها.

الرئيس: أني أتبنّى رأيك، خصوصًا في ما يتعلق بتنسيق الرواتب وضبط الإدارة. وسنحصل حتمًا على نتائج إيجابية ومرضية في هذين المجالَين. إني مستعد أن أحذف مشروعًا من مشاريعي لأتمكّن من توفير الرواتب اللائقة ومن رفع مستوى الإنتاج كمًّا ونوعًا. المطلوب الآن هو أن تقدّم تقريرًا تعرض فيه هذا الموضوع كاملًا، وتذكر تطلعاتك وتشرح وجهة نظرك في الأساليب الواجب اتبّاعها لمعالجة هذه المشكلة وما إليها من نتائج سلبية وذيول سيئة.

الصليبي: لي سؤال أعتبره بالغ الأهمية. عندنا مشكلة التوظيف المرتبطة ارتباطًا وطيدًا بالمادة ٦ و٦ مكرّر. وهذا تسييس طائفي للتوظيف. هل نتخلّى عنه أم نسير على دربه؟ أليس من المناسب أن يعاد النظر في نظام الموظفين لتعديل أساليب وضع الموظف في خارج الملاك، مثلًا، أو لإحالته إلى الاستيداع وما أشبه ذلك؟ هذه التدابير البسيطة لا يجوز القيام بها إلا بموجب مراسيم. وقد يصدر المرسوم المطلوب، ونوافق نحن عليه، ولكن صاحب الشأن ينتظر أحيانًا سنة قبل أن تحلّ عليه نعمة التعيين. من الضروري تبسيط هذه الأعمال، ومتى وافقت الإدارة المختصة على أمرٍ ما، ووافق مجلس الخدمة، يجب تنفيذ ما يُطلب تنفيذه. ولأعطي فخامتك فكرة عن التعقيدات التي نعانيها في هذا الصدد. أروي لك حادثة جديرة بأن تُعرف، خلاصتها أن حاجبًا كان ملحقًا بمكتبي، فتبيّن لي أنه يتعاطى السمسرة على حساب الوظيفة، ولكني ما استطعت أن أنقله إلى مركز آخر، لأن نقله لا يجوز إلا بإصدار مرسوم، وهذا ما عجزت عن الحصول عليه.

مبدأ الثواب والعقاب يمكن أن يُحسِّن أوضاعنا إذا أجدنا تطبيقه. ولكن هناك «مستزلمين» لا يحفلون بشيء من هذا النوع، ومنهم من يتمّ ترفيعه من دون استحقاق.

الرئيس: هل السفراء تابعون لإدارتكم؟

الصليبي: نعم.

الرئيس: يجب أن يتمّ التطهير وأن يعمّ الإدارات كلّها، ولكن من غير أن يُظلم أحد.

الصليبي: لم نحظَ بالغطاء السياسي الذي نحتاج إليه لنقوم بأعمال التطهير. محمد الطرابلسي (الربّاع) أصبح ضابطًا في المجلس، وهو إطفائي. مجلس الوزراء سهّل تعيينه خلافًا للنظام. لدينا ثلاث فئات: ١- الاوادم، ٢- الذين يمكن ضبطهم، ٣- الذين يجب طردهم.

الرئيس: قدّم لي مذكّرة بهذه الأمور، واذكرّ فيها بنوع خاص مسألة رفع الرواتب. وجِّه عنايتك إلى الأوضاع المعيشية، ومن ثم إعمد إلى ضبط الموظفين. كم تكلّف الخزينة هذه الأعمال؟ قدّم لي مذكرة بهذا الموضوع أيضًا.

الصليبي: إذا ضُبطت ضريبة الدخل والجمارك وغيرها من الموارد، توافر للخزينة ما يضمن زيادة الرواتب. وسأرفع لفخامتك دراسة واضحة في هذا الصدد، وسآتي فيها على ذكر الرواتب والمشاريع التنظيمية.

الرئيس: هل السلك الخارجي تابع لإدارتكم؟

الصليبي: نعم، ولكن من حيث التعيين لا المراقبة. لوزارة الخارجية مراقبتها الخاصة. مراقبتنا تقتصر على المعاملات الإدارية. وقد حدثت مشكلة بيني وبين كامل الأسعد بهذا الشأن، إذ تلقينا مشروعًا مشفوعًا بالتأكيد والإصرار.

الرئيس: إلغوه.

الصليبي: كلّ موضوع يتطلّب ورقة عمل تختص به وحده. بعد أسبوعين سأقدّم هذا المشروع، ثم أتصل بالدكتور فريحه لدراسته.

مع هشام الشعار، رئيس التفتيش المركزي

ما كاد الرئيس بشير الجميّل يلتقي السيد هشام الشعار حتى بادره سائلًا:

- هل سمعت خطابي؟

الشعار: سمعتُه وسُررتُ به جدًّا. الخدمة وتوفير العيش هما الأساسان اللذان شدّدتَ عليهما. وإنهما من اختصاص رئيس الجمهورية. وقد أصبحت الرئاسة فاعلة لمّا تمّ التطهير. إلا أنها أخفقت لمّا ساد الفساد. هيئة التفتيش في إسرائيل تشرف على كلّ شيء، حتى على الوزارة.

الرئيس: يجب أن نطبق هذه القاعدة عندنا أيضًا حتى على الرئيس.

الشعار: رئيس الخدمة والتفتيش يشرف على الجميع ما عدا الوزارة. أنا، بصفتي رئيس يترتب عليّ أن أعمل بلا مراجعات. إذا دعم الرئيس التفتيش والخدمة أعطاهما قوة لا يقاومها أحد. لا تحدث خلافات إلا بيننا وبين الوزراء. وإذا كُنت غير صالح للقيام بعملي فأقلني.

الرئيس: بالنسبة إلى موضوع الوزراء سأبذل جهدي لأعطيك لائحة بأسمائهم. ويبقى عليك أن تبدي رأيك في كلّ واحدٍ منهم. وسأدعوك إلى الجلسة الأولى التي سأعقدها معهم وأدعمك بحضورهم وعلى مسمعهم.

الشعار: دُعيت إلى القيام بتفتيش الجيش، ولكن العرقلة حالت دون تنفيذ هذه المهمّة، فتوقّفتُ، وطلب إليّ الرئيس سركيس أن أصرف النظر عن هذا الأمر. على الحزبيين أن «يقطشوا قرّيعة» أي أن يلينوا ويمتنعوا عن عرقلة الأعمال النظامية، يجب أن يكون الولاء للإدارة أولًا وأخرًا.

الرئيس: جوزيف الهاشم، وعصام عرب، وعاصم قانصوه، وكمال شاتيلا، حزبيون وموظفون.

الشعار: بعض المديرين العامين يشتغل في خارج البلد، وهذا غير جائز. موضوع ناظم القادري والملايين الثلاثة من الليرات يجب أن يعالج فورًا. ومع تقديرنا لميشال المرّ لا نستطيع إلا القول إنه عيّن موظفين يحملون شهادات مزوّرة. لا بدّ من الاهتمام بإضراب الموظفين، فالشيوعي كان يلتقي الكتائبي لمتابعة الإضراب.

الرئيس: يجب تحسين أوضاع الرواتب.

الشعار: وزارة الصحة وكر. أهم وزارة يجب ضبطها هي هذه الوزارة بالذات. والمتعاملون مع وزارة الإعلام موظفون في الاقتصاد مع بقائهم في وزارة الإعلام. وفي هذه الوزارة ما هبّ ودبّ. وليس من موظف هنا وهناك يقوم بالواجب المفروض عليه. وثمّة جمعيات لا سلطة لنا عليها. تأخذ أموالًا من الدولة. منها، مثلًا، مجلس السياحة، بنت بهيج تقي الدين، وغيرها...

ألبير منصور موظف، يتقاضى راتبًا من الضمان الاجتماعي. هيئة التفتيش فقدت ٥٠ في المئة من هيبتها. تعاونية الموظفين كلّها سرقة بسرقة.

الرئيس: أعطني مذكرة واضحة وصريحة عن هذه الأمور كلّها.

الشعار: البلديات سرقة. حذفوا التفتيش المختص بها، ولكن فرض المراقبة عليها ضروري. نهاد نوفل ونجيب أبو حيدر هما رئيسا بلديتين حذفا التفتيش في إدارتيهما. كانت لهما مصلحة في هذا الحذف. قانون ضريبة الدخل فضيحة. هاتوا لنا القانون الفرنسي وطبّقوه. الأطباء، ولا سيما الجراحون لا يدفعون للخزينة قرشًا واحدًا من مكاسبهم. هذا كلّه يوجب سنّ قوانين عادلة وصارمة في الوقت نفسه. أستطيع القيام بعملي كاملًا حين تكون للدولة سلطة وهيبة. قوانين المالية كلّها بحاجة ماسة إلى تغيير. وأفضل طريقة في هذا المجال تطبيق القانون الفرنسي أو الإنكليزي.

مع رضوان مولوي، مدير عام وزارة الإعلام

الرئيس: أحب أن أعرف حقيقة الوضع في هذه الوزارة. وما هي الإصلاحات التي تنتظرونها مني، وما إلى ذلك من مطالب وشؤون.

المولوي: سأنظر إلى هذا الموضوع من زاويتين. أولًا: الإدارة عدم. كلّ ما فيها يتأثر بالسياسة ويخضع لمشيئة السياسيين. الملاك، أعني ملاك وزارة الإعلام يكاد يكون شاغرًا كليًّا. بُذلت محاولات لملئه جزئيًا. إخترعنا مبدأ التعامل، ولكن تطبيقه جاء سيئًا إلى حدٍّ رهيب لأسباب سياسية أيضًا. لدينا خمس مصالح في مديريّة الإعلام. أنا خرّيج لندن. إستدعاني الرئيس شهاب إلى الخدمة فلبّيت. جاء الرئيس فرنجية،

فتعذّر عليّ الاستمرار في العمل. حلّ رامز خازن محلي من دون كفاءة. ذهبتُ إلى الجامعة وأصبحتُ أستاذًا فيها. وأنا الآن في الملاك الخاص بالدولة، أي إني في خارج القطاع الإداري. والتقاعد الخاص يسمح للموظّف بأن يقوم بعمل آخر بناءً على موافقة الوزير. واليوم، في الظرف الحالي، لنا تطلّعات أخرى. مدير الإذاعة هو الوحيد اليوم في الملاك الإداري. وليس بيننا من شغل منصبًا بالنظر إلى كفاءته، لا أستثني أحدًا، لا مدير الإذاعة، ولا مدير الوكالة الوطنية للأنباء. ليس في الدولة شيء اسمه Job description ، أي توصيف للأعمال المفروضة على الموظفين المسؤولين عنها. ولمّا وُزّعت المناصب في عهد الرئيس فرنجية، ارتفع عدد المتعاملين ارتفاعًا مدهشًا ومزعجًا معًا لأسباب سياسية. وهل في وسعنا أن ندير شؤون الوزارة إدارة حسنة بأشخاص يفتقرون إلى الحد الأدنى من الكفاءة أو من الخبرة؟

ملاكنا يعاني نقصًا فادحًا. الوكالة تكلّفنا ٣٠٠ ألف ليرة شهريًا لدفع رواتب المتعاملين فقط. الروتين الإداري يقضي على كلّ مبادرة مفيدة أو بنّاءة. الإذاعة بحاجة إلى دعم مادي. الوكالة الوطنية فارغة. تكاد تكون اسمًا لغير مُسمّى.

أريد جهازًا بشريًا له من الإمكانات ما يحتاج إليه العمل.

مع كسروان لبكي، أمين عام وزارة الخارجية

بدأ لبكي حديثه كأنه أنهى عملًا أُجبر على القيام به إجبارًا، فقال مخاطبًا الرئيس:

- أضع الخارجيّة بين يديك بمن فيها من موظفين وأوضاع. يجب أن تبقى هذه الوزارة عندك. أما الأعمال الجارية فسنبحثها معك. أنا مستقيل حكمًا لأني من خارج الملاك.

الرئيس: ماذا تريد أن تعمل؟

لبكي: ما تطلبه فخامتك.

الرئيس: متى أتيت إلى السلك؟

لبكي: منذ العام ١٩٦٦ وما أزال خارج الملاك. كلّ رئيس كان يجدّد لي. لدينا مشكلة مستعجلة: سفرك إلى الأمم المتحدة ضروري. أنا رأيي أن تذهب. التوقيت مهم. غسان تويني ينصح بأن تكون هناك في ٤ تشرين الأول. هل تستطيع التفرّغ للقيام بهذا العمل في هذا الوقت؟ غسان يقول إن جلسة كبيرة ومهمّة ستعقد هناك.

الرئيس: سأنظر في هذا الأمر إذا أنهيت وضع الحكومة.

لبكي: إذا ذهبت لتلقي خطابًا، فلا مجال لوزير الخارجية أن يتكلّم. وإذا لم يكن لدينا وزير فسأتولّى أنا رئاسة الوفد بانتظار التغيير. أتريدني أن أفعل؟

الرئيس: نعم. إذا جدّدتُ لك فسيكون التجديد إلى أول تموز (سنّ التقاعد). أطلب إليك أن تتولّى رئاسة الوفد، على أن يذهب وزير الخارجيّة معي.

لبكي: لم نجنِ أي فائدة من الحوار الأوروبي حتى الآن. الأوروبيون يحكون عن الاقتصاد، والعرب يحكون عن فلسطين. خطاب لبنان سيُلقى في الوقت الذي تحدّده إذا شئتَ أن تحضرَ شخصيًا. إذا اتّسع مجلس النواب، سنعقد فيه جلسة القسم وندعو رؤساء البعثات الدبلوماسية، وعددهم ٦٥. وإذا ضاق بهم، فلتعقد الجلسة هنا في القصر. نستطيع القيام بالعملَين معًا. سيكون لباس الحاضرين أبيض، وربطات العنق رماديّة. أما «الفراك» (Redingote)فسيكون من امتيازات العرب. إذا كان البروتوكول مسلمًا، تولاه عبّاس حميّه. وإذا كان مسيحيًا تولاه غازي شدياق.

الرئيس: سفير واحد يكفي. أنا أفضّل عبّاس حميّه، فهو أوسع خبرة في مثل هذه الأمور.

لبكي: خليل مكاوي يحب أن يحلّ محل عبد الرحمن الصلح، أو يأتي شيعي عوضًا عنه. وعلينا أن ننتبه انتباهًا كليًّا إلى مدير الشؤون السياسية في الوزارة. درجته ثالثة إنها بعد الوزير والأمين العام. هل يمكن إحلال شيعي في محله؟

الرئيس: ما رأيكم بجعل وزارتكم وزارتين: واحدة للخارجية وأخرى للمغتربين؟ ما هي فكرتك عن عدد المغتربين المسلمين والمسيحيين.

لبكي: أكثرية الذين ما يزالون على اتصال بلبنان مسلمون: سنيون وشيعيون. المسيحيون اندمجوا ببلدان الاغتراب، وهذا أمر مؤسف.

الرئيس: أنا، بشير الجميّل، أعتبر إقدامي على المجازفة حتميًّا لا مفرّ منه. فالاغتراب يجب أن يتخذ الطابع المسيحي. وسأبذل قصارى الجهد لأعيد المسيحيين إلى لبنان، ولديّ، لبلوغ هذا الهدف، طريقتان:

الأولى: إستدعاء سفيرَي أسوج ونروج، وإفهامهما أنهما لا يستطيعان الاتصال الودّي إلا بالمسؤولين اللبنانيين، وأنهما إذا ذهبا إلى شفيق الحوت فسيطردان من البلد.

والثانية: إعلان ما قاله السيد بونش المسؤول في الصليب الأحمر الدولي من أن جورج حبش طلب إليه أن يرسل حرامات وأدوية إلى مخيمّ عين الحلوة. فأجابه بأنه ليس معيّنًا من قبل الفلسطينيين. فالشعبة الثانية اللبنانية، أو وزارة الخارجية اللبنانية هما المصدران اللذان يجب الاتصال بهما لا الفلسطينيون. وهكذا أضحت العمليّة أن كلّ المنظّمات الدولية بخدمة المنظمات الفلسطينية.

Je ne veux pas d'aide من الصليب الأحمر للفلسطينيين وغيرهم من الغرباء. هنا يجب أن أتفق معك لنتخلّص من هذه الأمور. لا نريد طردهم بل أن نقول لهم: «ها هنا حدّكم فتوقّفوا عنده».

زارني شفيق بدر، وقدّم لي ملفات عديدة عن مواضيع في خارج لبنان، واعتبارنا نحن اللبنانيين من العالم الثالث، فقلت له أنا OTAN (منظمة حلف شمال الأطلنسي)، أنا أوروبا، أنا CEE (الوحدة الاقتصادية الأوروبية)، أنا حضارة، وليس لي شأن أو علاقة مع العالم الثالث. أرجو أن تثبت أننا لا ننتمي إلى هذا العالم الثالث لا من قريب ولا من بعيد. أُخرج معي من هذا العالم المتخلّف ولحقّني إلى العالم الأوروبي، ولنرتبط بالعالم الحرّ والأميركي. أما قرأتَ تصريح واينبرغر وبحثه في إدخال لبنان إلى الحلف الإستراتيجي؟ قلتُ: إني متضامن معك خذوا شواطئنا، خذوا صنين قواعد لكم. شدّني إلى أميركا. أنا معها، علاقتي هي بها وبأوروبا.

لبكي: حين يأتي وزير سأتعامل معه على هذا الأساس بعد عودتي من الولايات المتحدة الأميركية فورًا.

الرئيس: هذا المشروع ليس مشروع ساعة. إنه مشروع ولايتي كلّها. وزير الخارجيّة والدفاع سيكونان ظلّي. ومتى جاء الوزير الجديد، ستكون طريقته في العمل، هكذا عملنا نحن، مع المدير، مع فريق عملنا أكان في مصلحة الكهرباء أو في أي مكان آخر.

لبكي: هل تريد أن تكون لك علاقة مباشرة بالإدارات؟

الرئيس: نعم. لا تتعجّب إذا رأيتني غدًا آتيًا إليك، إلى الوزارة. أحبّ أن أطرح نفسي بين شدقَي الذئب، كما يقول الفرنسيون.

لبكي: أنا تعوّدت على أن يكون اتصالي بالرئيس في منتهى السهولة.

الرئيس: لِمَ لا؟ أنت الأول بين المديرين. إذا كانت لديك سفارة في أية منطقة من العالم، وجاءها مسيحيون لبنانيون تعمّدوا عند الأباتي نعمان، فسجّلهم فورًا. لدينا مديريتان للأحوال الشخصية مختصّتان بنا. ليس لي محاسيب ولا أقارب. إني لا أغطّي أحدًا. لا أحمي أحدًا.

لبكي: سأدفعهم إلى الاستقالة. ولن أعيّن أحدًا غيرهم. وبصفتي الأمين العام لوزارة الخارجيّة أضع نفسي في تصرّفك، وإني مستعد للقيام بكلّ عمل تريده مني. سأرفع إليك دراسة عن المؤسسات العالمية كلّها التي نحن مرتبطون بها. ولا بد من الانتباه إلى أن مدير الشؤون السياسية في وزارة الخارجية، يُستحسن أن يكون شيعيًا إذا أمكن.

مع الدكتور عمر مسيكة، مدير عام مجلس الوزراء

بدأ الدكتور مسيكة حديثه بكلمات تهنئة:

- أكرّر تهنئتي، يا صاحب الفخامة.

الرئيس: أرجو أن تشرح لي الوضع الذي تتحمّل مسؤوليته، والاتصالات التي أجريت مع الأستاذ كارلوس خوري، والدكتور جورج صليبي، والأستاذ هشام الشعار. أذهلني ما سمعتُه عن اختلال الأوضاع الإدارية، وأود أن أعرف كلّ شيء، فمسؤوليتي هي أن أجعل الدولة تقف على رجليها.

مسيكة: أنا مسؤول في هذه الإدارة منذ أن كنتُ في الرابعة والعشرين من العمر، أي منذ أكثر من عشرين عامًا. ودراستي الجامعية هي التخصّص في العلوم الإدارية. وقد ركّزت جهدي على موضوع التنظيم الإداري في هذه الدولة. وأعددت مذكرة في هذا الشأن هي المرجع الأفضل لمعرفة رأيي على حقيقته.

ثم شرح الدكتور مسيكة عرضه بالتفاصيل فكان ممتازًا جدًا.

الرئيس: أهنئك على هذا العرض. وأرجو أن تعطينا الوقت اللازم لدرس مذكّرتك، ثم نجلس معًا ونتفق على التدابير الواجب اتخاذها لتنفيذ مقترحاتك بندًا بندًا. وأودّ أن تضع لي مذكرة أخرى صغيرة عن الإدارة في لبنان عامةً.

مواعيــد فخامة الرئيس المنتخب

يوم الثلاثاء في ١٤ / ٩ / ١٩٨٢

الساعة

٩،٠٠ اللواء الركن أحمد الحاج، المدير العام لقوى الأمن الداخلي

١٠،٠٠ العماد فكتور خوري، قائد الجيـــش

١١،٠٠ العميد يوسف وهبه، المفتش العام لوزارة الدفاع

١١،٣٠ العميد زين مكـي، مدير عام الإدارة في الجيش

١٢،٠٠ العميد نبيل قريطم، الأمين العام للمجلس الأعلى للدفاع

١٢،٣٠ الأمير فاروق أبي اللمع، المدير العام للأمن العام

مع اللواء الركن أحمد الحاج، قائد قوى الأمن الداخلي

بدأ اللواء الركن حديثه بسؤال:

- بمن نتّصل دائمًا؟

الرئيس: بفادي افرام، أو أنطوان بريدي، أو أسعد سعيد.

اللواء: ناجي هادي سيكون من قبلنا.

الرئيـس: هـذا اجتـماع مـن ضمـن سلسـلة اجتماعـات للاطلاع عـلى أوضـاع الإدارات. أودّ أن تطلعـوني عـلى مـا لديكـم مـن مشـكلات، ومـا تريـدون منّـي، ليفهـم الجميـع أن الفلتـان قـد انتهـى، وأن الدولـة سـتعود دولـة. أعطنـي لمحـة عـن أوضـاع قـوى الأمـن.

اللواء: رد بالفرنسية قائلًا:

Je vous présente monsieur le président la place et l'organisation de ces forces, quelles sont les composantes de l'institution, de l'effectif, son entrainement et le spécial inclus, l'infrastructure. Ensuite, je terminerai par le moral.

وهـو يعنـي: أسـتعرض أمامـك موقـع قـوى الأمـن وتنظيمهـا، ومـا هـي مقومتهـا الأساسـية، وعديدهـا، وتدريبهـا وجـذور تكوينهـا. سـأبدأ بالمعلومـات وبهـا أفتتـح حديثـي.

ثـم اسـتطرد: في الأمـن الداخـلي تكـون الأعـمال كـما يكـون الـرأس. العديـد مـن رجـال هـذا السـلك هـو مـن أبنـاء الشـعب اللبنـاني. إذا أحسـنّا انتقـاء الضبـاط مـن حيـث النـوع والقيمـة والكفـاءة، فإننـا نصـل إلى الوضـع الممتـاز الـذي نريـده. أنـا أعتمـد عـلى المباريـات لأختـار الأفضـل، ولا أتأثّـر بالوسـاطات. الناجـح يمـرّ، الراسـب يذهـب في سـبيله. أخاطبـك بكونـك رجـل معرفـة وخـبرة، لا يفوتـك أن آخـر إنسـان في لبنـان يسـتطيع الوصـول إلى الوزيـر وحتـى إلى رئيـس الجمهوريّـة. إذًا فليـس لدينـا ضبّـاط ولا عسـكر. إني أراعـي النظـام الطائفـي، ولكننـي أختـار مـن كلّ طائفـة أفضـل مـن فيهـا، آخـذ الأولـين في الامتحانـات. عنـدي ضبـاط لا يسـتحقون أن يكونـون حاجبًـا أو بوابًـا. لـو كانـت لدينـا لجنـة تختـار أصحـاب الكفـاءة أولًا، ثـم يـأتي دور التدريـب. لمـاذا أفتقـر إلى عنـاصر يمكـن الإتـكال عليهـم والثقـة بهـم؟ لأن قـوى الأمـن الداخـلي كلّهـا تتألّـف مـن ٧ آلاف رجـل فقـط.

وتحـدّث عـن تنظيـم قـوى الأمـن الداخـلي في وضعهـا الحـاضر، فقـال: لدينـا أربـع وحـدات كبـيرة هـي: الـدرك، الشرطـة القضائيـة، شرطـة بلديـة بـيروت، ومعهـد قـوى الأمـن الداخـلي. ولـكلّ واحـدة منهـا سرايـا عديـدة وفصائـل.

الرئيـس: يجـب أن تكـون لدينـا قـوّة تابعـة لفـوج السـير لا يقـلّ عددهـا عـن ٣٠٠ عنـصر تقريبًـا. ومـن الـضروري أن تكـون هـذه القـوة متحركـة، نسـتعملها أينـما أردنـا وبالسرعـة القصـوى.

اللـواء: قيـادة الشرطـة القضائيـة هـي الأهـم إذا اسـتحدثت مفـرزة اقتفـاء الأثـر مسـتعينة بالـكلاب البوليسـية. هـذا الأمـر بالـغ الأهميـة، مـن الـضروري أن نعتمـده.

عندنا ثلاثة ضباط من الجيش. و«هيدا حق ومش حق». يجب أن تكون لقوى الأمن الداخلي شخصية تفرض احترامها. كيف؟ بقيامها بالواجب على الوجه الأكمل.

لماذا لا يتمّ التدريب عندنا على ما يرام؟ لأن الذين يتدرّبون قليلو العدد. فإخواننا المسيحيون لا ينخرطون في سلكنا. أنا شخصيًا لا أؤمن بأن الشخصيّة الطائفية تمنح صاحبها وطنية تمتاز على سواها أو تنحط عنها قدرًا. لماذا لا يأتي المسيحيّون إلينا؟ ما هي أسباب ابتعادهم عنا؟ الرواتب أصبحت الآن مرتفعة. كانت الميليشيات تستهويهم أكثر لأن فيها مغريات، Motifs.

الحدّ الأقصى من الذين استطعت حملهم على أن يتطوعوا هو ٢٠٠٠ عنصر. صرفت منهم ٣٤٣ لأسباب تأديبية، أمّا عدد الضباط المتطوعين فهو ١٢٠. البيان العددي هو ٩٠٠٠ أو أكثر، عندي ٧٠٠٠، يبقى عليّ أن أسعى ليتطوّع أكثر من ٢٠٠٠ عنصر، كنت أشجّع المسيحيين لتأمين توازن العدد، لذلك كنت أضطر إلى قبول أشخاص لا يتمتعون بالكفاءة المطلوبة.

أخذتُ تقنيين من الصنائع، فكان العدد نصفًا بنصف. وكان يأتيني ١٠٠٠ عنصر ناجح، فآخذ منهم ١٥٠. وإني أعلّل الأمل أن يأتيني مسيحيون. وإذا أحجموا اضطررنا إلى اعتماد قانون خدمة العلم.

الاختصاص، أعني به Le personnel qualifié أي أصحاب الكفاءة منهم، عامل الإشارة، مثلًا، المسؤول عن اللاسلكي. وهذا يتطلّب اختصاصًا ومهندسين وأطباء، فقلّة يجيدون التعاطي بالإشارة وغيرها... عندي أطباء متفرّغون، وضبّاط معاشاتهم بمعدل ٤٥٠٠ ل.ل. أخذنا من مختلف الفروع الفنية وأرسلتُ أشخاصًا للتخصص في المختبر الجنائي في الخارج. وعندي خبراء في المتفجرات في الأردن، وأشخاص يتعلّمون موسيقى في الأردن أيضًا.

عندي ٣ Debouchés، أي منافذ للاختصاص:

الـ FBI (Federal Bureau of Investigations) أي: المكتب الفدرالي للاستقصاء في أميركا.

بالنسبة إلى فرنسا ٩٠ بالمائة من ضباطنا يعرفون اللغة الفرنسية.

بلجيكا، مدارسها أفضل من مدارس فرنسا.

إنكلترا تصلح فيها تنشئة الضباط الصغار.

لن أخرّج دركيًا قبل أن ينهي La formation، الإعداد الخاص به.

أولًا: يجب أن يكون رجال قوى الأمن مؤهّلين وأصحاب كفاءة.

ثانيًا: يجب أن تكون للمرء قضيّة. يجب خلق شخصيّة له. لا يجوز وضع ٢ من الجيش للنظر في شؤون الترقية. الترقية لا تكون إلا من ضمن الأمن الداخلي.

ثالثًا: لماذا على الجيش أن يشتري لنا السلاح؟ عندنا ضباط فاعلون يمكنهم شراء هذا السلاح، لن يؤخذوا بالرشوة.

الرئيس: ألا يمكن أن يرتشي ضباط الجيش أيضًا؟

اللواء: القائد يجب أن يكون نزيهًا، وأن يحيط نفسه بأركان شرفاء. أولى فضائل القائد هي أن يكون المثل الصالح، بل المثال الأعلى. قضيّة الثواب والعقاب يجب أن تكون سارية المفعول. وضعت ٨ ضباط في السجن لأنهم هربوا من القتال في الحرب.

علينا أن نولي الانضباط اهتمامًا خاصًا. وعلى الضابط أن يعطي المثل:

La discipline intellectuelle et plus encore la discipline physique أي الانضباط الفكري إضافة إلى الانضباط الجسدي، وبذلك يكون قد قام بواجبه على الوجه الأكمل.

لا بد من روح الإنصاف واحترام النفس L'esprit d'équite. فالضابط الذي يغطس في عمليّة غير نظيفة يعطي مثلًا سيئًا. أعطي مثلًا على ذلك: حديقة السّيار ومصرع ضابط و٣ جرحى. ثم عليه أن يكون motivé, qualifié أي مؤهّلًا ومحفّزًا إلى جانب سلاح معقول يضاهي سلاح المجرمين.

الرئيس: أتعني الميليشيات؟

اللـواء: إذا كانـت الميليشـيات موازيـة، فيجـب أن تكـون بالنهايـة. وذلـك لمصلحـة البلـد. عندمـا تصـل قـوى الأمـن الداخـلي إلى حـدّ مـا، يجـب عندئـذٍ أن يتدخّـل الجيـش. مـن واجـب كلّ فـرد أن يقـف عنـد حـدّه، لأن الجيـش عنـده دائمًـا روح التسـلّط.

الرئيـس: أنـا أظـنّ أن قـوى الأمـن الداخـلي أعطـت نتائـج أفضـل مـن التـي أعطاهـا الجيش.

اللـواء: قلـتُ لعنـاصري أعطيتمونـا في المـاضي، وكذلـك اليـوم، رصيـدًا مـن الوقائـع والأحـداث، وكلّهـا تـدلّ عـلى بطولـة قـوى الأمـن. الأمـن مـع الجيـش يجـب أن يسـاندنا مـن ناحيـة الاسـتقصاء.

ولنأخـذ القضـاء مثـلًا: إذا ألقيـتُ القبـض عـلى متّهـم، وجـاء غـيري فأطلـق سراحـه، فأيـن يكـون الحكـم؟ للقضـاء شـأن مهـمّ مـن ناحيـة الأمـن Procédure Judiciaire ولا بد من تشديد العقوبات.

إدارات الدولـة: إذا وُجـدت مخالفـة بنـاء، وأبى رئيـس البلديـة أن يتخـذ بهـا قـرارًا بالتنفيـذ، فـلا يسـعني أن أفعـل شـيئًا.

الموازنـة: أنـا أقـترح شراء ٣٠ مصفّحـة مـن الأميركيـين. يجـب أن تكـون قـوى الطوارئ كلّهـا مؤهّلـة. قـدّرت المبلـغ الـلازم بثلاثـين مليـون لـيرة، طلبـوا إليّ أن أصرف النظـر عـن هـذه المسـألة. لمـاذا؟ أنـا بحاجـة إلى مركـز Electrique كهربـائي لأطّلـع عـلى موجـوداتي وذخائـري. لمـاذا؟ أرجـو مـن فخامتـك بـأن تتخـذ موقفًـا سياسـيًا في هـذه الصـدد.

الرئيس: سأطلب أن تزيدها.

اللواء: لي اقتراحات:

- إعـادة النظـر في قانـون الاكتفـاء الـذاتي. فهـو بحاجـة إلى موازنـة. معهدنـا في عرمـون هـو أحـدث معهـد في المنطقـة يـوازي أيّـة مدرسـة في أوروبـا. كذلـك مبنـى قيـادة الأمـن الداخـلي. وجـدت قـصرًا قـرب بعبـدا لإقامـة بنـاء لا تقـلّ تكاليفـه عـن ٥٠ مليـون لـيرة. وافـق الرئيـس سركيـس عـلى هـذا المـشروع، ولكـن الـوزّان عـرج وصرف عنـه النظـر.

- عندنـا مجمّعـات كبـيرة في الجميـزة، والبسـطة وعـكار والبقـاع وأماكـن أخـرى. منهـا مـا تـمّ تنفيـذه ومنهـا مـا لم يُنَفَّـذ بعـد. يجـب أن يكـون التنفيـذ بموجـب طلـب مـن سـامي الخطيـب. طلبنـا منـه أشـياء فأعطانـا بعضًـا منهـا. نريـد دواليـب، أشـخاصًا، سلاحًا، جهـاز لاسـلكي، وهكـذا يمـشي الحـال. ويلزمنـا سـلاح مـن أجـل القيـادة. العمـداء كلّهـم يجـب أن يطـيروا مـن قـوى الأمـن الداخـلي، مـا عـدا جوزيـف مجاعـص. الباقـون لا يسـتطيعون أن يعطـوا شـيئًا. أقـترح إصـدار قانـون لترحيلهـم.

- لا بـدّ مـن إنشـاء لجنـة كفـاءة، وهـي غـير المجلـس التأديبـي للنظـر في شـؤون عنـاصر قـوى الأمـن الداخـلي.

الرئيـس: عندنـا نفـس جديـد. نحـن نقـوم بواجبنـا. ولا يهمّـك. أنـا أغطّـي هـذه المسـائل. وليكـن شـبّانك صامديـن. وسـنرى تدريجيًـا مـا هـي الخطـوات التـي يجـب أن نأخذهـا.

اللواء: هل تريد مرافقًا مع فخامتك؟

الرئيس: لا «تعتل» همّي.

مع العماد فكتور خوري، قائد الجيش

إفتتح العماد الحديث سائلًا:

- أودّ أن أعلم ماذا يهمك من المواضيع.

الرئيس: تكلّم عمّا تريد. كلّ منّا يعرف الآخر.

العماد: أنا، بصفتي قائد جيش أتمنّى ألاّ أكون في قفص الاتهام.

الرئيس: بالعكس.

العماد: هناك أمور مهمّة فيها أسرار يجب ألا يطّلع عليها سوى قائد الجيش والرئيس. ثم أشار إلى وجودي فطمأنه الرئيس قائلًا: الدكتور فريحه هو أنا فلا تخشَ شيئًا.

العماد: أبدأ بالأسس التي يقوم الجيش عليها حاليًا. فيما مضى كان يخشى خطر الحدود الإسرائيليّة من غير أن يتغاضى عن الشؤون الداخليّة. رأينا آنذاك أننا بحاجة إلى ٤٥ ألف جندي على أن تتألف منهم ألوية ٦ أو ٧، لا فرق، وإلى قوة جويّة لا تقلّ عن ثلاثة أسراب تقوم بمهمّات مختلفة غير ما تقوم به قوى الاعتراض، ثم إلى طوافات مهمتها المساندة الأرضيّة، تقوم بعمليات اعتراض interception في بعض الحالات الاستثنائية، وإلى ثلاث خافرات بحرية طول الواحدة يراوح بين ٤٠ مترًا و٤٢ على تكون مسلّحة تسليحًا كافيًا معززًا بالصواريخ، وإلى ثلاث خافرات طول الواحدة ٢٠ مترًا، فضلًا عن بعض السفن الصغيرة.

هذا هو حجم القوى. القوى كانت محدودة لأننا تجاهلنا آنذاك الحدود السورية. وكان اهتمامنا مقتصرًا على الحدود الإسرائيلية فقط.

كيف نظمنا القيادة؟

جعلناها شُعَبًا، أعني إذا أردنا القيام بعملية، تقوم بها الشعبة الخاصة لها، ثم القائد.

هذا حلّ أسرع من الأوّل. وعلى أساس هذا التنظيم وضعنا الخطّة الزمنيّة. (وكانت هذه الخطّة مكتوبة فسلّمها العماد إلى الرئيس في غلاف يحمل عبارة «سري جدًا جدًا»).

الرئيس: كنّ واثقًا إن هذه لن تخرج من عندي.

العماد: لمّا حاولنا بناء هيكل الجيش، بذلنا جهدنا لنحصل من الأميركيين على قرض أولًا. جاء الأميركيون وظلّوا عندنا أسابيع، ثم أعطونا هذه الدراسة (سلّم العماد كتابًا يحتوي هذه الدراسة) وخلاصتها توصية باتّباع نظام الخطة التي تبعناها مع النتيجة التي أدّت إليها.

بالنسبة إلى العديد سلّمت الرئيس ورقة سجّلت فيها كلّ ما يتعلّق به.

في الجيوش الأميركية ضابط لكلّ ٨ جنود، أي أن ٢٠ ألف عسكري يحتاجون إلى ٢٠٠٠ ضابط. الموجود الآن هو ١٥٢٥، وعندنا في الحربية ٢٤٠ ضابطًا فقط. والعديد ٢٠,٠٧٢ جنديًا. نعاني نقصًا في الضباط الصغار، ولدينا فيض من الكبار. التركة التي ورثتُها سيئة. في كلّ دورة يعطي الجنود الشيعيّون أفضل النتائج. لكن السياسة السائدة آنذاك كانت تأخذ عددًا أكبر من السنيين.

وشفع العماد كلامه هذا ببيان مكتوب في هذا الصدد.

الرئيس: نجد من الضباط ٢ على ١. لكن الخطر يكمن في العريف والرقيب... بدأوا يصنفون نفوسهم على أساس المناطق.

العماد: بالنظر إلى أصحاب الرتب في المستقبل Les futures grades أصبح المسلمون أوفر عددًا. لما تسلّمت القيادة كان عددهم حوالي ١٧,٠٠٠. أصبحوا اليوم ٢٤,٠٠٠، فسرّحت قسمًا كبيرًا منهم، حوالي ٤٠٠٠.

على ٢٠ ألف جندي، عندي ٦ كتبة أو ٧ في المكاتب. ومع الكتبة والمكاتب من دون أية زيادة، يمكن أن يرتفع عددنا إلى ٤٠,٠٠٠ جندي.

الشرطة العسكرية ٢٠١، منهم ٥١ في المطار. لا مشاكل في التطويع لزيادة العديد. المسيحيّون لا يأتون. ضاعفنا عدد الشيعيين. حتى أن السنيّن والدروز لامونا على زيادة عدد الشيعيّين.

الرئيس: كيف كان الشيعيون في القتال؟ هل كانوا لبنانيين؟

العماد: نعم! أبدوا من الرجولة ما يسترعي الانتباه. بواسل، شرط أن يكون على رأسهم ضابط. الدفع والإقدام يجب أن يأتيا من فوق. في الجيش الأميركي، لكلّ عشرة جنود ضابط. إذًا، فلا بدّ من معالجة مشكلة التطويع. ويمكن أن نجد الحل في قانون خدمة العلم. لدي نسخة مع القوانين والدراسة (وسلّم الرئيس نسخة عن هذه الدراسة) ثم استطرد قائلًا: إذا كبست على الزّر لتمشي خدمة العلم، سننتظر ٤ أشهر على الأقلّ لنستقبل أوّل شخص يلبّي نداء الواجب. ومن الطبيعي أن لا تغني خدمة العلم عن الجيش المحترف. مواليد كلّ سنة لا يقلّون عن ٣٠,٠٠٠. يدخلون الخدمة إذا طبّقنا خدمة العلم. ومن الممكن أن ينخرط مسيحيّون في الجيش.

الرئيس: هل من الممكن أن يكون عندي في ٢٤ أيلول ١٥٠٠ عنصر للتدخّل السريع مع أسلحتهم وضبّاطهم متأهبين لكلّ مهمّة يريدها رئيس الجمهورية؟ أفي وسعك أن تؤلّف لي هذه النواة؟ لن تكون في تصرّف الرئيس، بل في إمرة شخص عندك أستطيع أن آمره شخصيًّا. أريد قوة أتكلّ عليها من دون جدل، على أتمّ التأهّب ٢٤ ساعة في اليوم. أعربت عن هذه الرغبة لقوى الأمن. طلبتُ ٣٠٠ عنصر من فوج السيّار. إذا حدثت مشكلة مع سعد حدّاد مثلًا، فيمكن أن أرسلهم إلى حيث أريد. إذا ضربت إسرائيل السوري والفلسطيني في الجرد، أريد الجيش أن يتحرّك فيما بعد لفتح الطرق.

العماد: المخابرات هي في تصرّف الرئيس. الاستطلاع العسكري بقسم العمليّات هو مفصول. يستقي معلوماته من الناس على الأرض، ومن المخابرات. فيما يتعلّق بالعمليّات عندنا. (قال هذا وسلّم الرئيس نموذجًا عنها Specimens) واستطرد: سلّمت الرئيس وثيقة بهذا الشأن.

الرئيس: هل لك اتصال بمختلف عناصرك أينما كانوا؟

العماد: كلّا. لكنّني أستطيع القيام بأعمال بهلوانيّة، أي أن أتصل بالملالات. إلّا أنّنا بدأنا نتسلّم أجهزة كافية.

الرئيس: هل لديك جهاز اتصال كافٍ Télécommunications.

العماد: كلّا.

الرئيس: أريد تجهيز غرفة عمليّات في القصر مع مختلف المواصلات.

العماد: أخّرونا ٤٨ شهرًا في هذا المضمار.

الرئيس: لأنهم كانوا يستخفّون بنا.

العماد: (بسط خريطة بيروت مشفوعة بنصّ عن العمليّات وشرحها مشيرًا إلى مواقعها على الخريطة).

الرئيس: إقتربوا من المخيّمات، وعلى المدينة وثابروا على عملكم هذا Persévérez le plus possible. يجب أن نقوم بأعمال التنظيف اليوم ما دام البعبع خلفنا.

العماد: أريد ١٠٠٠ عسكري لأدخل بيروت.

الرئيس: أدخلوا خلسة. إعتمدوا المفاجأة، على طريقة الجيش الإسرائيلي. المطار سيستسلم قريبًا. يجب أن يتمّ التطهير بلا مسايرة أو هوادة.

العماد: التعليم عندي يقوم هذا العام (١٩٨٢) على دورة تأسيسيّة ١٥٥.

الرئيس: قانون الدفاع هو أول Réforme سأقوم به في عهدي.

العماد: نسينا ٣٨٥ كيلومترًا يمكن تقصيرها إلى ٢٥٠ كيلومترًا مع سوريا، يجب أن ننتبه لها. ليس هذا الجيش كلّ ما أريد. كانت صعوباتي كثيرة. وعلى الرغم من هذه الصعوبات جنّدنا ٥٠٠٠ في بيروت، و٤٠٠٠ في جبل لبنان. الشمال والبقاع والجنوب ما تزال على حالها. مع سعد حدّاد ٤٥٠ جنديًا. من الممكن أن يكونوا مقصّرين في أعمالهم. لا يجوز أن يكون الجيش مستقطبًا Polarisé على هذا الشكل. لا يجوز أن نكتفي بالتمويه والوشوشة. علينا أن نحارب سوريا علنًا، شقيقتنا سوريا!

مع العميد يوسف وهبه، مفتش وزارة الدفاع العام

إفتتح الرئيس الحوار قائلًا:

- عجيب أمر الجيش، يصعب عليّ فهمه. أضطرُ إلى الاجتماع بأربعة أشخاص لأعرف نوع التنسيق القائم فيه.

العميد: أنا ملحق بالوزير. تقتصر مهمّتي على موضوعين: التثّبت من تطبيق القوانين والأنظمة والتعليمات. أفتّش التعليم. أفتّش الأسلحة. أفتّش الإدارة. أفتّش الصحّة، فإذا بمهمّتي مزدوجة تجمع بين الطبيب والضابط. أحيل كلّ ما لدي إلى الوزير. أضع تقاريري دائمًا في أربع نسخ. والأعمال التي قمتُ بها ثلاثة أنواع:

- برنامج تفتيش سنوي مبرمج وموقّع من وزير الدفاع.
- تفتيش تلقائي على ذوقي. وهنا اصطدم بعقبات.
- تفتيش يأمر به الوزير وبحسب الظروف.

إذا اكتشف المفتش أمرًا يسيئ إلى المصلحة العامة، قلب تفتيشه تحقيقًا. والتحقيقات كنت أرفعها إلى الوزير. وعلى سبيل إعطاء مثل عن مصير التحقيقات، أذكر أن ٦٣ منها تجمّدت ولم يتمّ تنفيذها بعد.

الرئيس: فهمت من التفتيش المركزي أنه مُنع من القيام بأي تفتيش.

العميد: هذا معقول. فأنا المسؤول عن التفتيش.

الرئيس: هل كُلّفت أن تحقّق عمّن «دقّ بالجيش»، أي عن الذين حاولوا النيل من هيبته أو الحؤول دون القيام بواجبه الوطني؟

العميد: لم يكلّفني الوزير.

الرئيس: دورك هو تفتيش. وعملاني، ولا علاقة له بالأوضاع السياسية والنفسانية في الجيش.

العميد: صعدتُ إلى كتيبة المدفعيّة، فرأيتُ فيها خللًا مخيفًا ونقصًا غير جائز إنْ في العناصر أو في المدافع والآليات. وإذا قيل ما هي فعاليّة ذلك؟ فأجيبُ

بأن هذا ليس من اختصاصي. فهو منوط بقائد الجيش الذي يقول إن هذا من اختصاصه وتقديره إلى آخر ما هنالك.

الرئيس: هل يمكن أن تعطيني فكرة عن وضع الجيش، ومعنويّاته وتجهيزاته وغيرها من الأمور؟

العميد: العسكري مثل الكيس. إذا امتلأ وقف على رجليه. اليوم، العسكري في بيروت ليس ممتازًا. إلا أنه أفضل ثلاث مرّات مما كان عليه قبلًا، لأنه أُعطيَ معنويات. ولكن هذه المعنويات وحدها لا تكفي، فإلى جانبها يجب أن يأكل. العسكري عندنا أولًا «ختيار»، يعاني همومًا عائليّة. لا تُعرض عليه مهمّات واضحة. ولا هو واثق من تطبيق مبدأ الثواب والعقاب. أنا شخصيًا أصدرتُ حكمي على الجيش بالإعدام منذ سنتين. أما اليوم فقد تحسّن، إذا عولج بتجديد التربية والتثقيف Rééducation، والتدريب، وتحسين الوضع المادي فمن الممكن أن يُعطي شيئًا. لماذا ابن عكار نمر في القوات اللبنانية وغير صالح في الجيش؟ المناخ هو سبب هذا التباين. ولكن الأمل ليس مقطوعًا.

الرئيس: لا تخافوا القيام بأي عمل غايته ضبط الأمور. أنا أحميكم. لا أريد تمييزًا، ووساطات، وصفقات. الجيش جيش.

العميد: العقبات التي يجب أن تزول أمامي تُلخص بما يلي:

- سلطة الوصاية، أي دعم الوزير.
- أساليب المماطلة في التنفيذ والتحقيق.
- المناخ السائد وما فيه من القلق وقلّة الثقة بالنفس.
- خضوع المفتّش لضغوط سياسيّة وعسكريّة.
- إستقلالية التفتيش ماديًا ومعنويًا.
- سياسة ثواب وعقاب.
- تشكيلات عامة تضع العنصر الممتاز بالملاك الممتاز.

الرئيس: قانون الدّفاع كلّه قابل لإعادة النظر فيه.

مع العميد زين مكّي، مدير عام الإدارة في الجيش

إستقبله الرئيس قائلًا:

- أحببتُ أن ألتقيك اليوم لأنتقل غدًا إلى القضاء. أطلعني في نصف ساعة على ما لديك من صعوبات واقتراحات. أنا لستُ هنا لأنتقم من أحد، أو أوظّف الضيعة، أو أعمل قبضاي. علينا أن ننقذ البلد. مسؤوليتكم ضروريّة لهذا الإنقاذ. لأفهم حقيقة الجيش، اضطررت إلى الاجتماع بأربعة أشخاص لأنهم أركان مؤسسة واحدة. وللجيش دور رئيس. إذا كان منضبطًا، انضبط معه الوضع كلّه. أما إذا تشتّت فالبلد يتشتّت معه. إعتمدوا خبرتي ومعلوماتي وأنا معكم.

العميد: يمكن أن يكون حسن الحظ هو الذي يجمعنا بك نحن الأربعة من الناحية المعنويّة. أمّا من الناحية العمليّة فيمكن أن نقول إننا ملزمون بقانون الدفاع. أنا مدير عام في الإدارة. ولكنني في الوقت نفسه، ضابط في الجيش. أشعر بأن حلمي الأكبر أو حلم أي ضابط آخر هو أن أحيا لحظةً أرى فيها جيشي خفّاق العلم. يحزّ في نفسي أن أطوي جيلًا بعد جيل من غير أن أكون واثقًا بنفسي. الحياة العسكرية عنفوان. ومن دون العنفوان هي لا شيء.

الإدارة في الجيش متسكّعة. فيما مضى كان قائد الجيش يتولّى شؤون الإدارة. وكانت له صلاحيات الوزير. لم يكن للوزير شأن في الجيش في الزمن الماضي. القانون الحالي أعطى الوزير صلاحياته الحالية. ولتسهيل الإدارة، فوّض وزير الدفاع قائد الجيش تفويضًا رسميًا، فإذا بفصل الإدارة عن الجيش ركيزة قانونية في قانون الدفاع.

مهماتي هي:

- توفير حاجات الجيش.
- ضمان الخدمات.
- تحديد الموازنة ومراقبتها.

ولما صدّرت مراسيم التطبيق لقانون الدفاع، بدأت عمليّات التجاذب فأوجدت الازدواجية. عندنا مديرية عتاد في الجيش. وعندي مصلحة عتاد. عندنا مديرية

قوّامة (ملابس وما إليها) وعندي مصلحة قوّامة... أضف إلى ذلك: مديريّة هندسة، مديريّة صحة، وعندي ما هو مثلها أو مشابه لها. بدلًا من تحديد العمل الإداري، أوجدوا أجهزة متنوعة واقتسموا هذا العمل، مما أوجد فيه تشعّبات وازدواجيات. أذكر على سبيل المثال أنه كان عندنا تجهيز قوامه الأرقام، لتنظيم أعمالنا(.Ref Document) والتجهيز الحالي يجعلنا ننفق عليه ثلث الموازنة للأسباب التالية:

- الوضع الأمني في البلد وقد يكون هو الذي جمّد الإدارة.
- قانون الدفاع، وإنشاء مجلس عسكري، وإعطاء صلاحيات لمراقبة النفقات.

هذا المجلس هو سوق عكاظ، ومجلس مليّ، ومجلس طوائف. كان كلّ شيء ما عدا ما أراده منه المشترع.

الرئيس: من المحتمل أن يكون المشترع أراده لتجميد مؤسستين.

العميد: سُنّ القانون من غير أن يتعمّق الجيش في درسه. فالمجلس العسكري حجر عثرة في الإدارة. ستة ضباط يفلشون الملف ويضيّعون وقتهم وقد شرّعت الأبواب.

الرئيس: ما هو عديد الجيش.

العميد: ٢٣ ألفًا.

الرئيس: قائد الجيش قال ٢٠ ألفًا.

العميد: القائد أدرى.

الرئيس: كم هو العدد الذي نستطيع إدخاله إلى الجيش.

العميد: إذا كانت الأجهزة فوق ٧٠ بالماية أصبح الجيش (Operational) أي قادرًا على العمل. ولكننا نفتقر إلى العتاد اللازم. الحرب الأهلية قسّمت العتاد لمّا أردنا جمعه. بعثرت عمليتنا. ثم إننا محتاجون إلى كلّ شيء. ليس في الجيش توازٍ عددي. تجهيزاته الإدارية ليست متوافرة، خصوصًا بالنسبة إلى هذه أجهزة الاتصالات التي نزلنا بها إلى بيروت. إنتعش الجيش. فُكّ لجامه. إلتزمنا بالشرعية على مدى سنوات. أما اليوم، فصرنا نتنفّس.

الرئيس: هذه البداية.

العميد: إن شاء الله. مذكرة توقيف الترك، وحثّ قوى الأمن للقبض عليه رفعا المعنويات. فخامتك قائد عسكري سابق. أقرب الناس إلى هذا العهد نحن العسكر. ومن حسن حظّ لبنان أنه ديمقراطي النظام.

أما اقتراحاتي فإني اختصرها بما يلي:

- لبناء الإدارة يجب حصرها في جهاز واحد منعًا للازدواجية.
- قانون المحاسبة العموميّة يجب تعديل مادة واحدة فيه تقضي بدفع ٣٠٠ ألف ليرة وهذا المبلغ لا يكفي.
- المجلس العسكري: كَفّ يده عن الإدارة، فهي ليست في نطاق عمله.
- ليس لدينا مخازن في الجيش.
- مخزون حجم معروف يتطلّب ثقة من فخامتك.
- القروض الأميركية صعبة علينا قليلًا ١٥ بالمائة فائدة... هذا كثير يجب أن تتحوّل هبات.

الرئيس: ستتحوّل.

العميد: أعلّل الأمل بأن إدخال التنظيمات الأساسيّة سيكون من أهمّ الأعمال. هي في نظري إعادة تنظيم أوضاع الجيش. وحتى يتمّ ذلك، أرجو ضبط الوضع بين يديكم. وبعد التسلّم سنعقد جلسات عمل مع كل المعنيين بهذه الأمور. «إكمشوا» الوضع. ضعوا حدًّا للاهتراء.

مع العميد نبيل قريطم، الأمين العام للمجلس الأعلى للدفاع

بدأ العميد حديثه بالتهنئة: نهنئكم ونتمنى لكم التوفيق.

الرئيس: قضينا نصف ساعة لنتكلّم عن أوضاع المؤسسة وعن الصعوبات التي تعرقل مسيرتها الطبيعية. ليس الجيش سليمًا اليوم، ولا القضاء. مساعدة المؤسستين واجبة. أنا هنا لأحكم بإنصاف لا لأعمل بوحي سياسة الضيعة ولا لأنتقم. يجب أن يكون ولاؤنا للبلد، للدولة، للجيش.

العميد: نحن في تصرّفكم. وضعت لكم النصوص القانونية عن وضع الأمانة العامة العسكرية (Ref. Document). وهذه الأمانة العامة تراعي المادة ٧ من قانون الدفاع. المادة العاشرة تحدّد المهمات في القانون.

الرئيس: أفهم أوضاع مؤسسة الجيش اضطررت إلى الاجتماع بأربعة ضباط. أريد أن أرى كيف يكون تعديل القوانين والصلاحيات ليصبح الجيش وحدة متماسكة لا يعتريها شيء من الشرذمة.

العميد: قانون الدفاع الحالي يختلف عن السابق. فالقانون الجديد متعلّق في أكثريته باستعمال الجيش وإدارته (L'emploi de l'armée et sa gestion). وجرى اقتباسه عن القانون الفرنسي من دون أن يؤخذ الوضع اللبناني بعين الاعتبار. فإذا بنا نعمد إلى التسوية والتعديل كلّما دعت التجربة إلى ذلك وكلّما تبيّنت لنا الأخطاء.

الرئيس: ألم تشتركوا جميعًا في وضع القانون؟

العميد: مجلس النواب والحكومة اشتركا في وضعه. فيه نواقص عديدة وأخطاء لا بد من تصحيحها.

الرئيس: أطلب إليك وضع دراسة عن النواقص والأخطاء.

العميد: سأعطيك ما تريد. وأرى أن الممارسة هي الأصل. إنها أهمّ من القانون. تُلغى النواقص بالممارسة الجيّدة حتى يتمّ التعديل. أُطلب فخامتك إلى الجميع أن يسردوا لك هذا الأمر، ومن ثم ضَعْ النصوص لتصحيح الأخطاء والنواقص.

الرئيس: هل عندي غرفة عسكرية في القصر؟

العميد: موضوع هذه الغرفة مبهم في القانون الجديد، ولكنها موجودة بموجب تنظيم القصر.

الرئيس: هل لديك ملاحظات؟

العميد: أظنّ أن تكليف الجيش النزول إلى بيروت هو عمل عظيم.

الرئيس: آمل أن يستمرّ التعاون بيننا.

العميد: أنا في تصرّفكم.

مع الأمير فاروق أبي اللمع، المدير العام للأمن العام

بدأ الأمير حديثه بعرض وضع الأمن العام الذي كان متردّيًا قبل أن يتسلّمه، فقال إنه فوجئ بوجود ٤٠٠ ألف هويّة مزوّرة على يد حزب الأحرار، فأصيب بصدمة مذهلة. وأضاف أن الأمن العام تعرّض لمصاعب عديدة أيضًا في العام ١٩٧٨. وقال: ضاعفت عدد أفراد الجهاز العامل في المصلحة، ويجب أن يعامل الرعايا العرب في لبنان كما يعامل اللبنانيون في البلدان العربية. وقد نفذت هذه العملية، فأحدثت ضجة كبيرة، لكنّها شقّت طريقها إلى التنفيذ. وفي ما يختصّ بالأجانب أتمنّى أن يكون في الأمن العام ١٠ آلاف رجل لضبط المرافئ والمداخل. لم تكن لديّ الإمكانات اللازمة لضبطها. لا يمكن ضبط الأجنبي ما لم نضمن ضبط الحدود. والمسألة لا تخلو من الغشّ والرشوة، المفروض أن تمرّ ثلاثة أيام قبل أن نسلّم جواز السفر. وللرشوة دورها في تمديد هذه الأيام الثلاثة. إننا بحاجة إلى معالجة اجتماعية منها: رفع الرواتب، وتكثيف التفتيش، وما إلى ذلك من أمور ثانوية. في أيام فرنجية اتهم سركيس بالعمالة. فرنجيّة تدخّل بشؤوننا، وتلاه في التدخّل رفعت الأسد. وخلاصة القول إن المدير العام ليس في وضع يُحسد عليه.

في ما يختص بالتقارير السريّة، يجب إيجاد نظام (Système) لوضع تقارير تحمينا. ولسنا بحاجة إلى أكثر من تقرير واحد يصل إلى رئيس الجمهورية.

النفقات السرية ٢٩٢ ألف ليرة شهريًا. ثلثاها يذهبان تلقائيًا على يد رئيس الجمهورية، والباقي يُدفع للصحف والمجلات، وللمخبرين. ثلاثة أرباع نفقات الأمن العام تذهب هدرًا. يجب استصدار أمر من وزارة الإعلام لوقف القبض من الأمن العام، لتكن النفقات الصحافية على وزارة الإعلام. ليدفع جوني عبده، وليدفع أيضًا رضوان مولوي.

وإذا أمكن، طلبت إنشاء سجون وتعيين مدير عام لهذه السجون. لم يبق في الأمن العام اليوم أقل مجال للتمييز بين مسلم ومسيحي.

الرئيس: بالنسبة إلى الترقيات، أتلقّى من الوزّان مطالب عديدة.

الأمير: أجّلتها إلى يوم الجمعة. أنا في تصرّفك. أنا عسكري ماروني. عشت في الأحداث وعرفتها عن كثب.

الرئيس: كنا في السفينة نفسها معًا. سأساعدك حتمًا.

الأمير: أنا وفيّ. أكرّر أني في تصرّفك. دعاني فرنجية إلى زيارته. أطلب توجيهًا منك في هذا الشأن.

الرئيس: سأعلمك بما يجب.

حرصت على تدوين كل ما قيل في هذه اللقاءات التي اعتبرتها في حينه التمهيد الأول والأساسي للعهد الجديد. فمن جهة، اكتشفنا أن واقع الإدارة اللبنانية العامة مهترئ ويعاني من صعوبات بنيوية شديدة التعقيد والصعوبة. ولكن من جهة ثانية، لاحظتُ، إلى جانب تدوين الحوادث أن الرئيس الشاب فرض على محاوريه مقدارًا كبيرًا من هيبته وتأثيره. وقد شعرت بأنهم كانوا مقتنعين بقدرته على إجراء الإصلاح المطلوب لإنقاذ الدولة اللبنانية من عجزها الذي أوقعتها فيه سنوات عجاف وظروف محلية وإقليمية ودولية جعلت لبنان فريسة على مفترقات المصالح.

في الساعة الواحدة بعد الظهر من يوم الثلاثاء الواقع فيه ١٤ أيلول ١٩٨٢، إثر انتهاء آخر موعد رسمي للرئيس المنتخب مع المدير العام للأمن العام، دعاني إلى مرافقته إلى دير الصليب لتناول الغداء عند شقيقته الراهبة أرزة. فاعتذرت لارتباطي بموعد مع المصرفي عدنان القصار في المجلس الحربي لاستلام الشيك من البنك الدولي والمخصص للدولة اللبنانية برئاسة الرئيس الجديد. فقال لي: إذن نلتقي في الساعة الرابعة في بيت الكتائب في الأشرفية». وكان من المقرر أن يزور بيت المنطقة في زيارة وداعية، كتحية منه للتضحيات الثمينة التي قدّمها هذا القسم في مسيرته نحو الرئاسة. واتفقنا على أن نلتقي هناك.

في الساعة الثالثة والنصف، اتصل وقال لي: «لا تأتِ إلى الأشرفية، بل إذهب إلى الهوليداي بيتش، فروبرت باريت، سفير الولايات المتحدة الأميركية بالوكالة ذاهب إليك ليسلّمك «شوية ملبّس». ففهمت للتو بأنه يقصد البرقية المنتظرة من إسرائيل، ومن بيغن نفسه، التي تعلن فيها التزامها الرسمي بالاتفاق الذي عقده بشير مع شارون ليل الأحد - الإثنين.

وصل باريت في الرابعة إلا خمس دقائق، فانتحيت به في إحدى الغرف حيث أملى عليّ نص البرقية، باعتبار أنه ملزم بتقديم النص الأصلي إلى الرئيس المنتخب، على حد قوله. وفيها موافقة رئيس وزراء دولة إسرائيل مناحيم بيغن على الاتفاق. وفي ما يأتي نص البرقية مترجم:

فخامة الرئيس بشير الجميّل،

لقد سررتُ لاجتماعكم مع آرييل شارون في ١٢ ايلول ١٩٨٢ في منزلكم في بكفيا حيث اتفقتم على العلاقات المهمة بين لبنان وإسرائيل. إني أهنئكم على هذا الاتفاق مع موافقتي التامة على كافة بنود الاتفاقية.

حفظكم الله

مناحيم بيغن

وفيما كنت أتحدّث مع باريت حول مفاعيل هذا الاتفاق، فجأة سمعت جلبة في خارج الغرفة، فأسرعت إلى فتح الباب وسمعتُ صراخ زوجتي فيفيان وهي تقول: «جورج لقد أذاعوا أن انفجارًا وقع في الأشرفية». فأخبرتُ السفير وركضنا إلى الغرفة المجاورة حيث يوجد جهاز تلفزيون، فرأينا مذيع الأخبار عرفات حجازي يُدلي بالآتي: «الحمد لله، لقد سلم الرئيس بشير الجميّل وسلم لبنان».

عدتُ مع السفير لنتابع الاجتماع، وإذ بزوجتي تصرخ من جديد: «جورج لقد أذاعوا بأنهم انتشلوا جثة جان ناضر من تحت الأنقاض». حينئذ ساورتني شكوك سود لأن من عادة جان الجلوس بالقرب من بشير. فقررتُ إذّاك أن أتوجه إلى الأشرفية. فتركنا السفير وأنا الهوليداي بيتش مسرعين إلى موقع الانفجار. عند وصولي، التقيت أمام بيت الكتائب بديب أنستاز، قائد الشرطة الكتائبية، وغابي توتونجي شقيق صولانج زوجة بشير، وطمأناني أنهما رأيا بشير محمولًا إلى سيارة إسعاف وهو مغطى بالتراب والغبار.

هالني منظر الدمار والضوضاء والصراخ والجنون، فأسرعت راجعًا إلى الهوليداي بيتش حيث كانت تنتظرني على أحرّ من الجمر زوجتي فيفيان. وصعدنا بسرعة إلى بكفيا لملاقاة عمتها جنفياف والدة بشير، واصطدمنا هناك بسؤالها: «أين بشير؟ لم يتّصل بي حتى الآن». والمعروف أن بشير كان يتصل بوالدته عند حدوث أي أمر يشغل البال. وكان حاضرًا في بكفيا كلّ من شارل مالك والأباتي بولس نعمان والشيخ بيار الجميّل. بعد قليل، كلّمتني هاتفيًا صولانج سائلة: «هل رأيت بشير؟» أجبتها بالنفي، فقالت: «إني خائفة جدًا يا جورج وافني إلى المجلس الحربي». فتوجهنا جميعًا إلى هناك حيث كان الوجوم سيد الموقف. وإذا بالدكتور بول الجميل يدخل متجهّمًا ومكفهّر الوجه، لا يستطيع الكلام، وعرفنا منه بصعوبة أنه عاد من مستشفى أوتيل ديو حيث رأى جثة بشير وعرفها من الخاتم في إصبعه ولون قميصه. فما كان من شارل مالك إلا أن ركع وقبّل يد بيار الجميل وهو يبكي بكاءً مرًّا.

\اغتيل بشير في عرينه، بين رجاله ومحبّيه ومؤيّديه، مع نفر من الذين حلموا معه ببناء لبنان هانئ، مزدهر، سعيد يتوارثه الأبناء والأحفاد من بعدنا.

لولا زيارة باريت لكنت معه!

وإني، إذ أسجل هذه الذكريات، أسائل نفسي:

- أي المصيرين هو الأفضل؟ الرحيل معه، أم البقاء بعده؟

\بشير الجميّل أحب الأشرفية. فيها عمل باذلًا أقصى الجهود. بين أهلها لمع، بل تألّق. منها انطلق. ثم... أبى إلا أن يموت فيها.

ما اكتفى بأن يحبها حتى الاستشهاد. بل جعل من حبه رمزًا لا يزول، وعبرة لا تفنى، وأمثولة لا يقوى عليها النسيان.

محاولات اغتيال بشير

تعرّض بشير لمحاولات اغتيال عديدة، أولها عندما استُشهدت طفلته مايا، في ٢٣ شباط ١٩٨٠.

ثم أتت تحذيرات عديدة من الرئيس الياس سركيس حسب معلومات المكتب الثاني في الجيش.

تحذيرات آرييل شارون من الموساد في اجتماعات عديدة أهمها في بكفيا في ١٢ أيلول ١٩٨٢.

تحذيرات إيلي حبيقة وسفير الولايات المتحدة من حضور مؤتمر فاس لرؤساء وملوك العرب الذي كان مقررًا يوم الخميس في ٢ ايلول ١٩٨٢، وحسب المعلومات أن القذّافي كان سيفجّر طائرته على حدود ليبيا.

حبيب الشرتوني منفذ عملية اغتيال بشير بمخطط من سوريا. وهنا تجدر الإشارة إلى أن جان ناضر تدخّل بقوة مع بشير لمنع إعدام الشرتوني بسبب علاقة ناضر مع شقيقته. فتراجع بشير عن قراره، وخاصة بعد إصرار جان على إعطاء الشرتوني فرصة ليقاتل مع قوات الكتائب في منطقة البرجاوي، مدّعيًا أنه سيقتل أثناء المعاركة. لكن الشرتوني «استبسل» في القتال. مما جعل بشير يسامحه ويسمح له أن يقطن مع شقيقته في الشقة فوق طابق بيت الكتائب في الأشرفية. وهناك خطط الشرتوني مع مهندسين يابانيين كشفوا على سلامة البناء وأعمدته وأساساته، مما سهّل له معرفة مقدار العبوة الناسفة الكافية لهدم المقر برمته بعملية التفجير. عرف إيلي حبيقة بتورّط الشرتوني بالعملية عندما فضحته شقيقته التي عادت مولولة فورًا بعد التفجير بعدما أبعدها شقيقها عن بيت الكتائب أثناء الانفجار.

الفصل الخامس عشر:

أمين بعد بشير

بعـد استشـهاد بشـير، قـررت التوقّـف عـن أي عمـل سـياسي. ففقـدان بشـير بعـد الشـيخ موريـس طبعًـا عنـدي خيبـة أمـل مـن إمكانيـة تحقيـق خـلاص لبنـان. فلـو انتخـب الشـيخ موريـس رئيسًـا للجمهوريـة ولـو عـاش بشـير فـترة لـكان حصـل خـلاص لبنـان مـن الحـروب التـي كادت تطيـح بـه. فموريـس الجميّـل كاد أن يُصبـح رئيسًـا بدعـم مـن الرئيسـين فـؤاد شـهاب وشـارل حلـو، فلـو أن الكتائـب آزرتـه آنـذاك لـكان اسـتحصل عـلى العـدد الـكافي للرئاسـة، ولكنهـا فضّلـت سـليمان فرنجيـة عليـه.

ولو أن بشير عاش فترة لكان مشروعه المستقبلي خلاص للبنان.

بعـد استشـهاده، قـرر شـقيقه أمـين خـوض معركـة رئاسـة الجمهوريـة وكان الرئيـس شـمعون في الوقـت نفسـه قـد أعلـن ترشّـحه للرئاسـة.

إسـتدعاني الشـيخ بيـار الجميّـل وطلـب إليّ ان أبقـى بقـرب أمـين كـما كنـت مـع بشـير. إعتـذرت وقلـت لـه إني سـأعود إلى جامعتـي بعـد غيـاب طويـل، فهنـاك موئـلي الطبيعـي. هنّـأني وطلـب لي بالتوفيـق. زارني بعـد يومـين أمـين وطلـب إليّ أن أبقـى معـه فهـو عـلى وشـك الوصـول إلى رئاسـة الجمهوريـة. إعتـذرت منـه، مجـدِّدًا إصراري عـلى العـودة إلى الحيـاة الأكاديميـة. أصرّ ورفضـت ذلـك. في اليـوم نفسـه، زارتنـي صولانـج بشـير الجميّـل وأصرّت عـلى أن أرافـق أمـين لتحقيـق مشـاريع كان سـيقوم بهـا بشـير لـو بقـي رئيسًـا. أصرّت والدمعـة في عينيهـا. فقبلـت في ١٦ أيلـول ١٩٨٢.

مـرّ إلى منـزلي الشـيخ أمـين لأرافقـه إلى بيـت المسـتقبل لحضـور اجتـماع مهـم مـع الإسرائيلـين. وعندمـا وصلنـا إلى المـكان، فوجئـت بوجـود كافـة أركان إسرائيـل تقريبًـا مـا عـدا بيغـين. إذ كان بـين الحضـور: شـامير، شـارون، دايـف، هـوفي نامـير، بيـتر، مانـدي، سـاغي وسـتوربرت.

مـن بعـد مـا عـزّوه بأخيـه سـأله شـارون: هـل اطّلعـت عـلى الاتفاقيـة التـي حصلـت بينـي وبـين بشـير ووافـق عليهـا بيغـين. أجابـه أمـين: نعـم لقـد أطلعنـي عليهـا الدكتـور

فريحه بخذافيرها ووافقت على مضمونها كاملة. ثم استطرد شارون ذاكرًا بعض بنود الاتفاقية من عدد أفراد الجيش، إلى المطار، إلى الحدود إلخ.. وكان الشيخ أمين يوافق على جميع البنود. وعندما انتهى شارون من طرح استيضاحاته، أمسك بأمين بكلتا يديه ورفعه قائلًا بالإنكليزية: «مات الملك، عاش الملك»، (the king is dead long live the king) وصفق الجميع. فبادره أمين بأن الرئيس شمعون هو مرشح آخر لرئاسة الجمهورية، فأجابه شارون: «سينسحب الليلة».

وقال له شامير: «يجب أن تُعيّن شخصًا من قبلك ونحن سنعيّن شخصًا من قبلنا لمتابعة تنفيذ الاتفاقية (Follow Up). فأجابه الشيخ أمين: «جورج فريحه من قبلي»، فردّ شامير: «ديفيد كمحي من قبلنا».

فتحت الشمبانيا تعبيراً عن الاتفاق الذي تمّ التوصّل إليه.

إنتخب الشيخ أمين رئيسًا للجمهورية في ٢١ ايلول ١٩٨٢ بشكل إجماعي (٧٧ صوتًا).

رافقت الرئيس إلى قصر بعبدا. وبعد ستة أيام، اتصل بي ديفيد كمحي طالبًا اجتماعًا لنحضّر تنفيذ الاتفاقية وفق الوعود المقطوعة. إستأذنت منه لأسأل الشيخ أمين عن موعد اجتماعنا المرتقب مع الإسرائيليين، فدُهشت لجوابه بأنه يجب ألا نجتمع معهم الآن طالبًا التمهل. إعتذرت من كمحي واعدًا بأن أؤمّن موعدًا آخر لربما في اليوم التالي. فقد كنت أجتمع بالشيخ أمين يوميًا صباحًا، واعتبرت أنه سيكون بإمكاني التفاهم معه متى جلسنا.

وفي اليوم التالي، سألته إذا كان بإمكاني أن أحدّد موعدًا لكمحي. أجابني بالنفي قائلًا: «بلا إسرائيل هلّق». إمتعضتُ وحاولتُ أن أقنعه عبر تذكيره بالوعد الذي قطعه لهم، فلم يقبل. وفي اليوم الثالث، فاتحته بالموضوع فكان جوابه قاطعًا وصاخبًا إذ قال لي: «ما راح خليك تجتمع معهم. يحلّو عنا».

تكرّرت مواقف الرئيس أمين الجميّل حيالي، فلم يُراعِ أو يأخذ أو يتبنّى أي استشارة أقدّمها له. مما جعل وجودي معه غير مجدٍ أو مفيد. فقدّمت استقالتي له بعد مئة وستة أيام من وجودي كمستشار أول من القصر. وهذه هي رسالة استقالتي:

أخي أمين،

أرى نفسي منساقًا إلى الكتابة عوضًا عن الكلام الشفهي معك لأنني عالم بأنك تقدّر الكلمة وتحترمها لا بل تقدّسها وترجع إليها كالإنجيل، خاصة إذا كانت وجدانية صادقة ومن القلب إلى القلب.

ككلّ إنسان، إن لي حدسًا يخونني أحيانًا وينبئني بعض الأحيان. أول حدس صدق معي بشأنك هو تنبّئي لك برئاسة الجمهورية عندما كنا صاعدين منذ إثنتي عشرة سنة أنت وأنا في عين سعادة أثناء الحملة الانتخابية لخلافة الشيخ موريس وذلك بسيارتك السوداء العتيقة (*Valiant*) على ما أذكر. وآخر حدس حصل معي عندما عارضتُ جهارًا أمام بشير والمجموعة ترشيحه للرئاسة ليبقى حيًّا ورمزًا للمقاومة اللبنانية، مما حدا بي إلى مقاطعته لمدة أسبوعين من أجل الضغط عليه. ويشهد على إصراري وعنادي ضد ترشيح بشير سليم الجاهل وأنطوان نجم.

أخي أمين،

كان عزائي كبيراً بعد وفاة بشير عندما أصرّيت على أن أكون بقربك في الرئاسة. فنذرتُ نفسي لأن أساعدك بإخلاص وصدق. بدا الحلم جميلًا وكبيراً لأنني سأتابع المشوار معك في خدمة القضية. وبدأت علاقتك معي أجمل وأكبر. لكن، ولمدة ثلاثة أشهر أشعر يومًا بعد يوم بأنني أبعد عنك أكثر وأكثر ويخبو حلمي الجميل. صدّقني أنني ما تألمتُ نفسيًا في حياتي كما تألمت في الأشهر الثلاثة هذه، وكان تألمي ينعكس على زوجتي وعائلتي. وصدّقني أنني ما تعوّدت في حياتي أن أعيش في دوّامة الهبوط لمدّة ثلاثة أشهر تبدأ من القمة وتنزل تدريجيًا إلى حدود التأثّر المعنوي والنفسي كما حصل في القصر. بدأت معك أول يوم وبإشارة طيبة منك كمساعدك الأيمن ورئيس مستشاريك (*Chief of Staff*)، وأصبحتُ اليوم حامل الاسم فقط، إذا بقي ذلك مسموحًا لا حول ولا قوة على شيء. وكمساعدك الأيمن ومستشارك الأول كنت أستأهل حضوراً معك أكثر من مئة وأربعين دقيقة في خلال ثلاثة أشهر.

أخي أمين،

بدأت معك بحدس تحقّق وبحلم جميل دغدغ مشاعري وقلبي. دعني أتركك كي أحافظ على ما تبقى لي من الحلم. إنك عاطفي وإنساني ولذلك تفهمني جيدًا.

سمحت لنفسي أن أكتب إليك باقتضاب إيمانًا مني أنك تقدّر الكلمة وتحترمها وترجع إليها. آسف أنني لم أتفاعل معك كفاية لأعطيك آرائي ونصائحي بأمور عديدة كانت لربما تعطي نتائج أفضل: عن تأليف الحكومة، العلاقة مع إسرائيل، حرب الجبل، مؤسسة بشير الجميّل، القوات اللبنانية، تعيينات الحزب، الإعلام، الإصلاح الإداري وغيرها. لم تراع أو تأخذ أو تتبنّ أية استشارة قدّمتها لك مما جعل وجودي معك غير مجدٍ أو مفيد.

وقبل أن أودعّك مستقيلًا سأسمح لنفسي أن أبدي نصيحة واحدة فقط وذلك بما لديّ بعد من الثواني الباقية من صفة «المستشار»: كن حكيمًا وليس متفرّدًا في الرأي والتنفيذ لأن بين يديك دولة. ما حكم حاكم في الدنيا إلا واستعان بمقرّبين له أعانوه بالمشورة والتنفيذ.

آمل أن تسمح لك الفرصة في أن تجرّبني وتتعاون معي على غير الشكل الذي حصل في القصر لأني على يقين أن بمقدوري واستطاعتي أن أعطي أكثر مما أعطيت وأساعد أكثر مما ساعدت وأدير رهطًا أو مجموعة أو مؤسسة أحسن مما أدرت. إن ماضيّ يشهد على ذلك.

إني أصلّي لك لتبقى معافًا وحيًّا من أجل أطفالنا وأجل لبنان.

واسلم للمخلص

جورج فريحه

١٧/ ١٢/ ١٩٨٢

مرّت الأيام من دون اتّصال مع اسرائيل، وذات يومٍ فوجئتُ بقرع ديفيد كمحي يرافقه إسحق ليور، قائد القوات الإسرائيلية في لبنان باب منزلي في الساعة الحادية عشرة مساءً. دُهشتُ لزيارته وسألته كيف عرف مكان منزلي، ضحك وقال نعرف منازلكم كلّها. طال الاجتماع ثلاث ساعات بحضور زوجتي فيفيان وأنهى كلامه بالجملة التالية:

«نحن نعرف أن الرئيس أمين الجميّل قد نكس بوعده. قلْ له ما يلي: نتوسل إليه بألا يخلّ بوعده. فهو بذلك يضرّنا، لكنه سيقضي على الشعب اللبناني وخاصة على المسيحيين». قال جملته بالإنكليزية ثم كرّرها بالفرنسية. وبصفته الأمين العام لوزارة الخارجية الإسرائيلية والمستشار الشخصي لرئيس الوزراء الإسرائيلي مناحيم بيغن، أنبأنا أن كلامه هو تهديد رسمي من دولة إسرائيل.

غادرنا الإثنان قرابة الساعة الثانية صباحًا. إتصلت بالدكتور إيلي كرامي الذي يلاصق منزله في الأشرفية منزلي وأصرّيت عليه بأن يوافيني فورًا. أتاني مذهولًا فصارحته بالتهديد الإسرائيلي، وطلبت إليه أن ينقله إلى الرئيس أمين الجميّل. رفض ذلك في البداية، لكنه وافق بعد إصراري.

في اليوم التالي، وبعد اجتماعه بالرئيس أمين ونقله التهديد الإسرائيلي إليه، زارني وقال: «كان ردّة فعل الرئيس أمين سيّئة وضد إسرائيل».

بعد ذلك، يشهد التاريخ ما فعلته إسرائيل في حرب الجبل والتهجيرات المتواصلة لسكان الجبل والمآسي المتعدّدة التي ضربت مسيحيي لبنان.

بعد أن تراجع الرئيس أمين الجميّل عن اتفاقه مع إسرائيل قبل توليه رئاسة الجمهورية، وبإصرار من الولايات المتحدة، تعدّدت الاجتماعات مع مندوب إسرائيل ديفيد كمحي ومندوب لبنان أنطوان فتال بحضور مندوب الولايات المتحدة موريس درابير، ونتج عن ذلك الاتفاق الشهير الذي سمي «اتفاق ١٧ أيار «الذي وقّعه المندوبون الثلاثة: درايبر وكمحي وفتال. هذا الاتفاق الذي حظي بموافقة الحكومة بالإجماع ومعظم أعضاء مجلس النواب، لم يبرمه الرئيس أمين الجميّل وألغته الحكومة اللبنانية في ٥ آذار سنة ١٩٨٤، بعد أن كان ما كان.

الخاتمة:

ماذا كان يريد بشير

كنا نسهر الليالي حتى ساعات الصباح الأولى نتعاون مع بشير لتحضير خطاب أو ندوة أو مؤتمر. صحيح أنه تألّق على المنابر بعفويته وشخصيته الساحرة الكاريزماتية، لكنه كان يخصّص الوقت لتعميق المفاهيم والمصطلحات التي استخدمها ويبلورها. فكان يتكلّم أو يكتب، كنا سليم الجاهل وأنطوان نجم وأنا وأحيانًا شارل مالك نصحّح ونزيد ونحذف ونستخلص كلمات أصبح يردّدها في خطبه المرتجلة والمكتوبة. فصارت شهادات واستحداثات طبعت مرحلة الثمانينات لا بل تاريخ لبنان المعاصر، ومن بينها:

- لن نكون تينة يابسة تمرّ عليها الفصول دون أن تحرّك فيها الحياة والحركة والثمرة.

- إذا صعب قول الحقيقة فقولوها، لأن التغاضي عنها أصعب بكثير من قولها.

- لا أوافق على كلمة تقولها، لكني استشهد حتى الموت لأفسح لك المجال للتعبير عنها.

- حفظ اللبنانيون تعاليم المسيح، فهم مولعون بالسلام وتوّاقون إليه.

- لا تُقاس المحبة بأيّ معيار فدرهم منها يوازي قناطير من البغضاء.

- التاريخ يُكتب بأجمل ما سجّله المؤرخون وأيضًا بدم شهداء الأمة.

- لا قيمة لأرض شاسعة لا تضم إنسانًا خلاّقًا في حياته.

- إن مرارة الحياة تقف على عتبة الموت.

- لا قيمة لأية قضية وطنية إذا لم تؤمّن للشعوب أمنها وحريتها.

- الصيغة الصالحة لأية دولة تريد البقاء هي التي تضم حضارات لا يخشى فيها أحد على مصيره أو حقوقه.

- الحرية شعلة لا تُطفأ تنير المحبة والكرامة وتستجلب شهداء يدافعون عنها.

- لا يوجد أمن حقيقي في وطن إذا لم يكن أبناؤه أحرارًا.

- للبنان رأسمال وحيد هو حضارتنا لمدى الأجيال.

- لعن المسيح التينة الجوفاء فلن يكون في لبنان تينة بلا ثمرة.

- للشهادة قداسة فكلّ مخلص يقف خاشعًا على قبر شهيد.

- الإدارة إذا لم تتطور بطهر وإخلاص ستبقى راسبة في أعمالها.

- عطاء المحبة له معيار لا يُقاس إلا بالقناطير.

- هدفنا التغيير للوصول إلى الجمهورية الثانية.

- إن الجديد في لبنان لا يكون أرضًا جديدة بقدر ما هو إنسان جديد.

- نحن لا نريد وطنًا قوميًا مسيحيًا، بل وطنًا لجميع اللبنانيين.

- جوهر القضية اللبنانية بكل بساطة، هو أن تتأمّن لكلّ مضطهد في الشرق أرض يتمتّع عليها بأمنه وحريته.

- نريد صيغة تأخذ في عين الاعتبار وجود جميع الطوائف والحضارات اللبنانية بحيث لا يخشى أحد على مصير مهدّد أو حقوق.

- إن الحكم يستمدّ قوته من الديمقراطية.

- الحرية هي الشعلة المقدّسة التي نستمدّ منها المحبة والعزة والكرامة. وسنظلّ أبدًا نستميت في الدفاع عنها والإخلاص لها.

- الأمن الحقيقي هو الأمن الحرّ.

- إن لبنان الذي نؤمن به، هو وطن حريات للجميع.

- أنا آتٍ لمهمّة محددة هي ١٠٤٥٢ كلم مربع.

- لسنا غرباء عن العالم العربي ونريد أن نعيش فيه بسلام.

- يجب أن يصبح عندنا مئة وخمسون ألف جندي مجهّزين بكلّ المعدّات المطلوبة.

- لم تعد الإدارة قادرة على تحمّل كلّ التبعات والرواسب، لذا يجب أن تتطوّر وتتطهّر.

- رأسمالنا الوحيد هو حضارتنا وثقافتنا وتربيتنا.

- من أعطاكم درهم محبة أعطوه منها قناطير.

- نريد أن نحافظ على الأمانة حتى آخر واحد منا.

- إن التاريخ لا يُكتب إلا بدم الشهداء.

- أتيت لأطلب منكم أن تقولوا الحقيقة مهما كانت صعبة.

- لا نودّ أن نركع.

- إننا شعب مولع بالسلام توّاق إليه.

- إن البلاد تحتاج رئيسًا قويًا ونرفض رئيسًا ضعيفًا.

- الحكم القوي هو القوي بقراراته وبقدرته على تنفيذها.

- نحن مستعدون للحوار ليس مع الملائكة فقط بل مع الشياطين لمصلحة لبنان.

- لا يستأهل أن يكون رئيسًا من لا يقف خاشعًا على قبر شهيد.

وكلمته الأخيرة كرئيس:

- إن نجحت في تحقيق الدولة القويّة بحكم قوي على كامل الأرض اللبنانية أكون قد نجحت. وإلا فأنا رئيس جمهورية شرعي على ما يبقى من لبنان.

لم يكن لدى بشير مشروعًا سياسيًا أو إيديولوجيا محددة، سعى إلى تحقيقها، بقدر ما كان مناضلًا في سبيل قيم ومبادئ عبّرت عنها هذه المصطلحات والمفاهيم التي بلورها، وفي مقدّمها الحرية، الثابتة في جميع أهدافه واستراتيجياته ومشاريعه. وبعد علاقاتي المباشرة معه التي امتدت اثنتي عشرة سنة متواصلة، استخلصت أن ثمة أمرين مهمّين بنظره كانا يدغدغان مبتغاه لو عاش باعتبارهما المدخل لتحقيق السلام والاستقرار في لبنان ولتحصين الحرية فيه، وهما:

أولًا: إعادة الاعتبار لرئاسة الجمهورية المفكّكة الأوصال، بسبب عدم تطبيق صلاحيات الرئيس كما وردت في الدستور، وممارسة الحكم برأسين. لذلك قرّر تكليف إما عثمان الدنا أو سليمان العلي لرئاسة الحكومة بعد أن اطمأن إلى أنهما لن يحرجانه في الحكم كرؤساء حكومة، خصوصًا لأن تطلعاتهما كانت بالغالب لبنانية وتضع مصلحة لبنان بالدرجة الأولى.

ثانيًا: التصدّي للانخفاض الديموغرافي المتواصل في أعداد المسيحيين من نحو ٨٠٪ في عهد المتصرفية، إلى أكثر بقليل من النصف، بعد إعلان دولة لبنان الكبير سنة ١٩٢٠، وإصرار البطريرك الياس الحويّك آنذاك على ضمّ الأقضية الأربعة ذات الأغلبية المسلمة، وإلى ما قد يقلّ عن النصف في عهد بشير.

وللتصدّي لهذا الهبوط الديموغرافي المسيحي كان بشير سيتبنى:

١. مشروع جورج الصليبي، رئيس مجلس الخدمة المدنية، ومفاده الإيعاز إلى كافة قناصل لبنان في المدن الكبرى في الأميركيتَين وأوروبا ليرسلوا إلى لبنان لوائح بأسماء المقيمين هناك من أجل إعادة الجنسية اللبنانية إليهم.

٢. إعتماد الإدارات اللامركزية بجميع وجوهها من فيدرالية وكونفدرالية ومشتقاتها، كما وردت في دراسات لجنة البحوث في الكسليك وأخصائيين كأنطوان نجم وجان شرف وغيرهما.

٣. التواصل مع بعض مسيحيي الشرق الأوسط، وبخاصة الذين هاجروا منهم إلى أوروبا والأميركيتين، بعد تلقيه منهم رسائل التهنئة متمنّين له التوفيق والنجاح والتي تعدّى عددها المئات، وقد أُرسلت من الجامعات والمؤسسات. كما أُرسلت أيقونات وصلبان من كافة أنحاء العالم، وخاصة من أقباط

مصر وأشوريّي العراق ومسيحيي سوريا والأردن الذين صرّحوا بأن لبنان هو وطنهم الثاني.

وفي هذا الإطار، فيما يأتي رسالة أنشرها كنموذج يستدعي الانتباه، وهي من الكونت بيار دو لاموت الماركي دي سينون، نيس فرنسا، هذه ترجمتها:

حضرة الرئيس،

إسمحوا لي أن أتقدم بالفرح والأمل الكبير والتهاني لانتخابكم. عاش لبنان ليبقى حيًا وحرًا ومؤمنًا.

حضرة الرئيس، إني أعرض عليكم أن أستضيف على ممتلكاتي الفلسطينيين المتواجدين في لبنان، وخاصة في بيروت، والبالغ عددهم ٣٠٠,٠٠٠ نسمة. فممتلكاتي هذه موجودة في الاندر واللوار على بعد ستين كيلومتر جنوبي غربي مدينة تور. كما إني أقدّم أيضًا لهذا الغرض ممتلكاتي في غرب مدينة مونتريال في كندا. إن عملية نقلهم وإقامتهم ومساعدتهم ستكون على عاتق المنظّمة العالمية والدول العربية. وإذا أُبعدوا عن لبنان سوف لن يشكّلوا بعد ذاك خطرًا عليه.

كذلك يمكنني استضافة عائلات شيعية ودرزية إذا أردتم ذلك. باستطاعة فرنسا القيام بهذا العمل لمصلحتهم.

وتفضّلوا فخامة الرئيس بقبول أصدق تمنياتي من أجل القضية التي تقومون بها للبنان وبركة يسوع المسيح .

المخلص لكم وللعائلة

بيار دو لاموت

نيس ١٩٨٢/٨/٢٤

وفي الختام، وبعد اثنتَي عشرة سنة متواصلة مع بشير حتى رحيله، سبقتها اثنتان وعشرون سنة من حياته الصاخبة، كيف أصفه؟ تتسارع الصفات وهي متضاربة تجسّد شابًا مرّ كالبرق في ظلام لبنان، فأضاء شعلة برّاقة ما لبثت أن انطفأت بسرعة. فرحي وحزني أني رافقت هذه الشعلة وهي تعيش في حناياي حتى اليوم.

تكتب عنه، فتكتب عن مجد لبنان. فالحرب في لبنان منذ تاريخ ١٣ نيسان ١٩٧٥ المتشابكة، المتصاعدة، المتفاقمة، لياليها الطويلة هي لياليه، وأنوارها الحائرة بين التألّق والانطفاء، بين الظهور والاختفاء، هي ما كنت أراه في عينيه، في نظراته المتوثّبة إلى فوق، في تطلعاته إلى الغد المرتجى، إلى المستقبل المنشود.

من عقده الثالث إلى عقده الرابع، مشى كأنه يسابق الأيام، يتحدّى القضاء، يصارع القدر، يختزل الزمان، يخلط الفتوّة بالشباب، والشباب بالرجولة، ويجعل العمر سلسلة بطولات تتمرّد على الألم، تستحلي المرارة، تجاه الصعاب، تتخطّى الكوارث والنكبات لتنفيذ الرجاء. ليبقى الأمل حيًا وليبقى لبنان.

راقبتُه طويلًا في جدّه ودعابته، في فرحه وحزنه، في أخذه وعطائه. وامتلأت به روحًا وفكرًا، وجدانًا وضميرًا، فرحت أقول في نفسي: إذا قدّر لهذا الإنسان أن يعيش طويلًا، فسيكتب التاريخ عنه صفحات فيها بياض. وإن لم يعمِّر، فحسبه اعتراف الذين تأثّروا به، وتعاونوا معه – وأنا أحدهم – بأنه أنجز في ستة أعوام ١٩٧٦ - ١٩٨٢ ما لا ينجزه سواه في قرون، وقفز فوق العقبات قفزات بطولية تثير الحماسة، بل تلهب الخيال، واستخف بالموت، وكاد يروّض المستحيل.

هذه الكلمات، أوجزت مسافات محدّدة من مراميه، إلا أنها، مهما بلغت من النجاح، تبقى مقصّرة عن استيعاب شخصيته، عن رسم صورة كاملة تتجلّى فيها مواهبه ومزاياه. فهو الرجل اللغز لأجل الأسطورة. الرجل الفذّ العجيب...

هذا بعض ما يقال فيه من غير أن يفيه ولو جزءًا من حقّه، خصوصًا بالنسبة إلى الذين أحبوه حتى العبادة، حتى الإقدام على الاستشهاد، حتى بذل الحياة تلبية لإشارة منه، أو حركة، أو غمزة. إنه رمز الشباب الثائر المغامر حتى الجنون. يصلّي في القداس خاشعًا وفي أعماقه طمأنينة الإيمان، ثم يخرج من الكنيسة ليحمل السلاح ويروح... يروح إعصارًا لا يعبأ بالموت، لا يكترث بالخطر.

هل هذه شجاعة؟ وما الشجاعة إن لم تكن حرارة شباب مؤمّن بأنه يناضل دفاعًا عن حق، وذودًا عن كرامة؟

أجل، هكذا يروح. ومتى عاد، استقبلتْه ابتسامةٌ، ورحبتْ به موجةُ فرح، وإن مات، فرثاؤه ابتسامة أيضًا، ولكن على ثغره وقد صفعت الموت، وحملت بركة من أرز الرب حلّت عليه فجعلت أوجاعه تسبيحًا، واستشهاده قربانًا يضاف زهرة جديدة إلى إضمامة الخلود.

كثير قيل فيه، وأكثر سيقال.

ولكن القول وحده لا يكفيه، ولن يرضيه.

فالغاية التي بها استقوى، ومن أجلها ناضل، وفي سبيلها استشهد، لم تمت معه ولن تموت.

إنها لنا، وفينا، ومنا، ومعنا.

إذا أبقيناها، وبقينا لها، وإليها تابعنا المسيرة، بعثنا البشير حيًا فينا، وقهرنا الموت، وكنا جديرين بالحياة التي أرادها لنا.

وغايته ليست سرًا، ولا لغزًا، ولا أحجية، ولا طلمسًا.

هي واقع إنساني لا ننعم بخيره، لا يهنأ به الأبناء والحفدة بعدنا، إلا إذا سرنا إليه صادقين مؤمنين، مجاهدين.

هذا الواقع واضح في ما أبقاه لنا بشير.

في معطيات نشاطه، وشجاعته، وكفاحه.

في «القضية اللبنانية» التي منها استمد النشاط، ومن معناها القدسي اغترف الشجاعة، وفي سبيلها كافح.

فلنسر على دربه، إذا شئنا حقًا أن يعود إلينا.

وإلا، فلا يكون هو قد مات، بل نكون نحن قد اخترنا بعده الفناء.

وإذا نحن تخاذلنا، أو تقاعسنا، أو تجاهلنا مرماه، أو تخلّينا عن رسالته، نكون قد انتحرنا، فقتلناه مرتين. الواقع أنه قُتل مرتين وثلاث وأربع وأكثر. نعيد ذكراه كلّ سنة وكأنه لا يزال معنا بالروح وبالوجدان وبالضمير فقط، لا بالوجود والفعل والإقبال. فبعد خمسة وثلاثين عامًا يمرّ كالحلم وحلمه يقظة لا تُمحى مع السنين.

الفهرس





جورج فريحة، حائزٌ على الدكتوراه من جامعة مساتشوستس، أستاذ في كليّة الطب في الجامعة الأميركية في بيروت، ومدير فرعها في المناطق الشرقية خلال الحرب.

المؤسّس والمنسّق العام للهيئات الشعبية، ورئيس تجمع الأندية الرياضية، ورئيس المستشارين Chief of Staff للرئيس بشير الجميّل.

نشر أكثر من أربعين منشورًا علميًّا، وله مؤلفات كثيرة في الطب والأدب.

مع بشير، ذكريات ومذكّرات

كان لا بدّ لجورج فريحة من أن يُفرِجَ هكذا فجأة، ودفعة واحدة، ومن دون مقدّمات، عمّا اختزن لديه من حقائق ومعطيات وأسرار حول الحلم-اللغز الذي شكّله الرئيس بشير الجميّل، بعد خمسة وثلاثين عامًا على اغتياله، من دون هاجس التبرير أو تجميل الصورة أو الاستثمار السياسي.

ماذا كان يريد؟ هل كان مشروعه الحقيقي تقسيم لبنان؟ أم التمسّك بالـ ١٠٤٥٢ أيًا تكن التبعات والظروف والمواقف والتحالفات؟ أو في منزلة ما بينهما؟ ما هي حقيقة علاقته مع إسرائيل وحدودها ومراميها؟ هل صحيح أنّ لقاء نهاريّا، بعد انتخابه رئيسًا، أنهى هذه العلاقة أم أصلحها لقاء بكفيّا مع شارون عشيّة اغتياله؟

أجاب جورج فريحة عن هذه الأسئلة، وعن أخرى كثيرة، واضعًا أمام الرأي العام، للمرّة الأولى، محاضر جلسات سرّية تكلّم عنها كثيرون ولم يرها أحد.



9786144510780
25000 L.L.